قواعد قرآنية

٥٠ قاعدة قرآنية في النفس والحياة

أ. د. عمر بن عبد الله بن محمد المقبل

الأستاذ في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة القصيم

طبعة مزيدة ومنقحة






قواعد قرآنية
٥٠ قاعدة قرآنية في النفس والحياة



الرياض - حي المغرزات

٠١١٤٥٤٤٧٦٣

malem@tdabbor.com

٠٥٥٧٢٦١٩٩٩





القصيم - المذنب

٠١٦٣٤٢٣٨٣٨



mfateh1437@gmail.com



الطبعة الرابعة

١٤٣٨هـ / ٢٠١٧

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المقبل، عمر بن عبدالله

قواعد قرآنية (٥٠ قاعدة قرآنية في النفس والحياة) / عمر بن عبدالله المقبل

- ط٤ - الرياض، ١٤٣٨هـ

٣٢٨ ص؛ ١٧ × ٢٢ سم

ردمك: ٥-٤١٢-٥٠٦-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - إعجاز ٢- القرآن - مباحث عامة ٣- القرآن - أحكام أ. العنوان

ديوي ٢٢٥ ١٦١١ / ١٤٣٨

رقم الإيداع: ١٦١١ / ١٤٣٨

ردمك: ٥-٤١٢-٥٠٦-٦٠٣-٩٧٨





مقدمة الطبعة الرابعة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه هي الطبعة الرابعة لكتابي «قواعد قرآنية» أقدمها للقراء الكرام، الذين أكرموني باقتناء الطبعات السابقة، وأفادوني بملاحظاتهم، والتي ظهرت آثارها على هذه الطبعة في أمرين رئيسين:

الأول: إضافة ملخص لكل قاعدة في نهاية شرحها، على غرار ما فعلته بصنو كتابي هذا وهو «قواعد نبوية».

الثاني: أعدتُ النظر في بعض المواضع، وأعدت صياغتها كما في القاعدتين الثانية والتاسعة، وصحَّحت ما ندّ عنِّي من وهم علمي أو مطبعي، وهو نادر بفضل الله.

وقد يسَّر الله تعالى نشر هذا الكتاب على تطبيق على الأجهزة الذكيَّة على كلا النظامين المشهورين: آي أو إس (ios)، والأندرويد (Android).

أسأل الله تعالى أن يتقبله بقبول حسن، وأن يجعله مقرَّبًا لديه.

عمر بن عبدالله المقبل

في ١٨/ ٢ / ١٤٣٨هـ



مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، قيمًا لينذر بأسًا شديدًا من لدنه، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا حسنًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ما رحم عباده بمثل إنزال القرآن، الذي جعله هدىً وموعظةً وذكرى، وجعل لتاليه والعاملين به من لدنه خيرًا وأجرًا، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، كانت حياته وأخلاقه للقرآن تفسيرًا وشرحًا، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديهم، واستن بسنتهم إلى يوم الدين، وسلم تسليمًا كثيرًا، أما بعد:

فإن وجوه الإعجاز في كتاب الله لا تنتهي، ولا غرو! فهو كلام الله ﷻ!

ولقد تفنن علماء هذه الأمة في إبراز ما استطاعوا من تلك الأوجه -التشريعية، والبيانية، والبلاغية- التي تزيد المؤمن يقينًا أن هذا القرآن كلام الله تعالى، وتجعله يتلذذ بتلاوته، وتنفتح له آفاق رحبة عند تدبره.

وإن من أوجه الإعجاز الذي تضمنه كتاب الله ﷻ: ماحواه من جُمَلٍ قليلة المباني، عظيمة المعاني، يقرأ فيها المسلم الجملة المكونة من كلمتين أو ثلاث كلمات أو أربع، فإذا به يجد تحتها كنوزًا من الهدايات العلمية، والإيمانية، والتربوية، والتي جاءت على صورة: **(قواعد قرآنية)**.




ولئن كان نبينا محمد ﷺ قد أخذ بناصية البيان، وأوتي جوامع الكلم، فما الظن بكلام واهب تلك المواهب لعبده وخليله؟!

إن من أعظم مزايا هذه القواعد: شمولها، وسعة معانيها، فليست هي خاصة بموضوع محدد كالتوحيد، أو العبادات مثلًا، بل هي شاملة لهذا ولغيره من الأحوال التي يتقلب فيها العباد، فثمة **قواعدُ** تعالج علاقة العبد بربه تعالى، **وقواعدُ** تصحح مقام العبودية، وسير المؤمن إلى الله والدار الآخرة، **وقواعدُ** لترشيد السلوك بين الناس، وأخرى لتقويم وتصحيح ما يقع من أخطاء في العلاقة الزوجية، إلى غير ذلك من المجالات، بل لا أبالغ إذا قلتُ -وقد تتبعتُ أكثر من مائة قاعدة في كتاب الله-: إن القواعد القرآنية لم تدع مجالًا إلا طرقته.

إنه ليروق للكثيرين استعمال واستخدام ما يعرف بالتوقيعات، وتكون هذه التوقيعات بيتًا من الشعر حينًا، وتكون حينًا آخر كلمة لأحد الحكماء، وفي أحيان أخرى: قطعةً من حديث شريف، وهذا كله لا إشكال فيه، لكن ليتنا نفعّل معاني القرآن من خلال تكرار القواعد القرآنية التي حفل بها كتابُ الله تعالى؛ فإن ذلك له فوائد كثيرة، منها:

١- ربط الناس بكتاب ربهم تعالى في جميع شؤونهم وأحوالهم.

٢- ليرسخ في قلوب الناس أن القرآن فيه علاج لجميع مشاكلهم مهما تنوعت، تارةً بالتنصيص عليها، وتارة بالإشارة إليها من خلال هذه القواعد.

٣- أن تفعيل هذه القواعد القرآنية، وكثرة تردادها على الألسنة؛ يجعل منها بديلًا عن كثير من الغث الذي ملئت به توقيعات بعض الناس سواء في كلماتهم، أو مقالاتهم، أو معرفاتهم على الشبكة العالمية.



وأصل هذه الأوراق حلقات ألقيتها في إذاعة القرآن الكريم السعودية (عام: ١٤٣٠هـ)، فوقعت -بحمد الله- من بعض الفضلاء وقعها الحسن -من داخل المملكة وخارجها- وكان الاقتراح أن تنشر؛ لعل الله ينفع بها، فأعدت النظر فيها، وأعدت صياغتها بما يتناسب والنشر الورقي.

سائلًا الله تعالى أن يجعلها ذخرًا عنده، مقرِّبة لديه، والحمد لله رب العالمين.



عمر بن عبدالله المقبل

البريد الإلكتروني: Omar1427@gmail.com

الموقع الإلكتروني: almuqbil.com

تويتر: @dr_almuqbil

١/ ٥/ ١٤٣٢هـ



تمهيد

يحسن قبل الدخول إلى ما تيسر إعداده من قواعد، أن أبيّن حدّ هذه القواعد، ومرادي بها؛ فأقول: تضمن العنوان كلمتين: قواعد، وقرآنية:

فأما «القواعد»: فهي جمع قاعدة، وأصلها اللغوي يعود إلى مادة (قعد)، وهي -كما يقول ابن فارس-: «**أَصْلٌ مُطَّرِدٌ مُنْقَاسٌ لَا يُخْلَفُ، وَهُوَ يُضَاهِي الْجُلُوسَ** وَإِنْ كَانَ يُتَكَلَّمُ فِي مَوَاضِعَ لَا يُتَكَلَّمُ فِيهَا بِالْجُلُوسِ، ... وَقَوَاعِدُ الْبَيْتِ: أَسَاسُهُ»[1] فكأن قواعد البيت في سفولها تخالف عواليه، ولهذا يقال: «والقاعدُ وَالْقَاعِدَة: أصل الأسِّ.

وَفِي التَّنْزِيل: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾، وَفِيه: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ قَالَ الزّجاج: الْقَوَاعِد: أساطين الْبناء الَّتِي تَعمِده»[2].

وعلى هذا فقاعدة الباب: الأصل الذي تنبني عليه مسائلُه، وفروعُه.

أما **تعريف القاعدة اصطلاحًا**: فهو: «**قَضِيَّة كُلية منطبقة على جزئياتها**»[3].

---

(١) مقاييس اللغة: (٥/ ١٠٨).

(٢) المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده: (١/ ١٧٢).

(٣) تيسير التحرير (١ / ١٤)، وينظر: التعريفات (١٧١)، إجابة السائل شرح بغية الآمل، ص: (٢٥)، حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع، ص: (١/ ٣١).

- فقولهم: «**قضية كلية**» أي يدخل تحتها جميع أجزائها، لا يشذ من ذلك شيء.

وهذا الوصف دقيق، ومطرد في حق القواعد القرآنية التي تعتمد الآية الكريمة، أو جزءً منها في إثباتها؛ لأنها تعتمد على النص القرآني، فهو كلام الله تعالى الذي: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

أما بالنسبة للقواعد التي يصوغها علماء الأصول، أو علماء التفسير، فهذه الكلية قد تنتقض في بعض صورها، فهي -إذن- نسبية، وليست مطردة.

ولا يلزم -في هذه القواعد- من ذلك تعديل الصياغة ليقال بأن القواعد «**حكم أغلبي**»؛ لوجود استثناءات في بعض القواعد، كلا؛ **لأن هذه الاستثناءات لا تخرق القاعدة**؛ فالعبرة بالأغلب، كما يقول الكفوي: «وتخلف الأَصْل فِي مَوضِع أَو موضِعين لَا يُنَافِي أصالته»[(١)].

- وقولهم: «**منطبقة على جزئياتها**»؛ لأن هذه هي حقيقة القاعدة، فهي الأساس والأصل لما فوقها، وهي تجمع فروعًا من أبواب شَتَّى[(٢)].

- **وأما** «**القرآنية**»: فنسبة إلى القرآن، وهو **لغةً**: مأخوذ من قرأ، وأصلها من قَرِيَ -كما يقول ابن فارس- الذي: «يَدُلُّ عَلَى جَمْعٍ وَاجْتِمَاعٍ..، وَمِنْهُ: الْقُرْآنُ، كَأَنَّهُ سُمِّيَ بِذَلِكَ لِجَمْعِهِ مَا فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ وَالْقِصَصِ وَغَيْرِ ذَلِكَ»[(٣)].

---

(١) الكليات: (١٢٢)، وللشاطبي رحمه الله كلام نفيس في تقرير صحة الاعتماد على القواعد وإن وجد لها استثناءات، أو تخلفت بعض جزئياتها، ينظر: الموافقات: (٢/ ٨٣)، قواعد التفسير للسبت: (١/ ٢٣).

(٢) الكليات: (٧٢٨).

(٣) مقاييس اللغة: (٥/ ٧٨) بتصرف، وفي «الإتقان» للسيوطي: ٢/ ٣٣٩ (النوع السابع عشر) بسط وتوسع في اشتقاقه، ليس هذا موضع بسطه.






وأقرب ما قيل في تعريفه **اصطلاحًا**: «**كلام الله تعالى حقيقة، المنزل على محمد ﷺ، المتعبد بتلاوته**»[1].

وأما استعمال هذا اللفظ (**قرآنية**)؛ فإنني لم أقف على استعمال هذه النسبة (قرآنية) في كتب المتقدمين من أئمة اللغة، وإنما وجدتها عند بعض المتأخرين، كما في تاج العروس للزبيدي (ت: ١٢٠٥)[2]، وفي «كليات» أبي البقاء الكفوي (ت: ١٠٩٤)[3].

وأما ورود هذه النسبة في كتب المفسرين من القرن السادس والسابع فكثير، ومن أقدم من وقفت على استعماله لها: الرازي (ت: ٦٠٦) في تفسيره «مفاتيح الغيب»[4]، وأبي حيان (ت: ٧٤٥) في «البحر المحيط»[5].

وأما وروده في كلام غير المفسرين من المتأخرين، فكثير جدًّا، وليس هذا مما يعنينا ههنا.

---

(١) ينظر: «الإتقان» للسيوطي: ٢/ ٣٣٩ (النوع السابع عشر)، مباحث في علوم القرآن لمناع القطان (١٧).
ومما يحسن ذكره ههنا، ما علقه الشيخ محمد بن عبدالله دراز رحمه الله حيث قال - بعد أن تحدث عن فضل القرآن على ما سبقه من الكتب السماوية -: «لما كان القرآن بهذا المعنى الأسمى جزئيًّا حقيقيًّا كان من المتعذر تحديده بالتعاريف المنطقية ذات الأجناس والفصول والخواص،...، وأما ما ذكره العلماء من تعريفه بالأجناس والفصول -كما تعرف الحقائق الكلية- فإنما أرادوا به تقريب معناه، وتمييزه عن بعض ما عداه، مما قد يشاركه في الاسم ولو توهمًا؛ ذلك أن سائر كتب الله تعالى، والأحاديث القدسية، وبعض الأحاديث النبوية، تشارك القرآن في كونها وحيًا إلهيًّا، فربما ظن ظانٌّ أنها تشاركه في اسم القرآن أيضًا، فأرادوا بيان اختصاص الاسم به ببيان صفاته التي امتاز بها عن تلك الأنواع» ا.هـ. ينظر: «النبأ العظيم» (٤٣).

(٢) ينظر -على سبيل المثال-: تاج العروس: (١١/ ١٦٣، ١٨/ ١٩٠).

(٣) الكليات: (١/ ٤٢١).

(٤) ينظر -على سبيل المثال-: (٧/ ١١٠، ١٠/ ١٦٢، ١٧/ ٢٦٩).

(٥) ينظر على سبيل المثال: البحر المحيط في التفسير: (٦/ ٧٤).



وبناءً على ما تقدم، فيمكن الخلوص إلى تعريف **القواعد القرآنية**[1]، باعتباره لقبًا على ما اصطلح عليه حديثًا بهذه الجملة، فيقال في تعريفها، هي:

«**أحكام كلية قطعية، مستخرجة من نصوص القرآن**».

ولتوضيح هذا التعريف يقال:

- قولنا: «**أحكام كلية**» فقد سبق البحث فيها قريبًا.

- وقولنا: «**قطعية**» أي: أن حكمها مقطوع به، فلا يتطرق إليه الظن في أصل بنيتها؛ لأنها مأخوذة من كلام الله تعالى، فهو حق متيقن؛ وإنما يتطرق الظن فيما يُدْخِلُهُ المتأمل من أفراد تلك القاعدة.

كما أن للظن مجالًا فيما يتعلق بتصنيف القواعد إلى كبرى وصغرى.

- قولنا: «**مستخرجة من نصوص القرآن**» وفي هذا إشارة إلى مادة هذه القواعد، فهي مأخوذة من الآيات القرآنية، وليست كقواعد المفسرين أو الأصوليين التي يجتهد العلماء في صياغتها وتحرير ألفاظها.



(١) نظرًا لأن هذا الميدان بكرٌ؛ فلم أقف على من عرّفها باعتبار مجموع هاتين الكلمتين؛ لأن هذا العنوان لا أعلمه طُرِقَ من قبل، ولهذا، فيمكن اختيار تعريف لهذه الجملة.



القاعدة الأولى

﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنًا﴾[1]

الإنسان مدني بطبعه كما يقال، وكثرة تعاملاته اليومية تحتم عليه الاحتكاك بطوائف من الناس، مختلفي الأفهام والأخلاق، يسمع الحسن وغيره، ويرى ما يستثيره؛ فتأتي هذه القاعدة لتضبط علاقته اللفظية.

إنها قاعدة تكرر ذكرها في القرآن في أكثر من موضع، إما صراحة أو ضمنًا:

فمن المواضع التي توافق هذا اللفظ تقريبًا: قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣].

وقريب من ذلك: أمره سبحانه بمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ [العنكبوت:٤٦].

أما التي توافقها من جهة المعنى فكثيرة كما سنشير إلى بعضها بعد قليل.

إذن: تأمل في قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنًا﴾ جاءت في سياق أمر بني إسرائيل بجملة من الأوامر، وهي في سورة مدنية -وهي سورة البقرة- وقال قبل ذلك في سورة مكية -وهي سورة الإسراء- أمرًا عامًا: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ إذًا فنحن أمام أوامر محكمة، ولا يستثنى منها شيء إلا في حال مجادلة أهل الكتاب كما سبق.

---

(١) البقرة: ٨٣.

ومن اللطائف مع هذه الآية ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾: أن هناك قراءة أخرى: وقولوا للناس حَسَنًا﴾ بفتح الحاء والسين.

قال أهل العلم: «والقول الحسن يشمل: الحسن في هيئته، وفي معناه، ففي هيئته: أن يكون باللطف، واللين، وعدم الغلظة والشدة، وفي معناه: بأن يكون خيرًا؛ لأن كل قولٍ حسنٍ فهو خير، وكل قول خير فهو حسن»[1].

إننا نحتاج إلى هذه القاعدة بكثرة، خاصةً وأننا في حياتنا نتعامل مع أصناف مختلفة من البشر، فيهم المسلم وفيهم الكافر، وفيهم الصالح والطالح، وفيهم الصغير والكبير، بل ونحتاجها للتعامل مع أخص الناس بنا: الوالدان، والزوج والزوجة والأولاد، بل ونحتاجها للتعامل بها مع من تحت أيدينا من الخدم ومن في حكمهم.

* من صور تطبيقات هذه القاعدة:

وأنت -أيها المؤمن- إذا قلَّبت القرآن؛ وجدتَ أحوالًا نص عليها القرآن **كتطبيق عملي لهذه القاعدة**، فمثلًا:

١- تأمل قول الله تعالى -عن الوالدين-: ﴿وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا﴾ [الإسراء: ٢٣] إنه أمرٌ بعدم النهر، وهو متضمن للأمر بضده: وهو الأمر بالقول الكريم، الذي لا تعنيف فيه.

٢- وكذلك أيضًا فيما يخص مخاطبة السائل المحتاج: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ [الضحى: ١٠] بل بعض العلماء يرى عمومها في كل سائل! سواء كان سائلًا للمال أو للعلم، قال بعض العلماء: «أي: فلا تزجره ولكن تفضل عليه بشيء، أورده بقول جميل»[2].

---

(١) ينظر: تفسير العثيمين (٣/ ١٩٦).

(٢) تفسير الألوسي: (٢٣/ ١٥).




٣- ومن التطبيقات العملية لهذه القاعدة القرآنية، ما أثنى الله به على عباد الرحمن، بقوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣] يقول ابن جرير رحمه الله في بيان معنى هذه الآية: «وإذا خاطبهم الجاهلون بالله بما يكرهونه من القول، أجابوهم بالمعروف من القول، والسداد من الخطاب»(١).

وهم يقولون ذلك «لا عن ضعف ولكن عن ترفع، ولا عن عجز إنما عن استعلاء، وعن صيانة للوقت والجهد أن ينفقا فيما لا يليق بالرجل الكريم المشغول عن المهاترة بما هو أهم وأكرم وأرفع»(٢).

إن مما يُؤسف عليه أن يرى الإنسان كثرة الخرق لهذه القاعدة في واقع أمة القرآن، وذلك في أحوال كثيرة منها:

١- أنك ترى من يبشرون بالنصرانية يحرصون على تطبيق هذه القاعدة؛ من أجل كسب الناس إلى دينهم المنسوخ بالإسلام، أفليس أهلُ الإسلام أحق بتطبيق هذه القاعدة، من أجل كسب الخلق إلى هذا الدين العظيم الذي ارتضاه الله لعباده؟!

٢- في التعامل مع الوالدين.

٣- في التعامل مع أحد طرفي الحياة الزوجية.

٤- مع الأولاد.

٥- مع العمالة والخدم.

وقد نبهت آية الإسراء إلى خطورة ترك تطبيق هذه القاعدة، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥٣]، وعلى من ابتلي بسماع ما يكره أن يحاول أن يحتمل أذى من سمع منه، وأن يقول خيرًا، وأن يقابل السفه بالحلم، والقولَ البذيء بالحسن، وإلا فإن السفه والرد بالقول الرديء يُحسِنه كل أحد.

---

(١) تفسير الطبري: (١٩/ ٢٩٥).

(٢) ينظر: الظلال: (٥/ ٣٣٠).





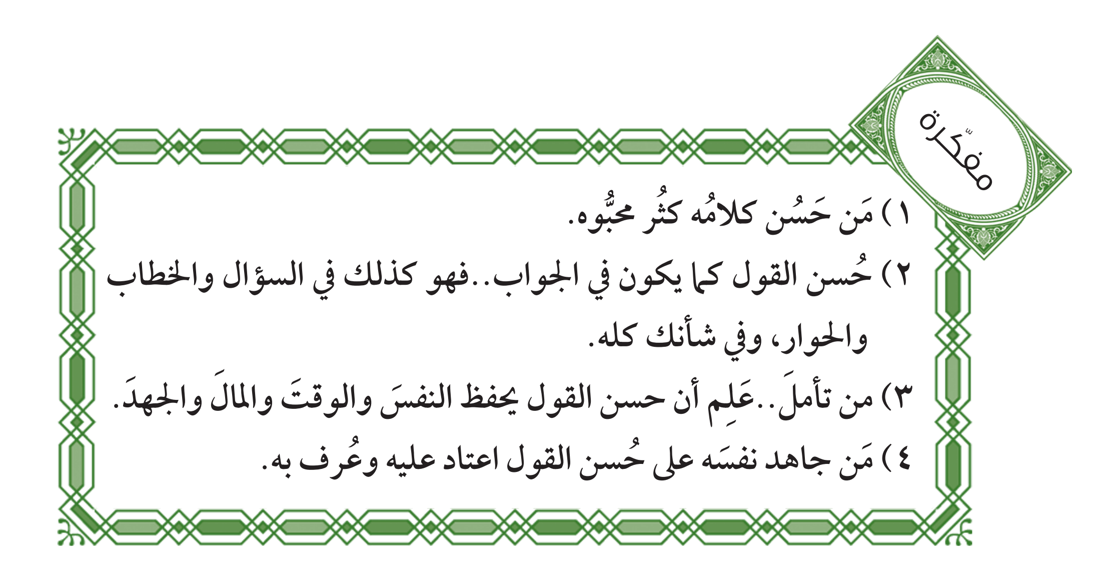

أفتى الإمام مالك رحمه الله لبعض الشعراء بما لا يوافقه، فقال: يا أبا عبد الله، أتظن الأمير لم يكن يعرف هذا القضاء الذي قضيته؟!

قال: بلى.

قال: إنما أرسلنا إليك لتصلح بيننا فلم تفعل، بالله لأقطعن جلدك هجاءًا!

فقال له الإمام مالك:

إنما وصفتَ نفسك بالسفه والدناءة! وهما اللذان لا يعجز عنهما أي أحد، فإن استطعتَ أن تأتي الذي تنقطع دونه الرقاب فافعل: الكرم والمروءة[1]!



١) مَن حَسُن كلامُه كثُر محبُّوه.

٢) حُسن القول كما يكون في الجواب..فهو كذلك في السؤال والخطاب والحوار، وفي شأنك كله.

٣) من تأملَ..عَلِم أن حسن القول يحفظ النفسَ والوقتَ والمالَ والجهدَ.

٤) مَن جاهد نفسَه على حُسن القول اعتاد عليه وعُرف به.

---

(١) انظر: ترتيب المدارك (١/ ٥٩).





هذه قاعدة عظيمة لها أثرٌ بالغ في حياة الذين وعوها، واهتدوا بهداها، قاعدة لها صلة بأحد أصول الإيمان العظيمة: ألا وهو(الإيمان بالقضاء والقدر)، وتلكم القاعدة هي قوله سبحانه وتعالى -في سورة البقرة في سياق الكلام على فرض الجهاد في سبيل الله تعالى-: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦][2].

وهذا الخير المُجمَل، فسَّره قوله تعالى في سورة النساء -في سياق الحديث عن إمساك المرأة مع كراهية الزوج لذلك-: ﴿فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٩].

فقوله: ﴿خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ مفسِّر وموضِّح للخير الذي ذُكر في آية البقرة، وهي الآية الأولى التي استفتحنا بها هذا الحديث.

---

(١) البقرة: ٢١٦.

(٢) لابن القيم كلام نفيس في الفوائد يحسن الاستفادة منه (٢٤٦).

ومعنى القاعدة باختصار:

أن الإنسان قد يقع له شيء من الأقدار المؤلمة، التي تكرهها نفسه، فربما جزع، أو أصابه الحزن، وظن أن ذلك المقدور هو الضربة القاضية على آماله وحياته، فإذا بذلك المقدور يصبح خيرًا على الإنسان من حيث لا يدري.

والعكس صحيح: كم من إنسان سعى في شيءٍ ظاهره خيرٌ، واستمات في سبيل الحصول عليه، وبذل الغالي والنفيس من أجل الوصول إليه، فإذا بالأمر يأتي على عكس ما يريد.

إنك إذا تأملت الآيتين الكريمتين الأولى والثانية، وجدت أن الآية الأولى -التي تحدثت عن فرض الجهاد- تتحدث عن ألم بدني وجسميٍّ قد يلحق المجاهدين في سبيل الله -كما هو الغالب-، وإذا تأملت الآية الثانية -وهي آية الإمساك مع الكراهة- وجدتها تتحدث عن ألم نفسي يلحق الزوج؛ بسبب إمساكه زوجه، وإبقاءها في عصمته، فلعلَّ الله أن يرزقه منها بولد صالح، أو يعطف قلبه عليها بعد كرهه إياها، ولو بعد حين.

وإذا تأملت في آية الجهاد؛ وجدتها تتحدث عن عبادة من العبادات، وإذا تأملت آية النساء؛ وجدتها تتحدث عن علاقات دنيوية.

إذًا: فنحن أمام قاعدة تناولت أحوالًا شتى: دينية ودنيوية، وبدنية ونفسية، وهي أحوال لا يكاد ينفك عنها أحد في هذه الحياة التي:

جبلت على كدر وأنت تريدها ... صفوًا من الأقذاء والأقذار

وقول الله أبلغ: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤].




إذا تبين هذا فاعلم أن إعمال هذه القاعدة القرآنية في الحياة من أعظم ما يملأ القلب طمأنينة وراحةً، ومن أهم أسباب دفع القلق الذي عصف بحياة كثير من الناس؛ بسبب موقف من المواقف، أو بسبب قدر من الأقدار المؤلمة جرى عليه في يوم من الأيام!

ولو قلبنا قصص القرآن، وصفحات التاريخ، أو نظرنا في الواقع؛ لوجدنا من ذلك عبرًا وشواهدَ كثيرة، لعلنا نُذَكِّر ببعض منها، عسى أن يكون في ذلك سلوةً لكل محزون، وعبرةً لكل مهموم:

١- قصة إلقاء أم موسى لولدها في البحر!

فأنت إذا تأملتَ وجدتَ أنه لا أَكْرَه لأمِّ موسى من وقوع ابنها بيد آل فرعون، ومع ذلك ظهرت عواقبه الحميدة، وآثاره الطيبة في مستقبل الأيام، وهذا ما تعبر عنه خاتمة هذه القاعدة: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٢- وتأمل في قصة يوسف عليه الصلاة والسلام تجد أن هذه الآية منطبقة تمام الانطباق على ما جرى له ولأبيه يعقوب عليهما الصلاة والسلام.

٣- وتأمل في قصة الغلام الذي قتله الخضر بأمر الله تعالى؛ فإنه علل قتله بقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف:٨٠-٨١]، لنقف هنا قليلًا ونتساءل:

كم من إنسان لم يقدِّر الله تعالى أن يرزقه بالولد، فضاق لذلك صدره؟! -وهذا شيء طبعي- لكن الذي لا ينبغي أن يستمر: هو الحزن الدائم، والشعور بالحرمان الذي يقضي على بقية مشاريعه في الحياة!

وليت من حُرِم نعمة الولد يتأمل هذه الآية، ليس ليذهب حزنه فقط، بل ليطمئن قلبه وينشرح صدره، وليته ينظر إلى هذا القَدَر بمنظار النعمة والرحمة، وأن الله تعالى قد يكون صرف هذه النعمة رحمةً به! وما يدريه؟ لعله إذا رُزق بولد أن يكون هذا الولد سببًا في شقاء والديه وتعاستهما، وتنغيص عيشهما! أو تشويه سمعتهما، ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨٠ - ٨١]،

٤- وفي مقدمات غزوة بدرٍ، يربي القرآن في أتباعه هذا المعنى، فيقول: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الأنفال: ٥ - ٦]، فكم كتب الله للمؤمنين من الخير والعزة والهيبة للمسلمين بعد هذه الغزوة، التي كره أصحاب النبي ﷺ فيها خيار القتال!

٥- وفي السُنة النبوية أمثلة كثيرة، منها: لما مات زوجُ أمِّ سلمة: أبو سلمة رضي الله عنهما تقول أم سلمة رضي الله عنها: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرًا منها، إلا أخلف الله له خيرًا منها».

قالت: فلما مات أبو سلمة، قلت: أي المسلمين خير من أبي سلمة؟ أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ؟ ثم إني قلتها، فأخلف الله لي رسول الله ﷺ![1]

---

(١) مسلم ح (٩١٨).

فتأمل هذا الشعور الذي انتاب أم سلمة - وهو شعور ينتاب بعض النساء اللاتي يُبتلين بفقد أقوى من تربطهن به علاقة في هذه الحياة ولسان حالهن: ومن خير من أبي فلان؟! - فلما فعلتْ أم سلمة ما أمرها الشرع به من الصبر والاسترجاع وقول المأثور؛ أعقبها الله خيرًا لم تكن تحلم به.

وهكذا المؤمنة يجب عليها أن لا تختصر سعادتها، أو تحصرها في باب واحد من أبواب الحياة، نعم: الحزن العارض هذا شيء لم يسلم منه ولا الأنبياء والمرسلون! إنما الذي لا ينبغي: هو اختصار الحياة أو السعادة في موقفٍ واحد، أو ربطها برجل أو امرأة، أو شيخٍ!

٦- وفي الواقع قصص كثيرة جدًّا، أذكر منها: أن رجلًا قدم إلى المطار، وكان مجهدًا بعض الشيء، فأخذته نومةٌ ترتب عليها أن أقلعت الطائرة، وفيها ركاب كثيرون يزيدون على ثلاثمائة راكب، فلما أفاق، وإذا بالطائرة قد أقلعت قبل قليل، وفاتته الرحلة، فضاق صدره، وندم ندمًا شديدًا، ولم تمض دقائق على هذه الحال التي هو عليها حتى أُعلن عن سقوط تلك الطائرة، واحتراق من فيها بالكامل!

والسؤال: ألم يكن فوات الرحلة خيرًا لهذا الرجل؟! ولكن أين المعتبرون والمتعظون؟ والخلاصة:

على المرء أن يسعى إلى الخير جهده   وليس عليه أن تتم المقاصد

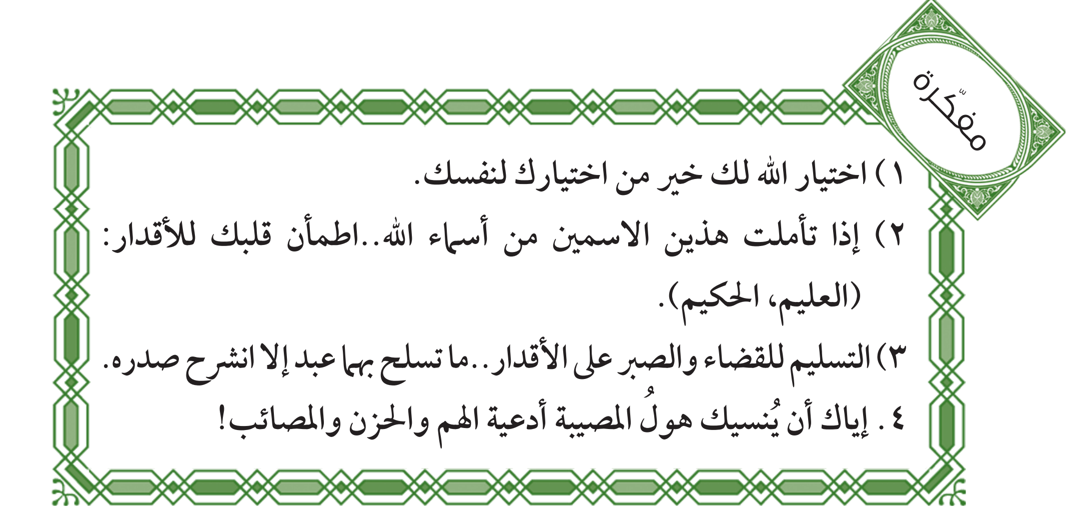
وأن يتوكل على الله، ويبذل ما يستطيع من الأسباب المشروعة، فإذا وقع شيءٌ على خلاف ما يحب، فليتذكر هذه القاعدة القرآنية العظيمة: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.




وليتذكر أن من لطف الله بعباده: «أنه يُقدِّر عليهم أنواع المصائب، وضروب المحن والابتلاء بالأمر والنهي الشاق رحمةً بهم ولطفًا، وسوقًا إلى كمالهم، وكمال نعيمهم»[1].

ومن ألطاف الله العظيمة: أنه لم يجعل حياة الناس وسعادتهم مرتبطة ارتباطًا تامًا إلا به سبحانه وتعالى، وبقية الأشياء يمكن تعويضها، أو تعويض بعضها:

من كل شيء إذا ضيعته عوضٌ … وما من الله إن ضيعتهُ عوضُ



١) اختيار الله لك خير من اختيارك لنفسك.

٢) إذا تأملت هذين الاسمين من أسماء الله..اطمأن قلبك للأقدار: (العليم، الحكيم).

٣) التسليم للقضاء والصبر على الأقدار..ما تسلح بهما عبد إلا انشرح صدره.

٤ . إياك أن يُنسيك هولُ المصيبة أدعية الهم والحزن والمصائب!

---

(١) تفسير أسماء الله الحسنى (٧٤) للسعدي.



تعتبر هذه الآية قاعدة من القواعد السلوكية التي تدل على عظمة هذا الدين وشموله وعظمة مبادئه، وهذه الآية الكريمة جاءت في سياق آيات الطلاق في سورة البقرة، يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

ومعنى القاعدة باختصار: أن الله تعالى يأمر من جمعتهم علاقة من أقدس العلاقات الإنسانية – وهي علاقة الزواج –أن لا ينسوا– في غمرة التأثر بهذا الفراق والانفصال – ما بينهم من سابق العشرة، والمعاملة.

وهذه القاعدة جاءت بعد ذلك التوجيه بالعفو: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ كلُّ ذلك لزيادة الترغيب في العفو والتفضل الدنيوي.

ومع أن النسيان أمرٌ جِبلّي، ليس بوسع الإنسان دفعه؛ إلا أن الآية الكريمة جاءت بالتأكيد على عدم النسيان، والمراد به هنا: الإهمال وقلة الاعتناء.

(١) البقرة: ٢٣٧.

وفي قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تعليل للترغيب في عدم إهمال الفضل، وتعريض بأن في العفو مرضاة الله تعالى، فهو يرى ذلك منا فيجازي عليه[1].

إن العلاقة الزوجية -في الأعم الأغلب- لا تخلو من جوانب مشرقة، ومن وقفات وفاء من الزوجين لبعضهما، فإذا قُدّر وآل هذا العقد إلى حل عقدته بالطلاق؛ فإن هذا لا يعني نسيان ما كان بين الزوجين من مواقف الفضل والوفاء، ولئن تفارقت الأبدان، فإن الجانب الخلقي يبقى ولا يذهبه مثل هذه الأحوال العارضة.

وما أعظم أثر العفو! فإنه يقرب إليك البعيد، ويُصيِّر العدو صديقًا.

إذا تعارف الناس الفضل بينهم سهُل على المذنب الاعتراف بالذنب، وسهل على من له الحق أن يعفو، بخلاف ما إذا أصبحوا لا يتنازلون عن حقوق ذواتهم.

ولله ما أعظم هذه القاعدة لو تم تطبيقها بين الأزواج! وبين كل من تجمعنا بهم رابطة أو علاقة من العلاقات!

لقد ضرب بعض الأزواج -من الجنسين- أروع الأمثلة في الوفاء، وحفظ العشرة، سواء لمن حصل بينهم وبين أزواجهم فراق بالطلاق، أو بالوفاة.

أذكرُ نموذجًا وقفتُ عليه، ربما يكون نادرًا، وهو لرجل أعرفه شخصيًا، طلق زوجته - التي له منها أولاد - فما كان منه إلا أسكنها في الدور العلوي مع أولاده الذين بقوا عندها، وسكن هو في الدور الأرضي، وصار هو الذي يسدد فواتير الاتصالات والكهرباء ويقوم -تفضلًا- بالنفقة على مطلقته، حتى إن كثيرًا ممن حوله من سكان الحي لا يدرون أنه مطلق! وإني لأحسبه ممن بلغ الغاية في امتثال هذا التوجيه الرباني: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡ﴾، نعم هذا مثال عزيز، لكني أذكره لأبين أن في الناس خيرًا.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢/ ٤٤٣) بتصرف.




وهذا نموذج آخر، لكن يحكيه قاضي القضية: الشيخ علي الطنطاوي، يقول:

«قضية خلاف بين زوجين، طال أمده، واستفحل شره، وانتهى أمره إليّ، وعرض كل منهما دعواه على صاحبه؛ متهمًا إياه بسوء العشرة، ومطالبًا بحقوق عليه!

وألحت المرأة بطلب الطلاق، وبضم الأولاد إليها دون نفقة، وبعد دراسة دقيقة للقضية؛ تبين لي أن لا سبيل للتوفيق بينهما على حالتهما الراهنة؛ فقررت إجراء تجربة الطلاق لمرة واحدة، وعرَضتُ الفكرة عليهما؛ فلم يترددا في قبولها، وأوقع الزوج الطلقة!

وهنا جعلتُ أذكرهما بحق المودة والرحمة والأولاد، وختمت بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡ﴾، وكان لكلامي أثره العاجل؛ فإذا الزوج يقول: إذا كان الأمر للمودة والرحمة والأولاد؛ فإني متنازل عن كل حق لي عليها، ومستعد للإنفاق على أبنائي ما داموا في كفالتها!

وأجابت المرأة على ذلك بأنها هي أيضًا متنازلة له عن مؤخر صداقها!

وكان من أسباب الخلاف بين هذين الزوجين: أن المرأة كلما استاءت من زوجها حاولت الذهاب إلى بيت أهلها؛ فيمنعها أن تصحب متاعها سوى ما تلبسه!

ولكن ما إن صارا إلى هذه النتيجة حتى تغير الحال، وقال الرجل لزوجه: هذا مفتاح البيت؛ فخذي منه ما تحبين، ودعي ما تكرهين!

ولقد كان لهذا الموقف أثره البالغ في نفسي، وأكثر ما راعني منه: تلك الدموع التي ذرفها كل منهما..»[1].

---

(١) ينظر: صناع التأريخ خلال ثلاثة قرون. للشيخ عبد العزيز العويد (ص٩٠).

ولنقف قليلًا عند موقف عملي في سيرة من كان القرآن خُلُقه ﷺ لنرى كيف كان يترجم القرآن عمليًا في حياته: وذلك أنه ﷺ لما رجع من الطائف، بعد أن بقي شهرًا يدعو أهلها، ولم يجد منهم إلا الأذى، رجع إلى مكة، فدخل في جوار المطعم بن عدي، فأمر أولاده الأربعة فلبسوا السلاح، وقام كل واحد منهم عند الركن من الكعبة، فبلغ ذلك قريشًا فقالوا له: أنت الرجل الذي لا تُخفر ذمتك!

ومات المطعم بن عدي مشركًا، لكن النبي ﷺ لم ينس له ذلك الفضل، فأراد أن يُعبِّر عن امتنانه لقبول المطعم بن عدي أن يكون في جواره، في وقت كانت مكة كلها - إلا نفرًا يسيرًا - ضد النبي ﷺ، فلما انتهت غزوة بدر قال ﷺ: «لو كان المطعم بن عدي حيًا ثم كلمني في هؤلاء النَّتْنى لتركتهم له»[1].

والمعنى: لو طلب مني تركهم وإطلاقهم من الأسر بغير فداء لفعلت؛ ذلك مكافأة له على فضله السابق في قبول الجوار، فصلوات الله وسلامه على معلم الناس الخير.

* من صور تطبيقات هذه القاعدة:

في حياتنا مجموعة من العلاقات -سوى علاقة الزواج-: إما علاقة قرابة، أو مصاهرة، أو علاقة عمل، فما أحرانا أن نطبق هذه القاعدة في حياتنا؛ ليبقى الود، ولتحفظ الحقوق، وتتصافى القلوب؛ وإلا فإن مجانبة تطبيق هذه القاعدة الأخلاقية العظيمة، يعني مزيدًا من التفكك، ووأدًا لبعض الأخلاق الشريفة.

(١) البخاري ح (٢٩٧٠).

ومن العلاقات التي لا يكاد ينفك عنها أحدنا: علاقة العمل -سواء كان حكوميًّا أو خاصًّا، أو تجاريًّا-، فقد تجمعنا بأحد من الناس علاقة عمل، وقد تقتضي الظروف أن يحصل الاستغناء عن أحد الموظفين، أو انتقال أحد الأطراف إلى مكان عمل آخر برغبته واختياره، وهذا موضع من مواضع هذه القاعدة؛ فلا ينبغي أن يُنسى الفضل بين الطرفين، فكم هو جميل أن يبادر أحد الطرفين إلى إشعار الطرف الآخر: أنه وإن تفرقنا – بعد مدة من التعاون – فإن ظرف الانتقال لا يمكن أن ينسينا ما كان بيننا من وُدٍ واحترام، وتعاونٍ على مصالح مشتركة؛ ولذا فإنك تُكْبر أولئك الأفراد، وتلك المؤسسات التي تُعبِّر عن هذه القاعدة عمليًا بحفل تكريمي أو توديعي لذلك الطرف؛ فإن هذا من الذكريات الجميلة التي لا ينساها المحتَفَى به، وإذا أردتَ أن تعرف موقع وأثر مثل هذه المواقف الجميلة؛ فانظر إلى الأثر النفسي السلبي الذي يتركه عدم المبالاة بمن بذلوا وخدموا في مؤسساتهم الحكومية أو الخاصة لعدة سنوات، فلا يصلهم ولا خطاب شكر!

ومن ميادين تطبيق هذه القاعدة: الوفاء للمعلمين، وحفظ أثرهم الحسن في نفس المتعلم، وأعرف معلماً من رواد التعليم في إحدى مناطق بلادنا[1]، ضرَب مثالاً قيماً للوفاء؛ إذ لم يقتصر وفاؤه لأساتذته الذين درسوه، بل امتد لأبنائهم حينما مات أساتذته -رحمهم الله-، ويزداد عجبك حين تعلم أنه يتواصل معهم وهم خارج المملكة، سواء في مصر أو الشام، فلله در هذا الرجل، وأكثرَ في الأمة من أمثاله.

ورحم الله الإمام الشافعي يوم قال: «الحُرُّ من حفظ وداد لحظة، ومن أفاده لفظة»[2].

(١) هو الأستاذ: عبد العزيز بن إبراهيم الخريف، من وجهاء حريملاء.

(٢) شرح مختصر خليل للخرشي (٣/ ٢٦٧).

وفي واقعنا مواضع كثيرة لتفعيل هذه القاعدة القرآنية الكريمة:

فللجيران الذين افترقوا منها نصيب، ولجماعة المسجد منها حظ، بل حتى العامل والخادم الذي أحسن الخدمة، ولهذه القاعدة حضورها القوي في المعاملة، حتى قال بعض أهل العلم: «من بركة الرزق: أن لا ينسى العبد الفضل في المعاملة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡ﴾ بالتيسير على الموسرين، وإنظار المعسرين، والمحاباة عند البيع والشراء، بما تيسر من قليل أو كثير، فبذلك ينال العبد خيرًا كثيرًا»(١).

نسأل الله تعالى أن يهدينا لأحسن الأخلاق والأعمال؛ لا يهدي لأحسنها إلا هو، وأن يعيذنا من سيئها؛ لا يعيذ منها إلا هو سبحانه.

مفكّرة

١) العلاقة الزوجية شجرة.. تُسقى بالاهتمام، وتذبل أغصانها بالإهمال.
٢) العفو ذكر في آية واحدة تتحدث عن الزوجين ثلاث مرات..هل وصلت الرسالة؟
٣) الزواج عروة من أوثق عرى الحياة..فتعاهدوها بكل جميل.
٤) الرفق، والصبر، والتغاضي..من أعظم أسرار السعادة الزوجية.

---

(١) بهجة قلوب الأبرار (٣٧).



هذه قاعدة من قواعد التعامل مع النفس[2]، ووسيلة من وسائل علاجها من أدوائها، وهي في الوقت نفسه سلّمٌ لترتقى في مراقي التزكية، فإن الله تعالى قد أقسم أحد عشر قسماً في سورة الشمس على هذا المعنى العظيم، ثم قال: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩].

ومعنى القاعدة باختصار: أن الإنسان وإن حاول أن يجادل عن أفعاله أو أقواله التي يعلم من نفسه بطلانها أو خطأها، واعتذر عن نفسه باعتذارات، فهو يعرف تمامًا ما قاله وفعله، ولو حاول أن يستر نفسه أمام الناس، أو يلقي الاعتذارات، فلا أحد أبصر ولا أعرف بما في نفسه من نفسه.

وتأمل كيف جاء التعبير بقوله: «بصيرة» دون غيرها من الألفاظ؛ لأن البصيرة متضمنة معنى الوضوح والحجة، كما يقال للإنسان: أنت حجة على نفسك!

(١) القيامة: ١٤، ١٥.

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٤٨): «وَقَدْ جَرَتْ هَذِهِ الجمْلَةُ مجْرَى المَثَلِ لِإِيجَازِهَا وَوَفْرَةِ مَعَانِيهَا».

*** من صور تطبيقات هذه القاعدة:**

إن لهذه القاعدة القرآنية مجالات كثيرة في واقعنا العام والخاص، أذكر بعضها؛ لعلنا أن نفيد منها في تقويم أخطائنا، وتصحيح ما ندّ من سلوكنا، فمن ذلك:

١- في طريقة تعامل بعض الناس مع النصوص الشرعية:

فلربما بلغ البعضَ نصٌّ واضح محكمٌ، لم يختلف العلماء في دلالته على إيجاب أو تحريم، أو تكون نفسه اطمأنت إلى حكمٍ ما، ومع هذا تجد البعض يقع في نفسه حرجٌ! ويحاول أن يجد مدفعًا لهذا النص أو ذاك؛ لأنه لم يوافق هواه!

ورحم الله ابن القيم حيث قال: «فسبحان الله! كم من حزازة في نفوس كثير من الناس من كثير من النصوص، وبودهم أن لو لم تَرِدْ؟ وكم من حرارة في أكبادهم منها، وكم من شجىً في حلوقهم منها ومن موردها؟»(١).

ولا ينفع الإنسان أن يحاول دفع النصوص بالصدر؛ فالإنسان على نفسه بصيرة، وشأن المؤمن أن يكون كما قال ربنا تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

يقول ابن الجوزي، في كتابه الماتع (صيد الخاطر) -وهو يحكي مشاعر إنسان يعيش هذه الحال مع النصوص الشرعية-: «قال بعض المعتبرين: قدرتُ مرة على لذة ظاهرها التحريم، وتحتمل الإباحة؛ إذ الأمر فيها متردد، فجاهدت النفس فقالت: أنتَ

(١) الرسالة التبوكية (ص: ٢٥)، وتسمى أيضًا: زاد المهاجر.




ما تقدر فلهذا تترك! فقَارِب المقدورَ عليه، فإذا تمكنتَ فتركتَ؛ كنت تاركًا حقيقة! ففعلتُ وتركتُ، ثم عاودت مرة أخرى في تأويل أرتني فيه نفسي الجواز -وإن كان الأمر يحتمل-؛ فلما وافقتها أثّر ذلك ظلمة في قلبي؛ لخوفي أن يكون الأمر محرمًا، فرأيت أنها **تارةً** تقوى عليّ بالترخص والتأويل، **وتارةً** أقوى عليها بالمجاهدة والامتناع، فإذا ترخصتُ لم آمن أن يكون ذلك الأمر محظورًا، ثم أرى عاجلًا تأثير ذلك الفعل في القلب...» إلى أن قال: «فأجود الأشياء قطع أسباب الفتن، وترك الترخص فيما يجوز إذا كان حاملًا ومؤديًا إلى ما لا يجوز»(1) انتهى كلامه.

٢- ومن مجالات تفعيل هذه القاعدة -في مجال التعامل مع النفس-:

- أن من الناس من شُغف -عياذًا بالله- بتتبع أخطاء الناس وعيوبهم، مع غفلة عن عيوب نفسه، كما قال قتادة رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾: إذا شئت والله رأيته بصيرًا بعيوب الناس وذنوبهم، غافلًا عن ذنوبه(2)، وهذا -بلا ريب- من علامات الخذلان، كما قال بكر بن عبد الله المزني: إذا رأيتم الرجل موكلًا بعيوب الناس، ناسيًا لعيبه؛ فاعلموا أنه قد مُكِرَ بِهِ.

ويقول الشافعي: بلغني أن عبد الملك بن مروان قال للحجاج بن يوسف: ما من أحد إلا وهو عارف بعيوب نفسه، فعب نفسك ولا تخبيء منها شيئًا(3)، ولهذا يقول

(١) صيد الخاطر: (٢٠٣-٢٠٤).

(٢) تفسير الطبري: (٢٤/ ٦٣).

(٣) حلية الأولياء: (٩/ ١٤٦).

أحد السلف: أنفع الصدق أن تُقر لله بعيوب نفسك[1].

- **ومن مواضع تطبيق هذه القاعدة:** أن ترى بعض الناس يجادل عن نفسه في بعض المواضع - التي تَبَين فيها خطؤه - بما يعلم في قرارة نفسه أنه غير مصيب، كما يقول ابن تيمية رحمه الله في تعليقه على هذه الآية: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾: فإنه يعتذر عن نفسه بأعذار ويجادل عنها، وهو يبصرها بخلاف ذلك[2].

ومن دلالات هذه القاعدة الشريفة:

أن يسعى المرء إلى التفتيش عن عيوبه، وأن يسعى في التخلص منها قدر الطاقة، فإن هذا نوع من جهاد النفس المحمود، وأن لا يركن إلى ما فيه من عيوب أو أخطاء، بحجة أنه نشأ على هذا الخلق أو ذاك، أو اعتاد عليه، فإنه لا أحد من الناس أعلم منك بنفسك وعيوبها وأخطائها وذنوبها، وما تسره من أخلاق.

وإليك هذا النموذج المشرق من حياة الإمام ابن حزم رحمه الله، حيث يقول -في تقرير هذا المعنى-:

«كانت فيَّ عيوب، فلم أزل بالرياضة واطّلاعي على ما قالت الأنبياء صلوات الله عليهم، والأفاضل من الحكماء المتأخرين والمتقدمين -في الأخلاق وفي آداب النفس- أعاني مداواتها، حتى أعان الله عز وجل على أكثر ذلك بتوفيقه ومنّه، **وتمام العدل ورياضة النفس والتصرف بأزمة الحقائق هو الإقرار بها**؛ ليتعظ بذلك متعظ يومًا إن

(١) حلية الأولياء: (٩/ ٢٨٢).

(٢) مجموع الفتاوى: (١٤/ ٤٤٥).




شاء الله»[1].

ثم ساق الإمام ابن حزم جملة من العيوب التي كانت فيه، وكيف حاول التغلب عليها، ومقدار ما نجح فيه نجاحًا تامًا، وما نجح فيه نجاحًا نسبيًا.

ومن مواطن استفادة المؤمن من هذه القاعدة:

أن الإنسان ما دام يعلم أنه أعلم بنفسه من غيره؛ وجب عليه أن يتفطن أن الناس قد يمدحونه في يومٍ من الأيام، بل قد يُفرطون في ذلك، وفي المقابل قد يسمع يومًا من الأيام من يضع من قدره، أو يخفض من شأنه بنوع من الظلم والبغي، فمن عرف نفسه لم يغتر بمدحه بما ليس فيه، ولم يتضرر بذمه بما ليس فيه، بل يستفيد من ذلك بتصحيح ما فيه من أخطاء، ويسعى لتكميل نفسه بأنواع الكمالات البشرية قدر المستطاع.

ومن أشرف مجالات تطبيق هذه القاعدة:

أن من أكبر ثمرات البصيرة بالنفس: أن يوفَّق الإنسان إلى الاعتراف بالذنب والخطأ، وهذا مقام الأنبياء والصديقين والصالحين:

فتأمل في قول أبوينا -حين أكلا من الشجرة-: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وقولِ نوح عليه السلام -عندما نهاه الله أن يسأله ما ليس له به علم-: ﴿قَالَ

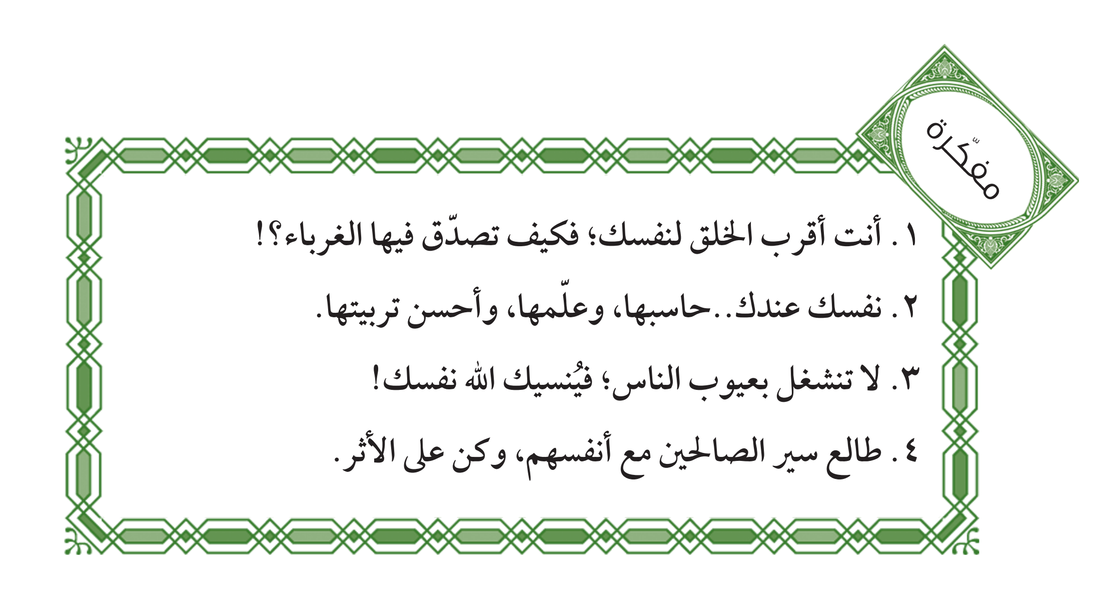
(١) رسائل ابن حزم: (١/ ٣٥٤).



﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

وقولِ موسى عليه السلام -ندمًا على قتله القبطي-: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦]، في سلسلة متتابعة كان من آخرها: ما أثبته القرآن عن أولئك المنافقين الذين اعترفوا بذنوبهم؛ فسلموا وتيب عليهم، قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢] «فعلم أن من لم يعترف بذنبه كان من المنافقين»[1].

أسأل الله تعالى أن يبصرنا بعيوبنا، وأن يقينا شرها.



١. أنت أقرب الخلق لنفسك؛ فكيف تصدّق فيها الغرباء؟!

٢. نفسك عندك.. حاسبها، وعلّمها، وأحسن تربيتها.

٣. لا تنشغل بعيوب الناس؛ فيُنسيك الله نفسك!

٤. طالع سير الصالحين مع أنفسهم، وكن على الأثر.

(١) الصارم المسلول: (١/ ٣٦٢).



جاءت هذه القاعدة في سياق قصة موسى مع فرعون وسحرته، كما قال تعالى عن فرعون: ﴿قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ٥٩ فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ٦٠ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ٦١ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ [طه: ٥٩-٦٢].

والافتراء يطلق على معانٍ منها: الكذب، والشرك، والظلم، وقد جاء القرآن بهذه المعاني الثلاث، وكلها تدور على الفساد والإفساد(٢).

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله مؤكدًا اطراد هذه القاعدة: «وقد ضمن سبحانه أنه لا بد أن يُخيِّب أهل الافتراء ولا يهديهم، وأنه يُسحتهم بعذابه، أي يستأصلهم»(٣).

❊ ومن صور تطبيقات هذه القاعدة:

إذا تأملتَ هذه القاعدة وجدتَ في الواقع -وللأسف- من له منها نصيب وافر، ومن ذلك:

---

(١) طه: ٦١.

(٢) مفردات الراغب: (٦٣٤).

(٣) الصواعق المرسلة: (٤/ ١٢١٢).

١- الكذب والافتراء على الله، بالقول عليه بغير علم بأي صورة من الصور، يقول الله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقد دلّ القرآن على أن القول على الله بغير علم أعظم المحرمات على الإطلاق! قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وأنت إذا تأملت في هذا الأمر؛ وجدت أن المشرك إنما أشرك لأنه قال على الله بغير علم!

ومثله الذي يحلل الحرام أو يحرم الحلال، كما حكاه الله تعالى عن بعض أحبار بني إسرائيل.

ويدخل فيها الذين يفتون بغير علم، فهم من جملة المفترين على الله سبحانه وتعالى، كما قال ﷻ: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

وكلُّ من تكلم في الشرع بغير علم فهو من المفترين على الله: سواء في باب الأسماء والصفات، أو في أبواب الحلال والحرام، أو في غيرها من أبواب الدين.

ولأجل هذا كان كثير من السلف يتورع أن يجزم بأن ما يفتي به هو حكم الله -إذا كانت المسألة لا نص فيها، ولا إجماع- قال بعض السلف: «ليتق أحدكم أن يقول: أحل الله كذا وحرم كذا فيقول الله له: كذبت! لم أحل كذا ولم أحرم كذا!»[(١)].

ولهذا لما كتب الكاتب بين يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حكمًا حكَم به، فقال: «هذا ما أرى اللهُ أميرَ المؤمنين عمر»! فقال: لا تقل هكذا، ولكن قل: «هذا ما رأى عمر، فإن كان صوابًا فمن الله، وإن كان خطأ فمن عمر»[(٢)].

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين: (١/ ٣٩).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى برقم (٢٠١٣٥).

وقال ابن وهب: سمعت مالكًا رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «لم يكن من أمر الناس، ولا من مضى من سلفنا، ولا أدركت أحدًا أقتدي به يقول في شيء: هذا حلال وهذا حرام، وما كانوا يجترئون على ذلك، وإنما كانوا يقولون: نكره كذا، ونرى هذا حسنًا فينبغي هذا ولا نرى هذا»[1].

فعلى من لم يكن عنده علم فيما يتكلم به أن يُمسك لسانه، وعلى من تصدر لإفتاء الناس أن يراعي هدي السلف في هذا الباب؛ فإنه خير وأحسن تأويلًا.

٢- ومن صور تطبيقات هذه القاعدة:

ما يفعله بعض الوضاعين للحديث -في قديم الزمان وحديثه- الذين يكذبون على النبي ﷺ ويفترون عليه: إما لغرض -هو بزعمهم- حسنٌ كالترغيب والترهيب، أو لأغراض سياسية، أو مذهبية، أو تجارية، كما وقع ذلك وللأسف منذ أزمنة متطاولة!

ولو استشعر كل من يضع الحديث على النبي ﷺ أنه من جملة المفترين -وأنه لن يفلح سعيه، بل هو خائب، كما قال ربنا: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾- لارعوى كثير من هؤلاء عن غيهم، ولا ينفعه ما يظنه قصدًا حسنًا - كما زعم بعض الوضاعين - فإن مقام الشريعة عظيم، وجنابها مصان ومحترم، وقد أكمل الله الدين، فلا يحتاج إلى حديث موضوع ومختلق، وليست شريعةٌ تلك التي تبنى على الكذب، وعلى منْ؟ على رسولها ﷺ؟

ومن المؤسف أن يرى لسوق الأحاديث الضعيفة والمكذوبة رواجٌ في هذا العصر بواسطة الإنترنت، أو رسائل الجوال؛ فليتق العبد ربه، ولا ينشرن شيئًا ينسب إلى النبي ﷺ حتى يتثبت من صحته عنه.

---

(١) إعلام الموقعين: (١/ ٣٩).

٣- ومن صور تطبيقات هذه القاعدة القرآنية الكريمة المشاهدة في الواقع:

ما يقع من بعضهم -وللأسف الشديد- مِن ظلم وبغي على إخوانهم المسلمين، وهذا له أسبابه الكثيرة، لعل من أبرزها: الحسد -عياذًا بالله منه-، والطمع في شيء من لعاعة الدنيا، أو لغير ذلك من الأسباب، ويَعْظُمُ الخطب حينما يُلبِسُ بعضُ الناس صنيعه لبوسَ الدين؛ ليبرر بذلك فعلته في الوشاية بفلان، والتحذير من فلان بغيًا وعدوانًا.

ولقد وقفتُ على كثير من القصص في هذا الباب، منها القديم ومنها المعاصر اعترفَ أصحابها بها، وهي قصص تدمي القلب، وتفتت الكبد؛ بسبب ما ذاقوه من عاقبة افترائهم وظلمهم لغيرهم، أكتفي من ذلك بثلاثة مواقف؛ لعل في ذكرها عظةٌ وعبرة:

١- لما جلس المتوكل -الخليفة العباسي- دخل عليه عبد العزيز بن يحيى الكناني فقال: يا أمير المؤمنين! ما رُؤي أعجب من أمر الواثق! قتل أحمد بن نصر وكان لسانه يقرأ القرآن إلى أن دفن! قال: فوجد المتوكل من ذلك، وساءه ما سمعه في أخيه، إذ دخل عليه محمد بن عبد الملك الزيات، فقال له: يا ابن عبد الملك، في قلبي من قتل أحمد بن نصر! فقال: يا أمير المؤمنين! أحرقني الله بالنار إن قتله أمير المؤمنين الواثق إلا كافرًا!!

قال: ودخل عليه هرثمة، فقال: يا هرثمة، في قلبي من قتل أحمد بن نصر! فقال: يا أمير المؤمنين! قطّعني الله إرْبًا إرْبًا إن قتله أمير المؤمنين الواثق إلا كافرًا!!

قال: ودخل عليه أحمد بن أبي دؤاد، فقال: يا أحمد، في قلبي من قتل أحمد بن نصر! فقال: يا أمير المؤمنين! ضربني الله بالفالج إن قتله أمير المؤمنين الواثق إلا كافرًا!!

قال المتوكل: فأما الزيات فأنا أحرقته بالنار، وأما هرثمة فإنه هرب وتبدى واجتاز بقبيلة خزاعة فعرفه رجل من الحي فقال: يا معشر خزاعة، هذا الذي قتل أحمد بن نصر؛ فقطعوه إرْبًا إرْبا!

وأما أحمد بن أبي دؤاد، فقد سجنه الله في جلده[1]!!

٢- تحدثتْ إحداهن -وهي أستاذة جامعية ومطلقة مرتين- فقالت: حدَثَت قصتي مع الظلم قبل سبع سنوات، فبعد طلاقي الثاني قررتُ الزواج بأحد أقاربي الذي كان ينعم بحياة هادئة مع زوجته وأولاده الخمسة، حيث اتفقت مع ابن خالتي - الذي كان يحب زوجة هذا الرجل - اتفقنا على اتهامها بخيانة زوجها! وبدأنا في إطلاق الشائعات بين الأقارب، ومع مرور الوقت نجحنا، حيث تدهورت حياة الزوجين وانتهت بالطلاق!

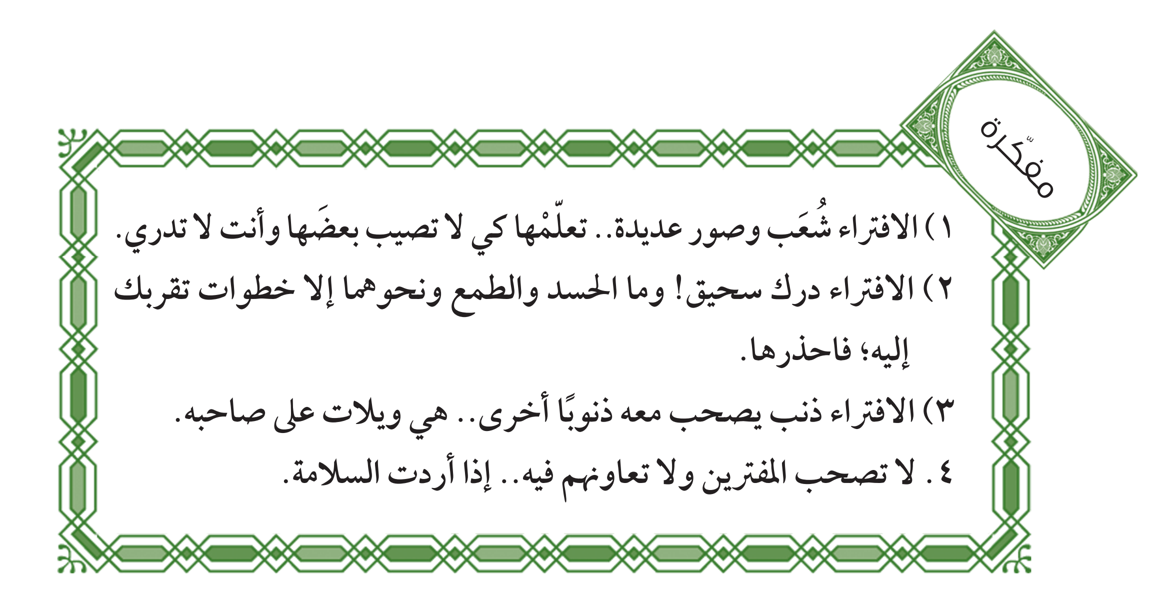
وبعد مضي سنة تزوجت المرأةُ - التي طُلقت بسبب الشائعات - برجل آخر ذي منصب، أما الرجل فتزوج امرأة غيري!، وبالتالي لم أحصل مع ابن خالتي على هدفنا المنشود، ولكنا حصلنا على نتيجة ظلمنا؛ حيث أُصِبت بسرطان الدم!

أما ابن خالتي فقد مات حَرقًا مع الشاهد الثاني؛ بسبب التماس كهربائي في الشقة التي كان يقيم فيها، وذلك بعد ثلاث سنوات من القضية.

٣- أما ثالث هذه المواقف فيرويه شخص اسمه(حَمَد) يقول: عندما كنتُ طالبًا في المرحلة الثانوية حدثت مشاجرة بيني وبين أحد الطلاب المتفوقين، فقررت -بعد تلك المشاجرة- أن أدمر مستقبله، فحضرت ذات يوم مبكرًا إلى المدرسة، ومعي مجموعة من سجائر الحشيش - التي كنا نتعاطاها - ووضعتها في حقيبة ذلك الطالب، ثم طلبت من أحد أصدقائي إبلاغ الشرطة بأن في المدرسة مروج مخدرات، وبالفعل تمت الخطة بنجاح، وكنا نحن الشهود الذين نستخدم المخدرات.

(١) تهذيب الكمال: (١/ ٥١١)، طبقات الشافعية الكبرى: (٢: ٥٣).

يقول حَمَد هذا: ومنذ ذلك اليوم وأنا أعاني نتيجة الظلم الذي صنعته بيدي، فقبل سنتين تعرضت لحادث سيارة فقدتُ بسببه يدي اليُمنى، وقد ذهبت للطالب في منزله أطلب منه السماح، ولكنه رفض لأنني تسببت في تشويه سمعته بين أقاربه حتى صار شخصًا منبوذًا من الجميع، وأخبرني بأنه يدعو عليّ كل ليلة؛ لأنه خسر كل شيء بسبب تلك الفضيحة، ولأن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب فقد استجاب الله دعوته، فها أنا بالإضافة إلى يدي المفقودة أصبحت مقعدًا على كرسي متحرك نتيجة حادث آخر! ومع أني أعيش حياة تعيسة، فإني أخاف من الموت؛ لأني أخشى عقوبة رب العباد[1].



١) الافتراء شُعَب وصور عديدة.. تعلّمْها كي لا تصيب بعضَها وأنت لا تدري.

٢) الافتراء درك سحيق! وما الحسد والطمع ونحوهما إلا خطوات تقربك إليه؛ فاحذرها.

٣) الافتراء ذنب يصحب معه ذنوبًا أخرى.. هي ويلات على صاحبه.

٤. لا تصحب المفترين ولا تعاونهم فيه.. إذا أردت السلامة.

---

(١) نشرت هذه القصص في مقال للكاتب محمد بن عبد الله المنصور، بعنوان: (رسالة بلا عنوان!) في جريدة اليوم الإلكترونية، عدد (١١٨٥٤)، الاثنين٢٦/ ١٠/ ١٤٢٦هـ، الموافق: ٢٨/ ١١/ ٢٠٠٥م.



هذه قاعدة من قواعد بناء المجتمع، وإصلاحه، وتدارك أي سبب لتفككه، وقد وردت هذه القاعدة في سياق الحديث عما قد يقع بين الأزواج من أحوال قد تؤدي إلى الاختلاف والتفرق، وأن الصلح بينهما على أي شيء يرضيانه خير من تفرقهما، يقول سبحانه: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ [النساء: ١٢٨].

ويمكننا القول: إن جميع الآيات التي ورد فيها ذكر الإصلاح بين الناس هي من التفسير العملي لهذه القاعدة القرآنية المتينة.

ومن المناسبات اللطيفة أن ترد هذه الآية في سورة النساء، وهي نفس السورة التي ورد فيها قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا﴾ [النساء: ٣٥].

---

(١) النساء: ١٢٨.




يقول ابن عطية -مؤكدًا اطّراد هذه القاعدة-: «وقوله تعالى: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌ﴾ لفظٌ عام مطلق، يقتضي أن الصلح الحقيقي -الذي تسكن إليه النفوس ويزول به الخلاف- خيرٌ على الإطلاق، ويندرج تحت هذا العموم أن صلح الزوجين على ما ذكرنا خير من الفرقة»[1].

ومعنى الآية باختصار:

أنه «إذا خافت المرأة نشوز زوجها، أي: تَرفُّعه عنها، وعدمَ رغبتِه فيها وإعراضه عنها، فالأحسن -في هذه الحالة- أن يصلحا بينهما صلحًا؛ بأن تسمح المرأة عن بعض حقوقها اللازمة لزوجها على وجه تبقى مع زوجها: إما أن ترضى بأقل من الواجب لها من النفقة أو الكسوة أو المسكن، أو القسم بأن تُسقط حقها منه، أو تهب يومها وليلتها لزوجها أو لضرتها.

فإذا اتفقا على هذه الحالة فلا جناح ولا بأس عليهما فيها، لا عليها ولا على الزوج، فيجوز حينئذ لزوجها البقاء معها على هذه الحال، وهي خير من الفرقة، ولهذا قال: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌ﴾.

ويؤخذ من عموم هذا اللفظ والمعنى: أن الصلح بين من بينهما حقٌ أو منازعة -في جميع الأشياء- أنه خيرٌ من استقصاء كل منهما على كل حقه؛ لما فيها من الإصلاح وبقاء الألفة والاتصاف بصفة السماح.

(١) المحرر الوجيز: (٢/ ١٤١).

وهو -أي الصلح- جائزٌ في جميع الأشياء إلا إذا أحل حرامًا أو حرم حلالًا، فإنه لا يكون صلحًا، وإنما يكون جورًا.

واعلم أن كل حكم من الأحكام لا يتم ولا يكمل إلا بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه، فمن ذلك هذا الحكم الكبير الذي هو الصلح، فذكر تعالى المقتضي لذلك ونبه على أنه خير، والخيرُ كلُّ عاقلٍ يطلبه ويرغب فيه، فإن كان -مع ذلك- قد أمر الله به وحث عليه ازداد المؤمن طلبا له ورغبة فيه.

وذكر المانع بقوله: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨] أي: جبلت النفوس على الشح: وهو عدم الرغبة في بذل ما على الإنسان، والحرص على الحق الذي له؛ فالنفوس مجبولة على ذلك طبعًا، أي: فينبغي لكم أن تحرصوا على قلع هذا الخُلق الدنيء من نفوسكم، وتستبدلوا به ضده وهو السماحة: بذل الحق الذي عليك، والاقتناع ببعض الحق الذي لك.

فمتى وفق الإنسان لهذا الخلق الحسن، سهل حينئذ عليه الصلح بينه وبين خصمه ومُعامله، وتسهلت الطريق للوصول إلى المطلوب، بخلاف من لم يجتهد في إزالة الشح من نفسه؛ فإنه يعسر عليه الصلح والموافقة؛ لأنه لا يرضيه إلا جميع ماله، ولا يرضى أن يؤدي ما عليه، فإن كان خصمه مثله اشتد الأمر»(١).

ومن تأمل القرآن، وجد سعة هذه القاعدة من جهة التطبيق، فبالإضافة إلى ما سبق ذِكره -من الإصلاح بين الأزواج- فإننا نجد في القرآن حثًا على الإصلاح بين الفئتين المقتتلتين، ونجده يثني ثناء ظاهرًا على الساعِين في الإصلاح بين الناس:

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٢٠٧).

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

بل تأمل في افتتاح سورة الأنفال؛ فإنك واجدٌ عجبًا، فإن الله تعالى افتتح هذه السورة بقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ ۖ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١]، فلم يأت الجوابُ عن الأنفال مباشرة، بل جاء الأمر بالتقوى وإصلاحِ ذاتِ البين، وطاعةِ الله ورسوله؛ لأن إغفال هذه الأصول الكبار سببٌ عظيم في شر عريض، ولعل من أسرار إرجاء الجواب عن هذا التساؤل: لبيان أن التقاتل على الدنيا -ومنها الأنفال (وهي الغنائم)- سببٌ في فسادِ ذات البين؛ ولهذا جاء الجواب عن سؤال الأنفال بعد أربعين آية من هذا السؤال.

ولأهمية هذا الموضوع -أعني الإصلاح-: أجازت الشريعة أخذ الزكاة لمن غرم بسبب الإصلاح بين الناس.

إذا تقرر هذا المعنى المتين والشامل لهذه الآية الكريمة: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾؛ فمن المهم -لنستفيد من هذه القاعدة القرآنية- أن نسعى لتوسيع مفهومها في حياتنا العملية، وأصدق شاهد على ذلك سيرة نبينا ﷺ، الذي طبق هذه القاعدة في حياته، وهل كانت حياته إلا صلاحًا وإصلاحا!

المصلحون أصابعٌ جُمِعت يدًا   هي أنتَ، بل أنت اليدُ البيضاءُ




- ومن أمثلة ذلك: أنه ﷺ حينما كبرت زوجه أم المؤمنين سودة بنت زمعة رضي الله عنها، ووقع في نفسه أن يفارقها، فكانت تلك المرأة عاقلة رشيدة؛ فصالحته على أن يمسكها وتترك يومها لعائشة، **فقبِل ذلك منها**، وأبقاها على ذلك.

- طبق النبي ﷺ هذه القاعدة في قصة بريرة -وهي أَمَةٌ قد أعتقتها عائشة رضي الله عنها- فكرهتْ أن تبقى مع زوجها، الذي كان شديد التعلق بها، حتى قال ابن عباس رضي الله عنه -وهو يصف حب مغيث لبريرة-: لكأني به في طرق المدينة ونواحيها، وإن دموعه لتسيل على لحيته؛ يترضاها لتختاره فلم تفعل![1]، فقال النبي ﷺ: «لو راجعتِه»! قالت: يا رسول الله، تأمرني؟ قال: «إنما أنا أشفع» قالت: لا حاجة لي فيه[2].

فانظر كيف حاول ﷺ أن يكون واسطة خير بين زوجين انفصلا، وشفع لأحد الطرفين لعله يقبل، فلم يشأ أن يجبر؛ لأن من أركان الحياة الزوجية الحب، والرغبة!

- خرج مرة ﷺ إلى أهل قباء، لما أُخْبِرَ أنهم اقتتلوا حتى تراموا بالحجارة، فقال: «اذهبوا بنا نصلح بينهم»[3].

وعلى هذه الجادة النبوية سار تلاميذه النجباء، من أصحابه الكرام وغيرهم ممن سار على نهجهم، ومن ذلك:

- خروج ابن عباس رضي الله عنه لمناظرة الخوارج -الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه- فرجع منهم عدد كبير.

---

(١) الترمذي ح (١١٥٦).

(٢) البخاري ح (٥٢٨٣).

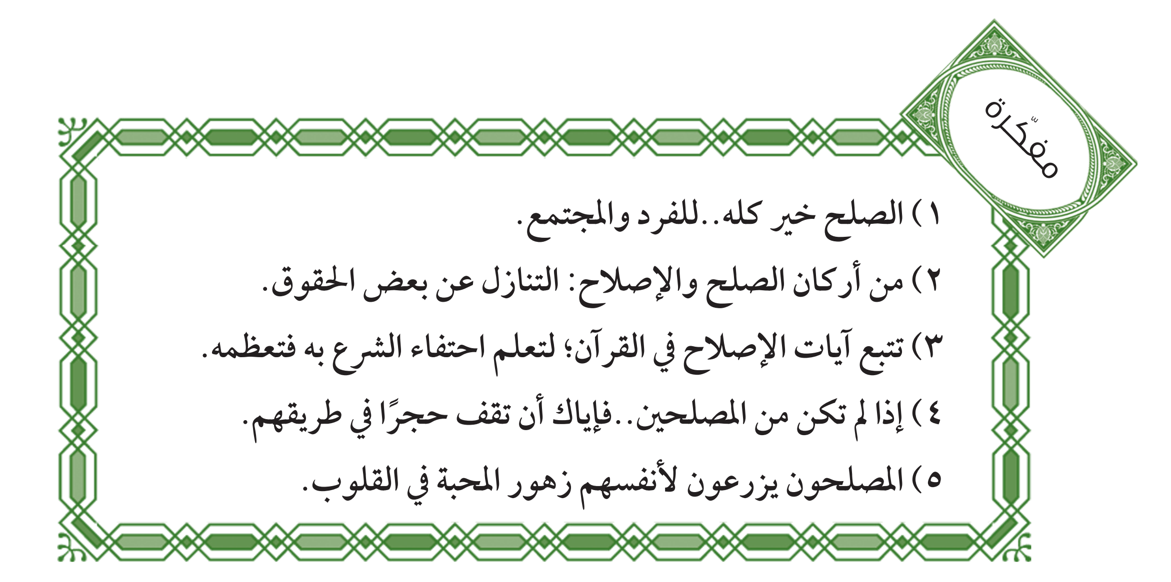
(٣) البخاري ح (٢٥٤٧).





ومن قلّب كتب السِّيَر؛ وجد نماذج مشرقة لجهود فردية في الإصلاح بين الناس على مستويات شتى، ولعل مما يبشر بخيرٍ: ما نراه من لجان إصلاح ذات البين، والتي هي في الحقيقة ترجمة عملية لهذه القاعدة القرآنية العظيمة: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾.

فهنيئًا لمن جعله الله من خيار الناس، الساعين في الإصلاح بينهم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.



١) الصلح خير كله..للفرد والمجتمع.

٢) من أركان الصلح والإصلاح: التنازل عن بعض الحقوق.

٣) تتبع آيات الإصلاح في القرآن؛ لتعلم احتفاء الشرع به فتعظمه.

٤) إذا لم تكن من المصلحين..فإياك أن تقف حجرًا في طريقهم.

٥) المصلحون يزرعون لأنفسهم زهور المحبة في القلوب.



هذه قاعدة من قواعد التعامل الإنساني، والتي جاءت في سياق الحديث عن موقفٍ سجَّله القرآن لبيان أصناف المعتذرين عن غزوة تبوك -التي وقعت في شهر رجبٍ من السنة التاسعة من الهجرة- ومن هم الذين يُعذَرون والذين لا يُعذَرون.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٩٠-٩٣].

ومعنى القاعدة باختصار: «ليس على أهل الأعذار الصحيحة -من ضعف أبدان، أو مرض أو زَمانة(٢)، أو عدم نفقةٍ- إثمٌ، بشرط لا بد منه، وهو: ﴿إِذَا نَصَحُوا۟﴾ أي:

(١) التوبة: ٩١.

(٢) «الزَّمَانَةُ لُغَةً: الْبَلَاءُ وَالْعَاهَةُ، يُقَال: زَمِنَ زَمَنًا وَزَمِنَةً وَزَمَانَةً: مَرِضَ مَرَضًا يَدُومُ زَمَانًا طَوِيلاً، وَضَعُفَ بِكِبَرِ سِنٍّ أَوْ مُطَاوَلَةِ عِلَّةٍ. فَهُوَ زَمِنٌ وَزَمِينٌ، وَلاَ يَخْرُجُ اسْتِعْمَال الْفُقَهَاءِ لِهَذَا اللَّفْظِ عَنِ الْمَعْنَى اللُّغَوِيِّ، قَال زَكَرِيَّا الأَْنْصَارِيُّ: الزَّمِنُ هُوَ الْمُبْتَلَى بِآفَةٍ تَمْنَعُهُ مِنَ الْعَمَل» الموسوعة الفقهية الكويتية: (٢٤/ ١٠).




بنِيَّاتهم وأقوالهم، سرًا وجهرًا، بحيث لم يُرجفوا بالناس، ولم يثبطوهم، وهم محسنون في حالهم هذا...، ثم أكّد الرجاء بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾»[1].

وبما أن **(العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)** - كما هو مقرر في علم أصول التفسير - فهذا يعني توسيع دلالة هذه القاعدة القرآنية التي دل عليها قوله سبحانه: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾.

وهذا يدل على أن الأصل هو سلامة المسلم من أن يُلزَم بأي تكليف سوى تكليف الشرع كما أن الآية تدل بعمومها أن الأصل براءة الذمة من إلزام الإنسان بأي شيء فيما بينه وبين الناس حتى يثبت ذلك بأي وسيلة من وسائل الإثبات المعتبرة شرعًا.

أيها المتأمل كلام ربه:

لقد كانت هذه الآية -ولا زالت- دليلًا يفزع إليه العلماء في الاستدلال بها في أبواب كثيرة في الفقه، خلاصته يعود إلى أنه «مَن أحسن على غيره، في نفسه أو في ماله، ونحو ذلك، ثم ترتب على إحسانه نقص أو تلف، أنه غير ضامن؛ لأنه محسن، ولا سبيل على المحسنين، كما أنه يدل على أن غير المحسن -وهو المسيء- كالمفرّط، أن عليه الضمان»[2].

وإذا تجاوزنا الجانب الفقهي الذي أشرتُ إليه بإجمال، فلنتلفت قليلًا إلى ميدان من الميادين التي نحتاج فيها إلى هذه القاعدة، ذلك أن حياتنا تحفلُ بمواقف كثيرة يُفْتَحُ فيها باب الإحسان، وتتاح لآخَرين أن يحسنوا إلى غيرهم فيبادروا بتقديم خدمة ما، وأول هؤلاء هم أهل بيت الإنسان: من زوجة أو زوج أو ولد! فمن المؤسف أن يتجانف البعض هداية هذه القاعدة القرآنية، فيُلحقوا غيرهم اللوم والعتاب الشديد، مع أنهم محسنون متبرعون، فيساهمون بذلك - شعروا أم لم يشعروا - في إغلاق باب الإحسان، أو تضييق دائرته بين العباد.

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز (٣/ ٧٨)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٤٦٤).

(٢) تفسير السعدي (ص٣٤٧).




تأمل هذه الصورة:

يجتهد أحد الناس في محاولة إتقان عملٍ دعوي، أو اجتماعي، أو عائلي، ويبذل جهده، وربما ماله، وهو في هذه الأثناء يطلب من غيره أن يساعده ويعينه على العمل فلا يجد أحدًا، فيبدأ وحده، ويجتهد ويثابر ليُنجح العمل، ويُظهره بالمظهر المشرِّف، فإذا جاءت ساعة الاستفادة من هذا العمل، وظهرت بعضُ الثغرات، وبعضُ النقص الذي لا يسلم منه عمل البشر، فإذا به – بدلًا من أن يُقابَل بالشكر والتقدير، مع التنبيه على الأخطاء بأسلوب لطيف– يُقابَل بعاصفة من اللوم والعتاب!، مع أن هذا الشخص قد يكون استنجد بغيره للمساعدة فلم يُنجَد، فواصل العمل وحده، فلما حانت ساعة قطاف الثمرة، لم يجد إلا اللوم والعتاب!، بسبب قلة حيلته، وضعف قدرته، أليس هذا من أحق الناس بقوله تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾؟!

ثم أليس أولئك خليقون أن يقال لهم:

أقلــوا عليهــم لا أبــا لأبيكــمُ من اللوم، أو سدوا المكان الذي سدوا[1]

وأمثال هذه الصورة تتكرر في مواقف أخرى؛ في البيت، في المدرسة، في المؤسسة، وفي الشركة، وفي الدائرة الحكومية، وفي العمل الإعلامي، مع العلماء والدعاة والمحتسبين، ومع غيرهم، فما أحوجنا إلى استشعار هذه القاعدة، وطريقة التعامل مع أوهام أو أخطاء المحسنين؛ لكي لا ينقطع باب الإحسان، فإنه إذا كثر اللوم على المحسنين والمتبرعين، وتقاعس من يُفترض منهم العمل، فمن يبقى للأمة؟!

وهذا كلّه –بلا ريب– لا يعني التنبيه على الأخطاء، أو التذكير بمواضع الصواب التي كان يفترض أن يُنبه عليها، لكن المهم أن يكون ذلك بأسلوب يحفظ جهد المحسن، ولا يفوت فرصة التنبيه على الخطأ؛ ليرتقي العمل، ويزداد جودة وجمالًا.

(١) هذا من شعر الحطيئة، انظر: الكامل في اللغة والأدب (٢/ ١٣٧).




ومن المهم أيضًا – ونحن نتحدث عن هذه القاعدة القرآنية – أن لا نخلط بين ما تقدم وبين التزام الإنسان بشيءٍ ما، ثم يتخلى عنه بحجة أنه محسن! فإن هذا من الفهم المغلوط لهذه القاعدة، ذلك أن الإنسان قبل أن يلتزم بوعد لطرف آخر؛ فهو في دائرة الفضل والإحسان، لكن إن التزم بتنفيذ شيءٍ، والقيام به، فقد انتقل إلى دائرة الوجوب الذي يستحق صاحبه الحساب والعتاب، **ولعل مما يُقرِّب تصور هذا المعنى**: النذر؛ فإن النذر: إلزام المكلف نفسه بشيءٍ لم يكن واجبًا عليه بأصل الشرع، كمن ينذر أن يتصدق بألف ريال، فهذا قبل نذره لا يلزمه أن يتصدق ولو بريال واحد، لكنه لما نذر فقد التزم؛ فوجب عليه الوفاء. وهكذا ما نحن بصدده، وإنما نبهت على هذا لأن من الناس من أساء فهم هذه القاعدة، وطردها في غير موضعها، فصار ذلك سببًا في وجود النفرة بين بعض الناس؛ لأن أحد الطرفين اعتقد التزام الطرف الآخر، فاعتمد عليه -بعد الله- ثم تخلى ذلك الطرف عما التزم؛ بحجة أنه محسن! فوقع خلاف المقصود من باب الإحسان.

مفكّرة

١) نيتك الصادقة في نصرة الحق وأهله ترفعك درجات.

٢) من بركة الإحسان: أنه يستر نقص المحسنين ويجبره.

٣) أصل الإحسان هو: الإتقان؛ فلا تتكل على أنه ما على المحسنين من سبيل فتتعمد التقصير!

٤) نقل بعض العلماء المعاصرين دراسة معاصرة أثبتت أن المحسنين هم من أبعد الناس إصابة بأمراض الإدمان.



هذه قاعدة قرآنية عظيمة، تؤسس لمبدأ من أشرف المبادئ، وهو مبدأ العدل، وهي قاعدة طالما استشهد بها العلماء والحكماء؛ لعظيم أثرها في باب العدل والإنصاف، تلكم هي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الزمر: ٧][2].

ومعنى هذه القاعدة باختصار: أن المكلفين إنما يجازون بأعمالهم إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، وأنه لا يحمل أحدٌ خطيئة أحد، ما لم يكن سببًا فيها، وهذا من كمال عدل الله تبارك وتعالى وحكمته.

ولعل الحكمة من التعبير عن الإثم بالوزر؛ لأن الوزر هو الحمل -وهو ما يحمله المرء على ظهره- فعبر عن الإثم بالوزر لأنه يُتَخَيَّلُ ثقيلًا على نفس المؤمن[3].

(١) وردت هذه القاعدة في خمسة مواضع من القرآن، وهي: الأنعام: ١٦٤، والإسراء: ١٥، وفاطر: ١٨، والزمر: ٧، والنجم: ٣٨.

(٢) وقد نص على كونها قاعدة: الإمامُ محمد بن عبد الوهاب في تفسيره (٥٧).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير (٥/ ٢٩٣).

وهذه القاعدة القرآنية -بهذا النص- تكرر تقريرها في كتاب الله تعالى خمس مرات، وهذا - بلا شك - له دلالته ومغزاه.

وهذا المعنى الذي دلت عليه القاعدة ليس من خصائص هذه الأمة المحمدية، بل هو عام في جميع الشرائع، تأمل قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٣٣ - ٤١].

وهذا المعنى الذي قررتْه القاعدة لا يُعارِض ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقولُه: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥]؛ لأن هذه النصوص تدل على أن الإنسان يتحمل إثم ما ارتكب من ذنوب، وإثم الذين أضلهم بقوله وفعله، كما أن الدعاة إلى الهدى يثيبهم الله على عملهم وعمل من اهتدى بهديهم، واستفاد من علمهم.

ولهذا لما اجتهد جماعة من صناديد الكفر في إبقاء بعض الناس على ما هم عليه من الكفر، أو حث من كان مؤمنًا لينتقل من الإيمان إلى الكفر، أغروهم بخلاف هذه القاعدة تمامًا، فقالوا - كما حكى الله عنهم-: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢ - ١٣].




ولو تأملت كلام العلماء في كتب التفسير والحديث والعقائد والفقه وغيرها؛ لرأيت عجبًا من كثرة الاستدلال بهذه القاعدة في مواطن كثيرة:

فكم من رأي نقَضَه فقيهٌ بهذه الآية! بل كم مسألة عقدية صار الصواب فيها مع المستدل بهذه الآية! والمقام ليس مقام عرض لهذه المسائل، بل المقصود التنبيه على عظيم موقعها.

وإذا أردنا أن نبحث عن أمثلة تطبيقية لهذه القاعدة في كتاب الله، فإن من أشهر الأمثلة وأظهرها: تطبيق نبي الله يوسف عليه الصلاة والسلام لها، وذلك أنه حينما احتال على أخذ أخيه بنيامين، بوضع السقاية في رحل أخيه؛ جاء إخوته يقولون: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٧٨]، فأجابهم يوسف قائلًا: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٧٩].

قارن هذا -بارك الله فيك- بقول فرعون حينما قال له كهنته: إنه سيولد من بني إسرائيل غلامٌ ستكون نهاية ملكك على يده! فأصدر مرسومه الظالم بقتل جميع من يولد من بني إسرائيل -وهم بالآلاف، وربما بعشراتها- من أجل طفلٍ واحد فقط!! ولكن من كان يقول للناس: أنا ربكم الأعلى فلا يستغرب منه هذا الأمر!

وفي واقع من الناس مَن سار على هدي يوسف، فتراه لا يؤاخذ إلا من أخطأ أو تسبب في الخطأ، ولا يُوسِّع دائرة اللوم على من ليس له صلة بالخطأ؛ بحجة القرابة أو الصداقة أو الزمالة ما لم يتبين خلاف ذلك.

وفي المقابل: ففي واقع الناس من يأخذ المحسنين أو البرءاء بذنب المسيئين.

وإليك هذه الصورة التي قد تتكرر كثيرًا في واقع بيوتنا:

يعود الرجل من عمله متعبًا، فيدخل البيت فيجد ما لا يعجبه من بعض أطفاله - إما من إتلاف تحفة، أو تحطيم زجاجة - أو يرى ما لا يعجبه من قِبَلِ زوجته - كتأخرها في إعداد الطعام، أو زيادة ملوحة أو نقصها، أو غير ذلك من الأمور التي قد تستثير بعض الناس - فإذا افترضنا أن هذه المواقف مما تستثير الغضب، أو أن هناك خطأً يستحق التنبيه، أو التوبيخ، فما ذنب بقية الأولاد الذين لم يشاركوا في كسر تلك التحفة - مثلًا -؟! وما ذنب الأولاد أن يَصُبَّ عليهم جام غضبه إذا قصرت الزوجة في شيء من أمر الطعام؟! وما ذنب الزوجة -مثلًا- حينما يكون المخطئ هم الأولاد؟! ومثله يقال في علاقة المعلم والمعلمة مع طلابهم، أو المسئول في عمله، بحيث لا ينقلوا مشاكلهم إلى أماكن عملهم، فيكون من تحت أيديهم من الطلاب والطالبات أو الموظفين ضحية لمشاكل ليس لهم علاقة بها!!

هنا يستحضر المؤمن أمورًا، من أهمها: أن يتذكر هذه القاعدة القرآنية العظيمة: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾؛ فإن هذا خيرٌ وأحسن تأويلًا، وأقرب إلى العدل والقسط الذي قامت عليه السماوات والأرض.

وثمة فهمٌ خاطئ لهذه القاعدة القرآنية: وهي أن البعض يظن أن هذه القاعدة مخالفة لما يراه من بعض العقوبات الإلهية التي تعم مجتمعًا من المجتمعات، أو بلدًا من البلدان، حينما تفشو المنكرات والفواحش والمعاصي، وسبب خطأ هذا الفهم، أن المنكر إذا استعلن به الناس، ولم يوجد من ينكره، فإن هذا ذنب عظيمٌ اشترك فيه كلُّ من كان قادرًا على الإنكار ولم ينكر، سواءٌ كان الإنكار باليد أو باللسان أو بالقلب




وذلك أضعف الإيمان، ولا عذر لأحد بترك إنكار القلب، فإذا خلا المجتمع من هذه الأصناف الثلاثة -عياذًا بالله- مع قدرة أهلها عليها استحقوا العقوبة، وإن وجد فيهم بعض الصالحين.

تأمل معي قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

يقول العلامة السعدي رحمه الله[١] في تفسير هذه الآية: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ﴾ بل تصيب فاعل الظلم وغيره، وذلك إذا ظهر الظلم فلم يغير، فإن عقوبته تعم الفاعل وغيره، وتقوى هذه الفتنة بالنهي عن المنكر، وقمع أهل الشر والفساد، وأن لا يمكنوا من المعاصي والظلم مهما أمكن.

ويوضح معنى هذه الآية الكريمة ما رواه الإمام أحمد: بسند حسن - كما يقول الحافظ ابن حجر[٢] - من حديث عدي بن عميرة رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الله عز وجل لا يعذب العامة بعمل الخاصة، حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم -وهم قادرون على أن ينكروه- فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة».

وروى الإمام أحمد: في مسنده[٣] بسند جيد، عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه خطب فقال: يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها على غير ما وضعها الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ [المائدة: ١٠٥]، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر بينهم فلم ينكروه يوشك أن يعمهم الله بعقابه».

---

(١) تفسير السعدي: (ص٣١٨).

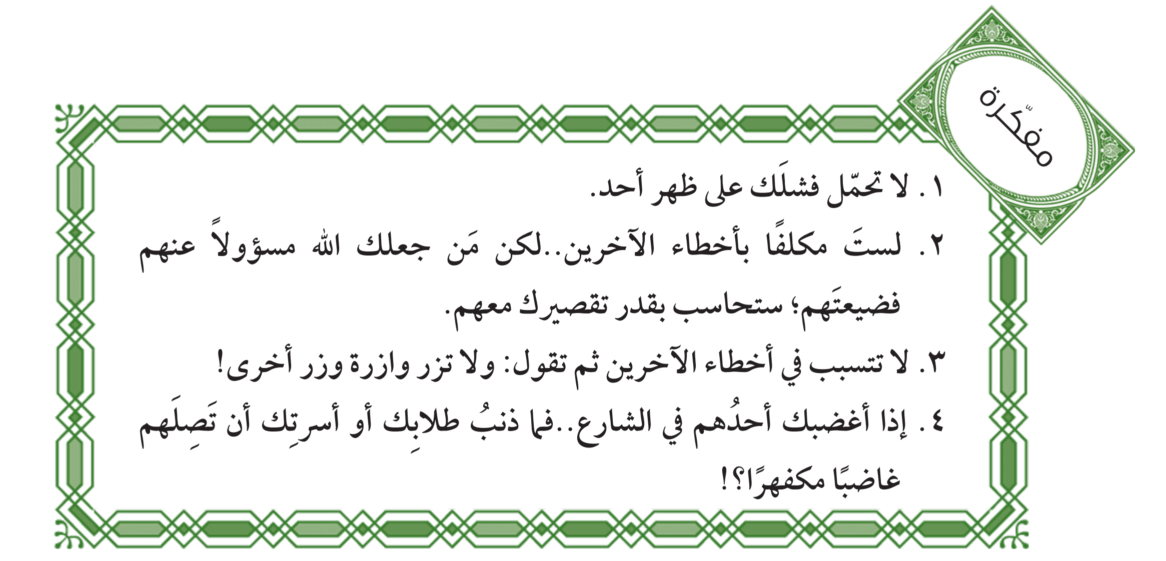
(٢) فتح الباري: (١٣/ ٤).

(٣) المسند: (١/ ١٧٨).



وفي صحيح مسلم عن زينب بنت جحش رضي الله عنها أنها سألت رسول الله ﷺ فقالت له: يا رسول الله! أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث»[1].

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، يضيق المقام بذكرها، والمقصود إزالة هذا الإشكال الذي قد يعرض للبعض في فهم هذه القاعدة القرآنية، والله سبحانه وتعالى أعلم.



(١) البخاري ح (٣٣٤٦)، ومسلم ح (٢٨٨٠).



هذه قاعدة من القواعد القرآنية العظيمة، التي هي أثر من آثار كمال علم الله وحكمته وقدرته في خلقه ﷻ، تلكم هي قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران:٣٦].

وهذه الآية جاءت في سياق قصة امرأة عمران، والدة مريم –عليهما السلام– يقول تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٥ – ٣٦].

وخلاصة القصة: أن امرأة عمران قد نذرت أن يكون مولودها القادم خادمًا لبيت المقدس، فلما وضعت مولودها، قالت معتذرة: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾؛ لأن قدرة الذكر على خدمة بيت المقدس، والقيام بأعباء ذلك أكثر من الأنثى التي جبلها الله تعالى على الضعف البدني، وما يلحقها من العوارض الطبيعية التي تزيدها ضعفًا: كالحيض والنفاس(٢).

---

(١) آل عمران:٣٦ .

(٢) ومن اللطائف في تركيب هذه القاعدة: أن الله تعالى قال: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ مع أنه لو قيل: «وليست الأنثى كالذكر» لحصل المقصود، ولكن لما كان الذكر هو المقصود قُدّم في الذكر هنا، ولأنه هو المرجو المأمول؛ فهو أسبق إلى لفظ المتكلم. ينظر: التحرير والتنوير: (٣/ ٨٧).

ولقد بين القرآن هذا التفاوت بين الجنسين في مواضع كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ﴾: وهم الرجال ﴿عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾: وهن النساء، ومنها: قوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، والمراد بذلك: تفضيلُ درجة الرئاسة والرعاية وحمايةِ الذمار، فالفضلُ للرجال على النساء بهذه النواحي...، وهذه الدرجةُ توجب عليهم إعطاءَ الزوجات جميعَ الحقوق التي لهن، وأن يتسامحوا عن بعض حقوقهم، ويترفّعوا عن كل ما يوجب الشغب، وينظروا إلى النساء نظرَ عطف ورحمة.

فهذه الجملة يجب أن ترتفع برؤوس الرجال عن مجاراة النساء، لا أن تحملهم على الطيش والزعْنفة[1]، كما قال ابن عباس: «إني أحب أن أتزين للمرأة، كما أحب أن تتزين لي المرأة، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾، وما أحب أن أستنظف جميع حقي عليها، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞ﴾»[2].

بل يقال: إن بعض ما جبل الله عليه الأنثى هو نوع من الكمال في حقها، وإن كان نقصًا في حق الرجال، «ألا ترى أن الضعف الخَلْقي والعجز عن الإبانة في الخصام عيب ناقص في الرجال، مع أنه يعد من جملة محاسن النساء التي تجذب إليها القلوب»[3].

---

(١) المراد بالزعنفة هنا: السفلة من الناس، ويقال للرجل اللئيم: زعنف. [ينظر: مقاييس اللغة (٣/ ٥٤)]

(٢) ينظر: صفوة الآثار والمفاهيم، للدوسري (٤/ ٤٠٧ - ٤٠٨) باختصار، مصنف ابن أبي شيبة (٤/ ١٩٦).
يقول ابن عاشور رحمه الله في «التحرير والتنوير» (٢/ ٣٩٦): وكان الاعتناء بذكر ما للنساء من الحقوق على الرجال، وتشبيهه بما للرجال على النساء لأن حقوق الرجال على النساء مشهورة، مسلمة من أقدم عصور البشر، فأما حقوق النساء فلم تكن مما يلتفت إليه أو كانت متهاونا بها، وموكولة إلى مقدار حظوة المرأة عند زوجها، حتى جاء الإسلام فأقامها. وأعظم ما أسست به هو ما جمعته هذه الآية.

(٣) أضواء البيان: (٣/ ٥٠١).




هذا هو حكم الله القدري: أن الذكر ليس كالأنثى، وهذا حكم الأعلم بالحِكَم والمصالح، هذا كلام الذي خلق الخلق، وعَلِمَ ما بينهم من التفاوت والاختلاف: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]، **وقد تفرع على ذلك**: اختلاف بين الذكر والأنثى في جملة من الأحكام الشرعية -وإن كانا في الأصل سواء-.

وهذا الاختلاف في الأحكام الشرعية بين الذكر والأنثى راجع إلى مراعاة طبيعة المرأة من حيث خلقتها، وتركيبها العقلي، والنفسي، وغير ذلك من صور الاختلاف التي لا ينكرها العقلاء والمنصفون من أي دين، وليعلم المؤمن ههنا قاعدة تنفعه في هذا الموضع وفي مواضع كثيرة، وهي: أن الشرع لا يمكن أن يفرق بين متماثلين، ولا يجمع بين متناقضين، وشأن المؤمن الحق أن لا يعارض الشرع بعقله القاصر، بل شأنه أن يتلمس الحكم من وراء ذلك التفريق، أو هذا الجمع.

ومن توهم أنهما سواء فقد أبطل دلالة القرآن والسنة على ذلك:

أما القرآن فإن القاعدة التي نحن بصدد الحديث عنها دليل واضح على هذا.

وأما السنة: فإن النبي ﷺ لعن المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال[1]، فلو كانا متساويين لكان اللعنُ باطلًا.

ولنتأمل شيئًا من حِكَمِ الله تعالى في التفريق بين الذكر والأنثى في بعض الأحكام الشرعية، ومن ذلك:

١- التفريق في الميراث:

اقتضت سنة الله أن يكون الرجل هو الذي يكدح ويتعب في تحصيل الرزق، وهو الذي يطلب منه دفع الميراث، والمشاركة في دفع الدية - عند قيام المقتضي لذلك - فالذكر مترقب دومًا للنقص من ماله، بعكس الأنثى فهي دومًا تترقب الزيادة في مالها: حينما يدفع لها المهر، وحينما ينفق عليها من قبل وليها.

(١) البخاري ح (٥٨٨٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنه.



يقول العلامة الشنقيطي: «وإيثارُ مترقب النقص دائمًا على مترقب الزيادة دائمًا - لجبر بعض نقصه المترقب - حكمتُه ظاهرة واضحة، لا ينكرها إلا من أعمى الله بصيرته بالكفر والمعاصي»(١).

٢- التفريق في الشهادة:

وهذا نصت عليه آية الدين: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، كما دلت عليه السنة الصحيحة عن النبي ﷺ، وبين أن سبب هذا هو نقصٌ في عقلها.

وهذا التفريق -لمن تأمله- عين العدل، يقول الشيخ السيد رشيد رضا -مبينًا هذا المعنى-: «إن المرأة ليس من شأنها الاشتغال بالمعاملات المالية ونحوها من المعاوضات، فلذلك تكون ذاكرتها فيها ضعيفة، ولا تكون كذلك في الأمور المنزلية -التي هي شغلها- فإنها فيها أقوى ذاكرة من الرجل، يعني أن طبع البشر ذكرانًا وإناثًا أن يقوى تذكرهم للأمور التي تهمهم ويكثر اشتغالهم بها، ولا ينافي ذلك اشتغال بعض نساء الأجانب في هذا العصر بالأعمال المالية فإنه قليل لا يعول عليه، والأحكام العامة إنما تناط بالأكثر في الأشياء وبالأصل فيها»(٢) انتهى.

ولا يظنن أحدٌ أن في ذلك انتقاصًا لقدرها، بل هو تنزيهٌ لها عن ترك مهمتها الأساسية في التربية والقرار في البيت، إلى مهمة أقل شأنًا وسموًا، وهي ممارسة التجارة والمعاملات المالية!

وقد أشار فريق من الباحثين إلى أن المرأة الحامل ينكمش عندها حجم الدماغ، ولا يعود لحجمه الطبيعي إلا بعد أشهر من وضعها.

---

(١) أضواء البيان: (٣/ ٥٠٠).

(٢) تفسير المنار: (٣/ ١٠٤).




وليُعلم أن هذا الحكم -أعني كون شهادة المرأة على النصف من شهادة الرجل- ليس مطردًا في جميع الأبواب، بل إنها مثل الرجل في بعض الأحكام، كشهادتها في دخول شهر رمضان، وفي باب الرضاع، والحيض، والولادة، واللعان وغير ذلك من الأحكام.

ونحن بحمد الله مؤمنون بحكم الله وقدره، ولا تزيدنا البحوث الحديثة إلا يقينًا، ونقطع بأن أي بحث يخالف صريح القرآن فنتيجته غلط، وإنما أتي صاحبها من سوء فهمه.

وليس هذا التفريق بين الذكر والأنثى كله في صالح الرجل، بل جاءت أحكام تفرق بينهما تفريقًا لصالح المرأة - إن صحّت العبارة -، ومن ذلك: أن الجهاد لا يجب على النساء لطبيعة أجسادهن، فسبحان العليم الحكيم الخبير.

إذا تبين هذا؛ فعلى المؤمن أن يحذر من كلمة راجت على كثير من الكتاب والمثقفين، وهي كلمة «**المساواة**» في مقام الحديث عن موضوع المرأة، وهي كلمةٌ لم ترد في القرآن بهذا المعنى الذي يورده أولئك الكتاب، كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾، وكقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾، وكقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ **والصواب** أن يعبر عن ذلك **بالعدل**؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، ولم يقل: يأمر **بالمساواة!** لأن في كلمة **المساواة** إجمالًا ولبسًا بخلاف **العدل**، فإنها كلمة واضحة بينة صريحة في أن المراد أن يعطى كل ذي حق حقه.

إن دلالة **العدل** تقتضي أن يتولى الرجل ما يناسبه من أعمال، وأن تتولى المرأة ما يناسبها من أعمال، بينما كلمة مساواة: تعني أن يعمل كلٌّ من الجنسين في أعمال الآخر!

ومدلول كلمة **العدل**: أن تعمل المرأة عددًا من الساعات يناسب بدنها وتكوينها الجسمي والنفسي، بينما مقتضى **المساواة**: أن تعمل المرأة نفس ساعات الرجل، مهما اختلفت طبيعتهما!

وهذا كلّه عين المضادة للفطرة التي فطر الله عليها كلًا من الرجل والمرأة!



وهذا لما أصرت بعض المجتمعات الغربية على هذه المصادمة للفطرة، وبدأت تساوي المرأة بالرجل في كل شيء ذاقت ويلاتها ونتائجها المرة، حتى صرخ العقلاء منهم -رجالًا ونساء- وكتبَوا الكتب والرسائل التي تحذر مجتمعاتهم من الاستمرار وراء هذه المصادمة، ومن ذلك:

١- ما قالته دافيسون -زعيمة حركة كل نساء العالم-: «هناك بعض النساء حطمن حياتهن الزوجية عن طريق إصرارهن على **المساواة** بالرجل، إن الرجل هو السيد المطاع، ويجب على المرأة أن تعيش في بيت الزوجية، وأن تنسى كل أفكارها حول **المساواة**»[(١)].

٢- وهذه هيلين أندلين - وهي خبيرة في شؤون الأسرة الأمريكية - تقول: «إن فكرة **المساواة** - التماثل- بين الرجل والمرأة غير عملية أو منطقية، وإنها ألحقت أضرارًا جسمية بالمرأة والأسرة والمجتمع» ا.هـ[(٢)].

٣- أما رئيسة الجمعية النسائية الفرنسية -رينيه ماري- فتقول: «إن المطالبة **بالمساواة** الكاملة بين الرجل والمرأة تصل بهما إلى مرحلة الضياع، حيث لا يحصل أحد من الطرفين على حقوقه»ا.هـ[(٣)]، ولو رجعنا إلى لغة الأرقام التي أجريت في بلاد الغرب لطال بنا المقام.

٤- وهذه كلمات قالتها امرأة من أشهر دعاة الحرية والمساواة بين الرجل والمرأة في منطقة الخليج[(٤)]:

«سأعترف اليوم بأنني أقف في كثير من الأشياء ضد ما يسمى بـ (حرية المرأة)، تلك الحرية التي تكون على حساب أنوثتها، على حساب كرامتها، وعلى حساب بيتها وأولادها، سأقول: إنني لن أحمّل نفسي -كما تفعل كثيرات- مشقة رفع شعار المساواة بينها وبين الرجل، نعم أنا امرأة!

---

(١) العدوان على المرأة (ص١٠٢). فؤاد العبد الكريم.

(٢) قضايا المرأة في المؤتمرات الدولية. فؤاد العبد الكريم: (ص٢٧٨).

(٣) السابق (ص٢٦٩).

(٤) هي الكاتبة ليلى العثمان.




ثم تقول: هل يعني هذا أن أنظر إلى البيت -الذي هو جنة المرأة- على أنه السجن المؤبد، وأن الأولاد ما هم إلا حبل من مسد يشد على عنقي؟ وأن الزوج ما هو إلا السجان القاهر الذي يكبّل قدمي خشية أن تسبقه خطوتي؟ لا، أنا أنثى وأعتز بأنوثتي، وأنا امرأة أعتز بما وهبني الله، وأنا ربة بيت، ولا بأس بعد ذلك أن أكون عاملة أخدم خارج البيت نطاق الأسرة، ولكن -ويا رب اشهد-! بيتي أولًا، ثم بيتي، ثم بيتي، ثم العالم الآخر»[1] انتهى.

وبعد هذا كله: فماذا يقال عمن سوّى بين الذكر والأنثى، والذي خلَقهما يقول: ﴿وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰ﴾؟

إنك لا تتعجب أن يقع الرد لهذا الحكم القدري من كفار أو ملاحدة، وإنما تستغرب أن يقع هذا من بعض المنتسبين لهذا الدين، والذين يصرحون في مقالاتهم وكتاباتهم بأن هذا الحكم كان في فترة نزول الوحي يوم كانت المرأة جاهلة لم تتعلم! أما اليوم فقد تعلمت المرأة، وحصلت على أعلى الشهادات!

وهذا الكلام خطير جدًا، وقد يكون رِدّةً عن الدين؛ لأنه ردٌّ على الله تعالى، فإنه هو الذي قدَّر هذا الحكم، وهو الذي يعلم ما ستؤول إليه المرأة إلى يوم القيامة.

ثم إن التاريخ والواقع يُكذِّب هذه المقولة من جهتين:

الأولى: أن تكوين المرأة النفسي والبدني (الفسيولوجي) لم يتغير منذ خلقها الله تعالى، فأمُّنا حواء من ضِلع أبينا آدم، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها! ولم يربط الله تعالى ذلك بعلمٍ تتعلمه، أو بشهادة تحصل عليها.

والجهة الثانية لبيان خطأ هذه المقولة:

أن هذا الحكم يدخل فيه أمهات المؤمنين -رضوان الله عليهن-، وهن -بلا ريب- أعلم نساء هذه الأمة، وأتقاهن، ومن هي التي تبلغ عشر علمهن؟!

---

(١) رسائل إلى حواء: (٣/ ٨٥).






ومع ذلك لم تتعرض واحدة منهن على هذه الأحكام الشرعية التي سمعنها مباشرة من زوجهن رسولِ الله ﷺ، بل قابلن ذلك بالانقياد والتسليم، والرضى والقبول، وجرى على هذا الهدي من سار على نهجهن من نساء المؤمنين إلى يومنا هذا.

ولعلي أختم هذه القاعدة بهذه القصة الطريفة – التي سمعتها من أحد الباحثين، وهو يتكلم عن زيف الدعوى التي تطالب بفتح الباب للنساء؛ لكي يمارسن الرياضة كما يمارسها الرجال – يقول هذا الباحث وفقه الله:

إن أحد العدَّائين الغربيين المشهورين تعرّف إلى امرأة تمارس نفس رياضة العدو، فرغب أن يتزوجها، وتمّ له ما أراد، لكن لم يمض سوى شهرين على زواجهما حتى انتهى الزواج إلى طلاق! فسئل هذا العدّاء: لماذا طلقتها بهذه السرعة؟! فقال: لقد تزوجت رجلًا ولم أتزوج امرأة!! في إشارة منه إلى القسوة في التمارين – التي تتطلبها رياضة العدو – أفقدتها أنوثتها، فأصبحت في جسم يضاهي أجسام الرجال، وصدق الله العظيم، العليم الخبير: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾، فهل من مُدَّكر؟.



مفكّرة

١) ألا يعلم من خلق، وهو اللطيف الخبير!

٢) كمال كل جنس في محافظته على ما جبله الله عليه، لا في تقليده الجنس الآخر!

٣) الكمال المطلق من كل وجهٍ لا يوجد في هذه الدنيا..فارض بما قسم الله لك.

٤) أدعياء المساواة بين الجنسين لم ولن ينجحوا.. بل قد علمتهم تجاربهم فشل فكرتهم!

٥) لن تجد راحة بالك وطمأنينة نفسك أيها المسلم إلا في التسليم المطلق لشرع ربك.



هذه قاعدة جليلة من القواعد القرآنية العظيمة، تشع منها القدرة الإلهية؛ لتساند جند الإيمان في كل زمان ومكان.

إن النصر كلمة تعشقها النفوس، وتسعى لها جميع الأمم، وتتطلع لها كل الدول، وهي غاية تختلف الأمم في الوسائل التي تتحقق بها، وإن اتفقت في جملةٍ منها، لكن ثمة معنى شريف، يلفت إليه القرآن أتباعه؛ لترسيخ سبب من أعظم الأسباب التي لا يجوز أن تغيب عن أذهان المؤمنين وهم يقاتلون أعداءهم، أو ربما استعجلوا بقطف ثمرة النصر، ونسيان أسباب تثبيته.

تأتي هذه القاعدة لتقول لأهل القرآن: إن حقيقة النصر إنما هي «بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه ونصرة رسله وأتباعهم، ونصرة دينه وجهاد أعدائه، وقهرهم حتى تكون كلمته ﷻ هي العليا، وكلمة أعدائه هي السفلى»(٢).

وهذه القاعدة جاءت ضمن آيتين كريمتين، أبرزتا أسباب النصر، يقول تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠ – ٤١].

---

(١) الحج: ٤٠.

(٢) أضواء البيان: (٥/ ٢٦٥).

«ففي هاتين الآيتين الكريمتين وعدَ اللهُ بالنصر من ينصرُه وعدًا مؤكدًا بمؤكدات لفظية ومَعنوية:

أما المؤكدات اللفظية: فهي القسمُ المقدَّرُ؛ لأنَّ التقديرَ: واللهِ لينصرنَّ اللهُ مَنْ ينصرُهُ، وكذلك اللامُ والنونُ في ﴿وَلَيَنصُرَنَّ﴾ كلاهُما يفيدُ التوكيدَ.

وأمَّا التوكيدُ المعنويُّ: ففي قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ فهو سبحانه قَويٌّ لا يضْعُفُ، وعزيزٌ لا يُذَلُّ، وكلُّ قوةٍ وعزةٍ تُضَادُّهُ ستكونُ ذُلًا وضعفًا.

وفي قولِه: ﴿وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ تثبيتٌ للمؤمِنِ عندما يسْتَبعِدُ النصر في نَظَره لِبُعد أسبابِه عندَه، فإنَّ عواقبَ الأمورِ لله وحْدَهُ، يغَيِّر سبحانَه ما شاءَ حَسْبَ ما تَقْتَضِيه حكمَتُه»[1].

وهذه الجملة التي تضمنتها هذه القاعدة جاءت عطفًا على جملة: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ﴾ بالجهاد وإقامة الحدود، ﴿لَّهُدِّمَتۡ[2] صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ﴾[3] وهذه هي معابد أهل الملل الكبرى، ثم قال سبحانه بعد ذلك -مؤكدًا هذه القاعدة والسنة الإلهية المطردة-: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾.

والسؤال: كيف يكون نصر الله؟ وهل الله محتاج إلى نصره وهو الغني القوي العزيز؟

---

(١) مجالس شهر رمضان (٩٥) للعثيمين.

(٢) وفي الآية قراءتان: بتخفيف الدال: (هُدِمَتْ) وبالتشديد على التكثير، فالتخفيف يكون للتقليل والتكثير، والتشديد يختص بالتكثير، ينظر: تفسير البغوي (٥/ ٣٨٩).

(٣) «فإن قيل: لم قدمت مساجد أهل الذمة ومصلياتهم على مساجد المسلمين؟ قيل: لأنها أقدم بناء. وقيل: لقربها من الهدم وقرب المساجد من الذكر، كما أخر السابق في قوله: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [فاطر: ٣٢]». ينظر: تفسير القرطبي (١٢ / ٧٢).

والجواب على ذلك: أن نصره يكون بنصرة دينه، ونصرة نبيه ﷺ في حياته، ونصرة سنته بعد مماته، وتتمةُ الآيةِ التي بعدها تكشفُ حقيقة النصر الذي يحبه الله ويريده، بل هو النصر الكفيلُ باستمرار التمكين في الأرض، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

ولذا، ما نُصِرَ دين اللهِ بأعظم من إظهار هذه الشعائر العظيمة:

الصلاة: التي هي صلةٌ بين العباد وربهم، وبها يستمدون قوتهم الحسية والمعنوية، وراحتهم النفسية.

وإيتاءُ الزكاةِ: «فأدوا حق المال، وانتصروا على شح النفس، وتطهروا من الحرص، وغلبوا وسوسة الشيطان، وسدوا خَلة الجماعة، وكفلوا الضعاف فيها والمحاويج، وحققوا لها صفة الجسم الحي»[1].

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وفيه إصلاحٌ لغيرهم، فالناس ما بين جاهل أو غافل، فهؤلاء يؤمرون بالخير ويُذكرون به، أو عاصٍ ومعاندٍ، فهؤلاء ينهون عن المنكر.

فمتى ما علم الله من أي أمة من الأمم أو دولة من الدول أنها ستقيم هذه الأصول الأربعة من أصول التمكين؛ أمدّها الله بتوفيقه، وعونه وإن تكالبت عليها الأمم، وفي سيرة النبي ﷺ وخلفائه الراشدين، ومن سار سيرتهم أصدق الشواهد وأنصعها.

أما إذا علم الله من أحوالهم أنهم إذا عادوا إلى الأرض ومُكِّنوا فيها ما أقاموا صلاةً، ولا آتوا زكاةً، ولا رجحوا معروفًا، ولا قبحوا منكرًا، فإن الله تعالى يكلهم إلى أنفسهم، ويسلط عليهم عدوهم، أو يلبسهم شيعًا ويذيق بعضهم بأس بعض، وفي التاريخ عبرة!

(١) في ظلال القرآن (٤ / ٢٤٢٧).

وإنك لتعجب -بعد هذا الإيضاح الرباني لأصول النصر والتمكين- من أناس ينتسبون إلى الإسلام، كيف تنكبوا عنه؟ أم كيف استبدلوا به مذاهب لا دينية أصلًا؟ ولا ينسى الناس قول أحد القياديين في منظمة التحرير الفلسطينية -لمّا أرادوا إعلان الدولة الفلسطينية-: نريدها دولةً علمانية!

إن انتصار اليهود على هؤلاء أقرب؛ فهم أهل كتاب ودين وإن كانوا قتلةً مجرمين.

إن من يقرأ القرآن الكريم بأدنى تأمل، سيجد الحديث فيه ظاهرًا وبيِّنًا عن أسباب النصر وأسباب الهزيمة في مواطن متفرقة، وهي تحكي مواقف وقعتْ لأشرف جيش عرفته الدنيا، قائده محمد رسول الله ﷺ، وجنوده الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين.

لقد تساءل أصحاب النبي ﷺ في أُحد عن سبب الهزيمة؟ فجاء الجواب من السماء: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وفي حنين، وقع إعجاب من بعض مُسلمة الفتح بكثرتهم، فكاد الجيش أن ينهزم، فجاء التعقيب الذي تضمن تذكيرًا بمنن الله عليهم في مواطن كثيرة: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

وفي حديث القرآن عن غزوة بدر -في سورة الأنفال- تصريح بأهم أسباب النصر وأخطر أسباب الهزيمة: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٦-٤٧].




ونجد تصريحًا بسبب آخر من أسباب النصر ألا وهو الإيمان، إذ يقول الله ﷻ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

والسؤال: أين النصر اليوم عن المسلمين؟ المسلمون في بلدان كثيرة مضطهدون مهزومون، يعيشون ضعفًا ويذوقون عجزًا!

أين النسخ المكررة من يوم الفرقان في بدر الكبرى؟ ويوم الأحزاب؟ واليرموك؟ ونهاوند؟ أو يوم كُسِرَ التتار حين غزوا بلاد الإسلام في أوائل القرن الثامن؟!

إنني حرصتُ أن أنقل إجابات أربعة من علماء الإسلام في القديم والحديث، ومن نواحٍ متفرقة، من المغرب والمشرق؛ لنرى كيف ينظر هؤلاء العلماء إلى الداء والدواء:

يقول القرطبي رحمه الله (ت: ٦٧١هـ) -مجيبًا على هذا السؤال القديم في ضوء هذه القاعدة: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾-:

«هكذا يجب علينا نحن أن نفعل[١]! لكن الأعمال القبيحة والنيات الفاسدة منعت من ذلك حتى ينكسر العدد الكبير منا قُدَّام اليسير من العدو كما شاهدناه غير مرة! وذلك بما كسبت أيدينا وفي البخاري: قال أبو الدرداء: إنما تقاتلون بأعمالكم، وفيه مسند[٢] أن النبي ﷺ قال: «هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم»[٣]،

(١) أي: أن ننصر دين الله.

(٢) أي: في صحيح البخاري حديث مسند.

(٣) صحيح البخاري ح (٢٨٩٦)، وفي رواية النسائي: «إنما نصر الله هذه الأمة بضعفتهم بدعواتهم وصلاتهم وإخلاصهم»، وله شاهد من حديث أبي الدرداء عند أحمد والنسائي بلفظ: «إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم»، قال ابن بطال: تأويل الحديث أن الضعفاء أشد إخلاصًا في الدعاء، وأكثر خشوعًا في العبادة؛ لخلاء قلوبهم عن التعلق بزخرف الدنيا». فتح الباري لابن حجر: ٦/ ٨٩.

فالأعمال فاسدة والضعفاء مهملون والصبر قليل والاعتماد ضعيف والتقوى زائلة، قال الله تعالى: ﴿ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟﴾ [المائدة: ٢٣]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

فهذه أسباب النصر وشروطه، وهي معدومة عندنا غير موجودة فينا! فإنا لله وإنا إليه راجعون على ما أصابنا وحل بنا! بل لم يبق من الإسلام إلا ذكره، ولا من الدين إلا رسمه! لظهور الفساد ولكثرة الطغيان وقلة الرشاد، حتى استولى العدو شرقًا وغربًا، برًا وبحرًا، وعمت الفتن وعظمت المحن! ولا عاصم إلا من رحم»[1].

ويقول الإمام ابن تيمية ﷺ (ت: ٧٢٨هـ) مشخصًا الداء ومبينًا الدواء:

«إذا كان في المسلمين ضعف، وكان العدو مستظهرًا عليهم؛ كان ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم - إما لتفريطهم في أداء الواجبات باطنًا وظاهرًا، وإما بعدوانهم بتعدي الحدود باطنًا وظاهرًا-، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾، وقد قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾»[2].

(١) تفسير القرطبي: (٣/ ٢٥٥).

(٢) مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية -رشيد رضا-: (١/ ٥٨).

وللعلامة الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله (ت: ١٣٥٤هـ) جواب عن هذا السؤال، يحسن إيراده، وهو العالم الذي عاش فترة ضعف وهوانٍ شديدين مرت بهما أمة الإسلام:

«ولكننا نرى كثيرًا من الذين يدعون الإيمان في هذه القرون الأخيرة غير منصورين، فلا بد أن يكونوا في دعوى الإيمان غير صادقين، أو يكونوا ظالمين غير مظلومين، ولأهوائهم لا لله ناصرين، ولسننه في أسباب النصر غير متبعين، وإن الله لا يخلف وعده ولا يبطل سننه، وإنما ينصر المؤمن الصادق وهو من يقصد نصر الله وإعلاء كلمته، ويتحرى الحق والعدل في حربه لا الظالم الباغي على ذي الحق والعدل من خلقه، يدل على ذلك أول ما نزل في شرع القتال قوله تعالى -من سورة الحج-: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْ﴾ [الحج: ٣٩] إلى قوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، فأما الرسل الذين نصرهم الله ومن معهم فقد كانوا كلهم مظلومين، وبالحق والعدل معتصمين، ولله ناصرين. وقد اشترط مثل ذلك في نصر سائر المؤمنين، فقال في -سورة القتال-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد:٧]، والإيمان سبب حقيقي من أسباب النصر المعنوية، يكون مرجحا بين من تساوت أسبابهم الأخرى، فليس النصر به من خوارق العادات»[(١)].

أما العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله (ت: ١٣٧٦هـ) فيضمن بيانه عن الداء والدواء حديثًا مهمًا عن الفأل، فيقول:

«إيمان ضعيف، وقلوب متفرقة، وحكومات متشتتة، وعداوات وبغضاء باعدت بين المسلمين، وأعداء ظاهرون وباطنون، يعملون سرًّا وعلنًا للقضاء على الدين، وإلحاد وماديات، جرفت بتيارها الخبيث، وأمواجها المتلاطمة الشيوخَ والشبان، ودعايات إلى فساد الأخلاق، والقضاء على بقية الرمق!!

---

(١) تفسير المنار (٧/ ٣١٧).




ثم إقبال الناس على زخارف الدنيا، وبحيث كانت هي مبلغ علمهم، وأكبر همهم، ولها يرضون ويغضبون، ودعاية خبيثة للتزهيد في الآخرة، والإقبال بالكلية على تعمير الدنيا وتدمير الدين، واحتقار واستهزاء بالدين وما ينسب إليه، وفخر وفخفخة، واستكبار بالمدنيات المبنية على الإلحاد التي آثارها وشرها وشررها قد شاهده العباد...

ولكن مع ذلك: فإن المؤمن لا يقنط من رحمة الله، ولا ييأس من روح الله، ولا يكون نظره مقصورًا على الأسباب الظاهرة، بل يكون ملتفتًا في قلبه كل وقت إلى مسبب الأسباب، الكريم الوهاب، ويكون الفرج بين عينيه، ووعده الذي لا يخلفه، بأنه سيجعل الله بعد عسر يسرًا، وأن الفرج مع الكرب، وأن تفريج الكربات مع شدة الكربات وحلول المفظعات»[1].

نسأل الله تعالى أن يعز دينه وأن يجعلنا من أنصاره، وأن يُظهر أولياءه، ويُذل أعداءه.



مفكّرة

١) متى سعى المسلمون بصدق لنصرة دينهم..أبهرهم الله بنصره وتأييده.

٢) سنن الله لا تتبدل ومواعيده لا تُخلف؛ فليراجع المسلمون أنفسهم.

٣) النصر والتمكين لهما شروط وأسباب..ليس الإسلام فقط.

٤) انصر دين الله في نفسك وأهلك..فهذا خطوة مهمة في طريق نصر المسلمين.

(١) بهجة قلوب الأبرار: (ص٢٣٠).



القاعدة الحادية عشرة

﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ﴾[1]

هذه قاعدة من القواعد القرآنية المحكمة، والتي يتعين إبرازها للناس، وخصوصًا في هذا الزمن الذي راجت فيه سوق السحرة والمشعوذين، إنها القاعدة التي دل عليها قوله تعالى: ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩][2]، وفي معنى هذه القاعدة قوله تعالى: ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ [يونس: ٧٧].

وهذه القاعدة جاءت ضمن قصة موسى مع سحرة فرعون في سورة طه، بعد أن واعدهم موسى، هو في خندق، وفرعون ومن معه من السحرة في خندق آخر، فلما اجتمعوا: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٥ - ٦٩].

---

(١) طه:٦٩.

(٢) وممن نص على أن هذه قاعدة كلية من قواعد القرآن: الإمام محمد بن عبد الوهاب في تفسيره (٣٠١).

ووجه اطراد هذه القاعدة: أن المتقرر في علم النحو: أن الفعل المضارع إذا كان في سياق النفي فإن ذلك يكسبه صفة العموم، وهكذا الفعل (لا يفلح) فإنه جاء في سياق النفي، فدل ذلك على عمومه، فلن يفلح ساحر أبدًا، مهما احتال، وتأمل كيف عمم ذلك بالأمكنة فقال: ﴿حَيْثُ أَتَىٰ﴾[1].

وفي اختيار الفعل ﴿أَتَىٰ﴾ دون قوله -مثلًا-: حيث كان، أو حيث حل سرٌّ، ولعل السر في ذلك: من أجل مراعاة كون معظم أولئك السحرة مجلوبون من جهات مصر المختلفة، كما قال تعالى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ٣٨][2].

يقول العلامة الشنقيطي -معلقًا على نفي الفلاح عن الساحر مطلقًا-:

«وذلك دليل على كفره؛ لأن الفلاح لا ينفى بالكلية نفيًا عامًا إلا عمن لا خير فيه، وهو الكافر، ويدل على ما ذكرنا أمران:

الأول: هو ما جاء من الآيات الدالة على أن الساحر كافر، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ يدل على أنه لو كان ساحرًا -وحاشاه من ذلك- لكان كافرًا، وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ صريح في كفر معلم السحر.

الأمر الثاني: أنه عرف باستقراء القرآن أن الغالب فيه أن لفظة (لا يفلح) يراد بها الكافر، كقوله تعالى في سورة يونس: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ

(١) ينظر: أضواء البيان (٤/ ٥٥١).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٩/ ١٤٤).




عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴾ [يونس: ٦٨ - ٦٩]، وقولِه في سورة يونس أيضًا: ﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ [يونس: ١٧]»[1].

كم هي الآيات التي تحدثت عن السحر والسحرة في كتاب الله تعالى، وأخبرت عن ضلالهم، وخسارتهم في الدنيا والآخرة! ومع هذا فيتعجب المؤمن كثيرًا؛ من رواج سوق السحر والسحرة في بلاد الإسلام!

وليس العجب من وجود ساحر أو ساحرة؛ فهذا لم يخل منه أفضل الأزمان، وهو الزمن الذي عاش فيه النبي ﷺ فضلًا عن غيره!

وليس العجبُ -أيضًا- من ساحر يسعى لكسب الأموال بأي طريق!

لكن العجب من أمة تقرأ هذا الكتاب العظيم، وتقرأ ما فيه من آيات صريحة واضحة في التحذير من السحر وأهله، وبيان سوء عاقبتهم ومآلهم في الدنيا والآخرة، ومع ذلك يقفون زرافاتٍ ووحدانًا أمام عتبات أولئك السحرة المجرمين!! سواء أمام بيوتهم، أم أمام شاشات قنوات السحر والشعوذة، والتي راجت سوقها منذ فترة من الزمن! يلتمسون منهم التسبب في إيقاع الضر بأحد أو إزالته عن آخر، وكأن هؤلاء لم يقرؤوا قول الله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠٢]!

والمقطوع به أنه لولا تكاثر الناس على هؤلاء السحرة لما راجت سوقهم،

(١) ينظر: أضواء البيان (٤/ ٥٥٢).






وانتشر باطلهم!

إن مرور الإنسان بحالة مرضية صعبة، أو حالة نفسية شديدة، لا يبيح له بحال أن يرد هذه السوق الكاسدة -سوق السحرة- وكيف يرجى الربح من أناس حكم عليهم ربهم بالخسران؟! وإن الله تعالى أرحم وأحكم من أن يحرم عليهم إتيان السحرة، ولا ينزل لهم دواء لما ابتلوا به! كما قال النبي ﷺ: «لكل داء دواء فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله عز و جل»[1].

وفي البخاري عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاء»[2].

ولعظيم ضرر السحر، فقد حرمته جميع الشرائع.

إن من أيقن بأن الساحر لا يفلح حيثُ أتى، وأيقن بأنه لا يفلح الساحرون، دفعه هذا إلى أمورٍ، من أهمها:

❊ البعد عن إتيان هذا الصنف من الناس الذين نفى الله فلاحهم في الدنيا والآخرة -بغية علاج أو نحوه- وكيف يرتجى النفع ممن حكم عليه رب العالمين بأنه خاسر في الدنيا والآخرة!!

❊ الحذر من التفكير في ممارسة شيء من أنواع السحر، مهما كان المبرر، سواء بقصد العطف، أو الصرف -كما تفعله بعض النساء- وتظن أن قصدَ استمالةِ الزوجِ، أو منعِه من الزواج عليها، ونحو ذلك من الشبه، أن ذلك يبيح لها ما تصنع، فإن هذا

(١) مسلم ح (٢٢٠٤) عن جابر رضي الله عنه.

(٢) البخاري ح (٥٦٧٨).






كله من تزيين الشيطان وتلبيسه.

❁ ليعلم كل من يمارس السحر أو تسبب في فعله ذلك أنه على خطر عظيم، وأنه قد باع دينه بثمن بخس، وأن الشياطين هم شيوخه وأساتذته في عمله هذا، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ...﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

❁ إن ضعفت النفس لحظة، وزين الشيطان لها شيئًا من هذه الأفعال المنكرة، فليبادر بالتوبة الآن، وليقلع عن هذا العمل الباطل، وليتحلل ممن لحقه الأذى من جراء هذا الفعل، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، وقبل أن يوقف للحساب بين يدي من لا تخفى عليه خافية، الذي يعلم من هو الساحر؟ ومن هو المسحور؟ ومن هو المتسبب في ذلك كله! فيقتص للمظلوم من ظالمه، حين تكون الحسنة أغلى من الدنيا وما عليها!

إن يقين المؤمن بهذه القاعدة: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ مما يقوي عبادة التوكل عنده، وعدم الخوف من إرهاب هذا الصنف الحقير من الناس، وهم السحرة، ويتذكر عندها قول الله ﷻ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ وفي قراءة: ﴿أليس الله بكافٍ





عباده﴾؟ والجواب: بلى والله.

ومما يحسن تأمله والتفكرُ فيه: أن هؤلاء السحرة رغم ما يملكون من الأموال، وما يعيشونه من سكرة التفات الناس إليهم، إلا أنهم من أتعس الناس حياةً، وأخبثهم نفوسًا، ولا عجب! فمن سلّم قياده للشياطين، وكفر برب العالمين، كيف يسعد أم كيف يفلح؟!



١) السحر.. تجارة كاسدة في الدنيا والآخرة!

٢) «قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيبَ إلا الله» السحرة مِن أكفر الخلق بهذه الآية.

٣) لا يمكن لمؤمنٍ رسخ الإيمانُ في قلبه أن يستمع لمدّعٍ للغيب فضلا عن أن يصدّقه!

٤) أميتوا السحرَ وأهله: باجتنابه، سواء كان في صَحيفة أو موقع أو إذاعة أو تلفاز أو أي مكان.



القاعدة الثانية عشرة

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1]

هذه قاعدة من القواعد القرآنية المحكمة، التي تدل على عظمة هذا الدين، وسموِّه، وعلو مبادئه.

إن هذه الآية العظيمة جاءت في سورة الحجرات، وإن شئت فسمها: جامعة الآداب، فبعد أن ذكر الله تعالى جملةً من الآداب العظيمة، والخلال الكريمة، ونهى عن جملة من الأخلاق الرذيلة، والطباع السيئة، قال الله بعدها -**مقررًا الأصل الجامع** الذي تنطلق منه الأخلاق الحسنة، وتضعف معه أو تتلاشى الأخلاق السيئة، وأنه معيار التفاضل والكرامة عند الله-: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، إنها لآية عظيمة، تبرز ميزان العدل الذي لم تظهر تفاصيله كما ظهرت في هذا الدين.

لن يتبين لك موقع هذه الآية الكريمة إلا إذا استعرضتَ في ذهنك شيئًا من الموازين التي كان يتعامل بها عرب الجاهلية في نظرتهم لغيرهم من غير قبائلهم، سواءٌ كانوا من قبائل أخرى أقل منهم درجة في النسب، أو في نظرتهم للأعاجم، أو في تعاملهم مع العبيد والموالي!

---

(١) الحجرات: ١٣.




وإليك هذا الموقف الذي وقع في حياة النبي ﷺ وحدّث به الصحابي صادق اللهجة: أبو ذر رضي الله عنه: روى الشيخان من حديث المعرور بن سويد قال: مررنا بأبي ذر بالربذة، وعليه بُردٌ وعلى غلامه مثله، فقلنا يا أبا ذر: لو جمعتَ بينهما كانت حلة، فقال: إنه كان بيني وبين رجل من إخواني كلام، وكانت أمه أعجمية فعيَّرتُه بأمِّه، فشكاني إلى النبي ﷺ، فلقيت النبي ﷺ فقال: «يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية»! قلت: يا رسول الله، من سب الرجالَ سبوا أباه وأمه، قال: «يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية، هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم»![1] فهذا أبو ذر مع صدق إيمانه، وسابقته في الإسلام، لامَه النبي ﷺ، وعاتبه لما خالف هذه القاعدة القرآنية العظيمة، وعيّر الرجل بمنطق أهل الجاهلية!

وليس هذا الموقف الوحيد الذي ربّى فيه النبي ﷺ على الاهتداء بهدي هذه القاعدة، بل كررها بعدة أساليب بيانية وعملية، ولعلي أكتفي بهذين الموقفين الذَين لا يمكن أن تنساهما العرب ولا قريش أبد الدهر:

أما الموقف الأول:

فهو يوم فتح مكة، حين أمر النبي ﷺ بلالًا أن يصعد فوق الكعبة ليرفع الأذان، في مشهد ما ظنّ بعض مُسْلِمةِ الفتح أن يعيش ليرى هذا العبد الحبشي يقف كهذا الموقف! ولكنه الإسلام، والهدي النبوي الذي يربي بالفعل والقول.

---

(١) البخاري ح (٥٧٠٣)، ومسلم ح (١٦٦١) واللفظ له.



وفي ذات اليوم -فتحِ مكة- يدخل النبي ﷺ الكعبةَ ويصلي فيها، ولك أن تتفكر من هي الشخصيات المتوقعة التي حظيت بشرف مرافقته في دخوله هذا، والذي أغلق عليه الباب بعد دخوله، ومن معه؟! **لعله** أبو بكر وعمر رضي الله عنهما؟ كلا، **إذن**: لعله صهره وزوج ابنتيه ذي النورين: عثمان، وابن عمه علي رضي الله عنهما؟ كلا، **إذن**: لعله دخل بعض مُسلمة الفتح من أكابر قريش؟ كلا، بل لم يدخل معه سوى: أسامة بن زيد -مولاه ابن مولاه- وبلال الحبشي، وعثمان بن طلحة المسئول عن مفتاح الكعبة![1].

الله أكبر! أي برهان عملي على إذابة المعايير الجاهلية أكبر من هذا؟ مع أن في الحضور من هو أفضل من بلال وأسامة -كالخلفاء الأربعة، وبقية العشرة المبشرين-!

وأما الموقف الثاني:

فإنه وقع في أعظم مشهد عرفته الدنيا في ذلك الوقت... إنه مشهد حجة الوداع، ففي بعض مشاهد تلك الحجة، وبينما الناس مستعدون للنفير من عرفة، وإذا بالأبصار ترمق الدابة التي كان النبي ﷺ يركبها، ويتساءلون: من الذي سيحظى بشرف الارتداف مع النبي ﷺ؟ فلم يرعهم إلا وأسامة -ذلك الغلام الأسود: مولاه وابن مولاه- يركب خلف النبي ﷺ والناس ينظرون!

فعل هذا النبي ﷺ وهو الذي خطب في ذلك اليوم خطبته العظيمة التي قرر فيها أصول التوحيد والإسلام، وهدم فيها أصول الشرك والجاهلية، وقال كلمته المشهورة: «إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي هاتين موضوع».

---

(١) والحديث في الصحيحين من حديث ابن عمر: البخاري ح (٢٨٢٦)، ومسلم ح (١٣٢٩).

هذان الموقفان قطرة من بحر سيرته العطرة ﷺ!

أما سيرة أصحابه رضي الله عنهم والتابعون لهم بإحسان فالمواقف فيها كثيرة وعظيمة، أكتفي منها بهذا الموقف الذي يدل على نبلهم وفضلهم، وشرف أخلاقهم حقًا، الذي جعلهم أهلًا لأن يكونوا خير من يمثل عالمية الإسلام وعالمية الرسالة:

كان علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم -المعروف بـ: زين العابدين، وهو من سكان مدينة النبي ﷺ- إذا دخل المسجد، يتخطى حِلَق قومه من قريش، حتى يأتي حلقة زيد بن أسلم -وهو مولى لكنه من علماء المدينة الكبار في زمانه- فيجلس عنده، فكأن بعض الناس لامه: كيف تجلس -وأنت الرجل القرشي وحفيد النبي ﷺ- عند رجل من الموالي؟ فقال كلمة ملؤها العقل: إنما يجلس الرجل إلى من ينفعه في دينه[1].

إن من عظمة هذا الدين أنه لم يربط مكانة الإنسان ومنزلته عند الله بشيء لا قدرة عليه به، فالإنسان لا يختار أن يكون شريف النسب، وإلا لتمنى الكل أن يتصل بالسلالة النبوية! ولم يربطه بطول ولا قِصَر، ولا وسامة ولا دمامة[2]، ولا غير ذلك من المعايير التي ليست في مقدور البشر، بل ربطه بمعيار هو في مقدور الإنسان.

---

(١) ينظر: حلية الأولياء (٣/ ١٣٨).

(٢) يقال لقبيح الخِلقة: دميم (بالدال)، وهو: من قبح منظره وصغر وجهه؛ وكأنه مأخوذ من «الدِّمَّةِ» بالكسر وهي القملة أو النملة الصغيرة، وأما الذميم بالذال فهو قبيح الأخلاق، لهذا يقال: دميم الخلق ذميم الخُلُق. انظر: المصباح المنير (١/ ١٠٥)، أساس البلاغة: (١/ ٢٧٤).




قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وليس في كتاب الله آية واحدةٌ يَمدح فيها أحدًا بنسبه، ولا يَذُمُّ أحدًا بنسبه، وإنما يمدحُ الإيمانَ والتقوى، ويذمَ الكفرَ والفسوقَ والعصيان»(١).

ومما يشهد لما قاله شيخ الإسلام: أن الله تعالى أنزل سورة كاملة في ذم أبي لهبٍ لكفره وعداوته للنبي ﷺ، ونهى اللهُ نبيّه ﷺ أن يطرد المؤمنين من ضَعَفة أصحابه، وإن كان القصدُ من ذلك: الرغبة في كسب قلوب أكابر قريش، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وقال له في الآية الأخرى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

إن مما يؤسف عليه -في واقعنا المعاصر- وجود أمثلة كثيرة مخالفة لهذه القاعدة الشريفة: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ تمثلت بصور من عودة العصبية الجاهلية للقبيلة، والتي لم تتوقف عند حد التعارف بين أفراد القبيلة الواحدة فحسب، ولم تتوقف عند التمادح المباح، بل تجاوزت ذلك إلى الغلو في المدح، والموالاة المفرطة للقبيلة، بل والتلويح تارة بنبز القبائل الأخرى، والتي ذوبانِ المعايير الشرعية عند البعض بسبب هذه الأساليب التي كرسها وعزز من حضورها المسابقات الشعرية التي تبنتها بعض القنوات الفضائية، والتي ترتب عليها محاذير شرعية أخرى ليس هذا موضع ذكرها،

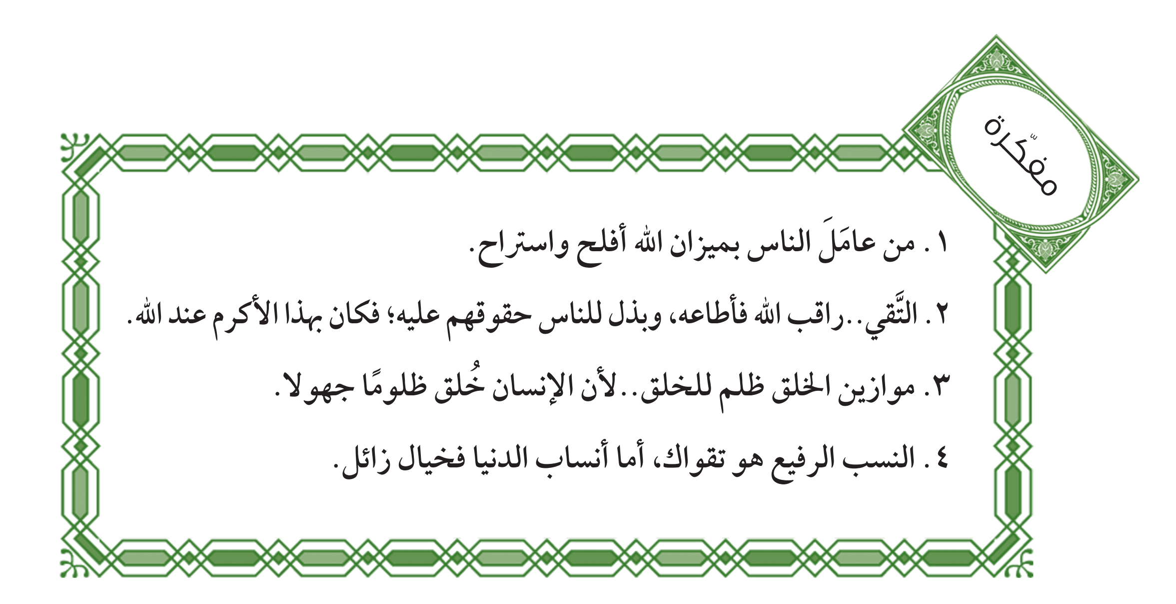
(١) دقائق التفسير: (٢/ ٢٣).





وإنما الغرض الإشارة إلى مخالفتها إلى ما دلت عليه هذه القاعدة القرآنية الكريمة، فليتق الله من يسمع ويقرأ قول ربه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ من التفاخر المذموم، وليعلم المؤمن أن من بطّأ به عمله لم يسرع به نسبه.

نسأل الله تعالى أن يعيذنا من أخلاق أهل الجاهلية، وأن يرزقنا التأسي برسوله ﷺ في جميع أمورنا.



مفكّرة

١ . من عامَلَ الناس بميزان الله أفلح واستراح.

٢ . التَّقي..راقب الله فأطاعه، وبذل للناس حقوقهم عليه؛ فكان بهذا الأكرم عند الله.

٣ . موازين الخلق ظلم للخلق..لأن الإنسان خُلق ظلومًا جهولا.

٤ . النسب الرفيع هو تقواك، أما أنساب الدنيا فخيال زائل.



هذه قاعدة من القواعد القرآنية، تُوقِفُ العبدَ على شيءٍ من عظمة الله تعالى في خلقه وحِكمته في شرعه، وتُوقف العبد على قصوره في علمه.

وهذه القاعدة جاءت في سياق آيات الفرائض في صدر سورة النساء، والمعنى:

«﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ﴾ يعني: الذين يرثونكم من الآباء والأبناء ﴿لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗا﴾ أي: لا تعلمون أنهم أنفع لكم في الدين والدنيا، فمنكم من يظن أن الأب أنفع له، فيكون الابن أنفع له، ومنكم من يظن أن الابن أنفع له فيكون الأب أنفع له، وأنا العالم بمن هو أنفع لكم، وقد دبَّرت أمركم على ما فيه المصلحة فاتبعوه»[٢].

«ولو رد تقدير الإرث إلى عقولكم واختياركم لحصل من الضرر ما الله به عليم؛ لنقص العقول وعدم معرفتها بما هو اللائق الأحسن، في كل زمان ومكان»[٣].

---

(١) النساء: ١١ .

(٢) تفسير البغوي: (٢/ ١٧٨).

(٣) تفسير السعدي: (ص١٦٦).

لقد كان أهل الجاهلية يقسمون الميراث بموازين غير منضبطة، فتارة يراعون حاجة الأبوين، وتارة حاجة الأبناء، وتارة يتوسطون، فجاء الشرع المطهر ليلغي تلك الاجتهادات، فتولى الله ﷻ قسمة المواريث بنفسه، ثم بيّن سبحانه في خاتمة هذه الآية الكريمة معنيين عظيمين يعزب عنهما علم البشر مهما بلغ في سعته، فقال ﷻ في خاتمتها:

١- ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء: ١١]، وهي القاعدة التي نحن بصدد الحديث عنها.

٢- ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١١] فهذه فرائض يجب تنفيذها، وعدم الافتيات عليها بتحريف أو تقصير، وعلل هذا بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾؛ ليزداد يقين المؤمن أن هذه القسمة صادرة عن علم تام، وحكمة بالغة، لا يمكن أن يلحقها نقص أو جور.

من تطبيقات هذه القاعدة:

ولنحاول أن نطبق هذه القاعدة على واقعنا؛ لعلنا نستفيد منها في تصحيح بعض ما يقع منا من أخطاء في بعض تصوراتنا ومواقفنا الاجتماعية، فمن ذلك:

١- أن بعض الآباء قد تكون خَلْفته[1] من الذرية بنات فقط؛ فيضيق لذلك صدره، ويغتم لهذا الابتلاء، فتأتي هذه القاعدة لتسكب في قلبه اليقين والرضا، وكم من بنتٍ كانت أنفع لوالديها من عددٍ من الأبناء! والواقع شاهدٌ بذلك.

(١) الصحاح في اللغة (١/ ١٨٣): «الخَلْفُ والخَلَفُ: ما جاء من بَعْدُ. يقال: هو خَلْفُ سَوءٍ من أبيه، وخَلَفُ صدقٍ من أبيه».




أعرف رجلًا لما كبرت سِنه، كان أولاده بعيدون عنه في طلب الرزق، فلم يجد هذا الوالد - الذي خارت قواه، وضعفت بُنيته - أكثر حنوًا ورعاية من ابنته الوحيدة التي قامت بحقه خير قيام من جهة النفقة، والرعاية الصحية، وصدق الله: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء: ١١].

هذا في الدنيا، أما في الآخرة فالأمر أعظم، قال ابن عباس رضي الله عنه: أطوعكم لله عز وجل من الآباء والأبناء أرفعكم درجة يوم القيامة، والله تعالى يُشَفِّع المؤمنين بعضهم في بعض[1]، فإن كان الوالد أرفع درجة في الجنة رُفع إليه ولده، وإن كان الولد أرفع درجة رُفع إليه والده لتقر بذلك أعينهم.

ومن المؤسف أن نسمع ونقرأ عن أناسٍ رزقوا عددًا من البنات، يتذمرون بل قد يهددون زوجاتهم إن هُنّ ولدنَ لهم إناثًا! وكأن الأمر بأيديهن، وهذا من الجهل -في الحقيقة- إذ كيف يلام إنسان على أمر لا طاقة له به؟

ويا ليت من يقعون في هذا الأسلوب يتأملون في أمور منها:

١) هذه القاعدة القرآنية: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء: ١١].

٢) قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩ - ٥٠].

---

(١) تفسير الطبري: (٧/ ٤٩) ط: الرسالة.



قال ابن القيم -معلقًا على هذه الآية-: «وكفى بالعبد -تعرضًا لمقته- أن يتسخط ما وهبه»[1].

٣) ومما يحسن بمن ابتلي بالبنات أن يتذكره: الأحاديث الواردة في فضل من عال البنات ورباهن حتى يبلغن.

ومما يُذكر به المتضجر من الابتلاء بالبنات، أن يقال له:

٤) هب أنك ضجرت، وتذمرت، فهل هذا سينجب لك ذكورًا؟ صحيح أن أغلب الناس جُبِلَ على حب الذكور، لكن المؤمن ينظر إلى هذا الابتلاء بمنظار آخر، وهو: عبودية الصبر، وعبودية الرضا عن الله، بل قد ينتقل بعض الموفقين إلى مرتبة الشكر؛ لعلمه بأن خيرة الله خير من خيرته لنفسه، وأن الله قد يكون صرف عنه شرًا كثيرًا حين حرمه من الذكور أليس الله تعالى قد سلّط الخضر على ذلك الغلام فقتله، ثم علل ذلك بقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۝٨٠ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾؟! [الكهف: ٨٠ - ٨١].

(١) تحفة المودود بأحكام المولود: ص (٣٢)، ولكلامه تتمة يحسن ذكرها، وهي قوله: «وبدأ سبحانه بذكر الإناث: فقيل جبرا لهن؛ لأجل استثقال الوالدين لمكانهن، وقيل - وهو أحسن -: إنما قدمهن لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاء لا ما يشاء الأبوان، فإن الأبوين لا يريدان إلا الذكور غالبًا، وهو سبحانه قد أخبر أنه يخلق ما يشاء؛ فبدأ بذكر الصنف الذي يشاء ولا يريده الأبوان، **وعندي وجه آخر**: وهو أنه سبحانه قدَّم ما كانت تؤخره الجاهلية من أمر البنات؛ حتى كانوا يئدوهن، أي: هذا النوع المؤخر عندكم مُقَدَّمٌ عندي في الذكر، وتأمل كيف نكّر سبحانه الإناث، وعرّف الذكور، فجبر نقص الأنوثة بالتقديم، وجبر نقص التأخير بالتعريف، فإن التعريف تنويهٌ كأنه قال: ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين، الذين لا يخفون عليكم، ثم لما ذكر الصنفين معًا قدم الذكور إعطاء لكل من الجنسين حقه من التقديم والتأخير، والله أعلم بما أراد من ذلك» انتهى.

ومما يحسن ذكره في هذا المقام: أن الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله -وهو ممن ابتلي بالبنات ولم يرزق الذكور- كتب مقالًا، أكاد أجزم لو قرأه الذين ابتلوا بالبنات لم يتمنوا إلا ما هم فيه!

وكما أن الآية فيها سلوة لمن ابتلوا بالبنات؛ ففيها سلوة لأولئك الذين ابتلوا بأولاد معاقين، سواء كانت إعاقتهم سمعيةً أو بصريةً أو عقليةً أو بدنية، فيقال لهم: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١٦]، ويقال لهم أيضًا: والله إنكم لا تدرون أي أولادكم أقرب لكم نفعًا! فقد يكون هذا المعاق أقرب لكم نفعًا في الدنيا قبل الآخرة!

أما في الدنيا: فكم فتحت هذه الابتلاءات لوالِدَي هؤلاء المعاقين من لذة التعلق بالله، ومناجاته، ورجائه الفرج!

وكم ربّت هذه الابتلاءات في نفوس والِدَي المعاقين من معاني الصبر والاحتمال ما لم تكن تحصل لهم لولا هذه الابتلاءات! وكم... وكم...!!

وأما في الآخرة: فلعل أمثال هذه الابتلاءات بهؤلاء المعاقين تكون سببًا في رفعة درجاتهم عند الله تعالى، رفعةً قد لا تبلغها أعمالهم!

ولئن كانت الآية واضحة المعنى في موضوع الابتلاء بالبنات، أو بأبناء فيهم عاهات أو إعاقات، فإنه يمكن أن يقاس عليها أمور أخرى، **مثل:** الأعمال الصالحة، والمؤلفات، والمقالات، والكلمات، بل والعبادات، فلا يدري الإنسان أي تلك الأعمال، والمؤلفات، والعبادات أكثر نفعًا له في الآخرة.

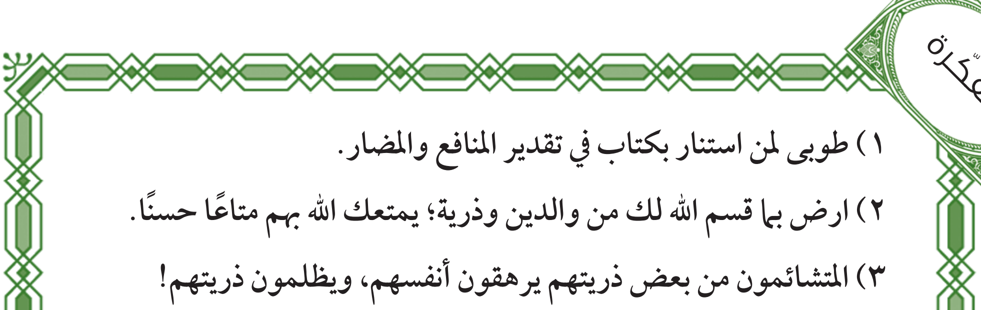




تأمل في سؤال النبي ﷺ لبلال رضي الله عنه -حينما سمع ﷺ خشْف[1] نعليه في الجنة -: «أخبرني بأرجى عمل عملته في الإسلام»؟ فقال بلال: إني لم أتوضأ ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الوضوء ركعتين![2].

تأمل كيف أنه لم يذكر بلالٌ جهاده مع الرسول، ولا التزامه بالأذان!

وهذا كله يدعو العبد لأن يكثر من أبواب الخير؛ فالإنسان لا يدري أي أعماله التي قد تكون سببًا في نيل رضوان الله والجنة، ولرُب عملٍ كبير لكن داخَلَه ما داخَلَه من حظوظ النفس؛ فلم ينتفع به صاحبه، ولرُب عمل قليلٍ عَظُمت فيه النية، وصدق صاحبها مع الله فأثابه ثوابًا لا يخطر على باله، وفي قصة المرأة البغي التي سقت كلبًا أكبر شاهد على ذلك.



مفكّرة

١) طوبى لمن استنار بكتاب في تقدير المنافع والمضار.

٢) ارض بما قسم الله لك من والدين وذرية؛ يمتعك الله بهم متاعًا حسنًا.

٣) المتشائمون من بعض ذريتهم يرهقون أنفسهم، ويظلمون ذريتهم!

٤) تأمل في قصص وحكايات المعاقين..كيف كان كثير منهم مصدر سعادة وبركة لكل أسرته.

---

(١) الخَشْفة: الصوتُ والحَركةُ أو الحِسُّ الخَفِيُّ.

(٢) البخاري ح (٣٤٧٦)، ومسلم ح (٢٤٥٨).





القاعدة الرابعة عشر

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾[1]

هذه قاعدة من القواعد القرآنية المحكمة، التي تجلي معنى عظيماً ومهماً في باب التسليم والانقياد لأوامر الله ورسوله، والانقياد لحكم الشريعة.

وهذه الآية الكريمة جاءت في سورة القصص، في سياق الحجاج مع المشركين، وبيان تنوع أساليبهم في العناد لرد الشريعة، ورميهم للنبي ﷺ بالعظائم، يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٤٨ – ٥٠].

والشاهد الذي نحن بصدد الحديث عنه، هو قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾.

---

(١) القصص: ٥٠ .

وقد بين الله تعالى هذه القاعدة في موضع آخر، فقال ﷻ: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾[1].

يقول ابن القيم رحمه الله موضحًا هذه القاعدة: «فما هو إلا الهوى أو الوحي، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ - ٤]، فجعل النطق نوعين: نطقًا عن الوحي، ونطقًا عن الهوى»[2]، «فما لم يقله سبحانه ولا هدى إليه فليس من الحق، قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾، فقسم الأمور إلى قسمين لا ثالث لهما: اتباع لما دعا إليه الرسول واتباع الهوى»[3].

«فمن ترك استجابته إذا ظهرت له سنة، وعَدَلَ عنها إلى خلافها؛ فقد اتبع هواه»[4].

إن الحاجة إلى التذكير بهذه القاعدة القرآنية العظيمة من الأهمية بمكان، خصوصًا في هذا العصر الذي كثرت فيه الأهواء، وتنوعت فيه المشارب في التعامل مع النصوص الشرعية بدعاوى كثيرة: فهذا ينصر بدعته، وهذا يروج لمنهجه في تناول النصوص، وثالث يتتبع الرخص التي توافق مراد نفسه، لا مراد الله ورسوله!

لقد أتى على الناس زمانٌ لا يحتاج الشخص ليمتثل الأمر أو يترك النهي إلا أن يقال له: قال الله، قال رسوله، قال الصحابة، فيتمثل وينصاع، ويندر أن تجد من يناقش مناقشة المتملص من الحكم الشرعي، أما اليوم - وقد انفتحت على الناس أبواب كثيرة يتلقون منها المعلومات - فقد سمعوا أقوالًا متنوعة في المسائل الفقهية،

(١) ينظر: التبيان في أقسام القرآن (١٢٩) لابن القيم.

(٢) الصواعق المرسلة: (٣/ ١٠٥٢).

(٣) إعلام الموقعين: (١/ ٢٩٨).

(٤) الصواعق المرسلة: (٤/ ١٥٢٦).




وليست هذه هي المشكلة - فالخلاف قديمٌ جدًا، ولا يمكن إلغاء أمر قدره الله ﷻ - **إلا أن المشكلة، بل المصيبة**: أن بعض الناس وجد في بعض تلك الأقوال -التي قد تكون شاذةً في المقياس الفقهي- فرصةً للأخذ بها؛ بحجة أنه قد وجد في هذه المسألة قولًا يقول بالإباحة! ضاربًا عُرض الحائط بالقول الآخر الذي يكاد يكون إجماعًا أو شبه إجماع من السلف الصالح على تحريم هذا الفعل أو ذاك القول!

هذا فضلًا عن تلك المسائل التي تبين فيها خطأ قائلها من أهل العلم؛ بسبب خفاء النص عليه، أو لغير ذلك من الأسباب المعروفة التي لأجلها يختلف العلماء(١)، ولئن كان ذلك الإمام معذورًا مأجورًا - لخفاء النص عليه أو لغير ذلك من الأسباب - فما عُذْرُ من بلغه النص عن الله أو عن رسوله؟! ثم بعد ذلك يدّعي أنه يسوغ له الأخذ بذلك القول لأجل أنه قد قيل به! مرددًا مقولةً كثر تكرارها على ألسنة هذا الصنف من الناس: ما دام أنني لم أخالف إجماعًا قطعيًا، ولا نصًا صحيحًا صريحًا، فلا حرج عليّ!! ناسيًا أو متناسيًا قواعد الاستدلال التي قررها الأئمة رحمهم الله.

أليس هؤلاء لهم نصيب من هذه القاعدة: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾؟!

وهنا يَحْسُنُ أن يُذَكّرُ هذا الصنف من الناس بقول الله تعالى: ﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ﴾ [القيامة: ١٤]، وهي قاعدة قرآنية محكمة، سبق شرحها.

---

(١) والتي حررها شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالته القيمة: «رفع الملام عن الأئمة الأعلام».



كما ينبغي أن يُذَكّروا بالقاعدة التي جاءت في الحديث المشهور -والذي قواه بعض أهل العلم[1]-: «**البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب والإثم ما حاك في النفس، وتردد في الصدر**»[2].

وهذا المعنى - الذي دلّ عليه الحديث - كما نبّه على ذلك العلماء: إنما يجده من بقي في قلبه بقية من نورلم تطمسها ظلمة الشهوات والشبهات! أما من هام في أودية الفسق والفجور؛ فإن قلبه لا يفتيه إلا بما تهواه نفسه!

وما أجمل ما حكاه ابن الجوزي عن نفسه، وهو يصف حالًا مرّت به، تُشبه ما نحن بصدد الحديث عنه -من أحوال بعض المترخصين اتباعًا لأهوائهم- يقول: «ترخصت في شيء يجوز في بعض المذاهب، فوجدت في قلبي قسوة عظيمة، وتخايل لي نوع طرد عن الباب وبُعْدٌ، وظلمة تكاثفت! **فقالت نفسي**: ما هذا؟ أليس ما خرجتَ عن إجماع الفقهاء؟!

فقلت لها: يا نفسَ السوء! إنكِ تأولت ما لا تعتقدين، فلو استُفْتِيْتِ لم تفتِ بما فعلتِ، **والثاني**: أنه ينبغي لكِ يا نفسُ الفرح بما وجدت من الظلمة عقيب ذلك؛ لأنه لولا نورٌ في قلبك ما أثر هذا عندك!»[3].

---

(١) قال ابن رجب: «وقد روي هذا الحديث عن النبي × من وجوه متعددة، بعض طرقه جيدة»، ينظر: (جامع العلوم والحكم - شرح الحديث ٢٧).

(٢) وقد أشرت لشيء من معناه في آخر حديثي عن القاعدة النبوية الرابعة عشر (البر حسن الخلق)، أعان الله على إتمام تلك القواعد وطبعها.

(٣) صيد الخاطر: (١٦٢) بتصرف.




لقد جرى لي مرةً حوار عارض مع بعض هذه الفئة، التي أخذت تخوض عمليًا في جملةٍ من المسائل المخالفة لما عليه جماهير العلماء، فقلتُ له: يا هذا! دعنا من البحث الفقهي المحض، وأخبرني عن قلبك: كيف تجده وأنت تفعل ما تفعل؟!

فأقسم لي بالله: أنه غير مرتاح! وإنما يخادع نفسه بأن الشيخ الفلاني يفتي بهذا، وهو في قرارة نفسه غير مطمئن لتلك الفتوى! فقلتُ له: يا هذا، إن العالِم الذي قال بهذه المسألة معذور؛ لأن هذا هو مبلغ علمه، ولكن انج بنفسك، فإن صنيعك هذا هو الذي قال العلماء: إنه تتبع الرخص، وذموا فاعله، بل جعلوا هذا الفعل نوعًا من النفاق واتباع الهوى، ولذا قال جمع من السلف: من تتبع الرخص فقد تزندق!

ومن تأمل كلمة الهوى في القرآن الكريم، لم يجدها ذُكِرت إلا في موطن الذم! ولهذا حذر الله نبيًا من خيرة أنبيائه من هذا الداء القلبي الخطير فقال: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]! فمن يأمن على نفسه من الهوى بعد ذلك؟

ولو أن رجلًا أخذ برخص الفقهاء من عدة مذاهب في مسائل متنوعة، لاجتمع فيه شرٌّ عظيم، ولأصبح دينه مرقعًا ورقيقًا!

وليتذكر المؤمن جيدًا -وهو يسلك مسلك تتبع الرخص- أنه إنما يفعل ما يفعل، ويترك ما يترك ديانةً لله، وقيامًا بواجب العبودية لهذا الرب العظيم، فكيف يرضى العبد أن يتعامل مع ربه بدين **شعاره الهوى**؟!

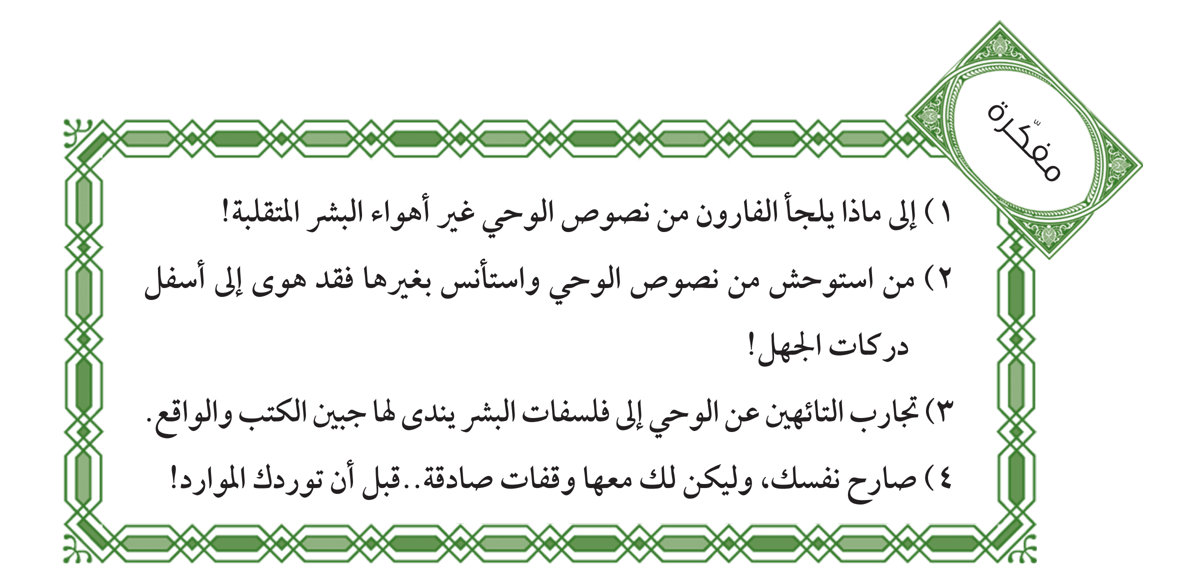





وقبل أن نختم الحديث عن هذه القاعدة العظيمة، يجب أن نتنبه لأمرين:

الأول: الحذر من تنزيل هذه القاعدة على المسائل الشرعية التي الخلاف فيها معتبر ومعروف عند أهل العلم.

الثاني: أن المقصود بالذم هنا، هو من اتبع هواه في الاستفتاء، بحيث يتنقل بين المفتين، فإن وافقت الفتيا ما في نفسه طبقها، وإلا بحث عن آخر حتى يجد من يفتيه، وهذا هو اتباع الهوى بعينه، نعوذ بالله من اتباع الهوى، ونسأله سبحانه وتعالى أن يجعل اتباع الحق رائدنا وغايتنا.



١) إلى ماذا يلجأ الفارون من نصوص الوحي غير أهواء البشر المتقلبة!

٢) من استوحش من نصوص الوحي واستأنس بغيرها فقد هوى إلى أسفل دركات الجهل!

٣) تجارب التائهين عن الوحي إلى فلسفات البشر يندى لها جبين الكتب والواقع.

٤) صارح نفسك، وليكن لك معها وقفات صادقة..قبل أن توردك الموارد!



القاعدة الخامسة عشر

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]

هذه قاعدة من القواعد القرآنية المحكمة، التي تبعث الأمل في نفوس أهل الإيمان، وتملأ قلوبهم ثقةً ويقينًا.

وهذه القاعدة القرآنية جاءت مرةً على لسان موسى عليه الصلاة والسلام وهو يبشر قومه الذين آمنوا به؛ بحسن العاقبة لهم في الدنيا قبل الآخرة، والتمكين في الأرض إن هم لازموا التقوى.

وجاءت هذه القاعدة بلفظ مقارب، في خطاب الله تعالى لنبيه محمد ﷺ في خواتيم سورة طه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

وجاءت هذه القاعدة -أيضًا- بعد انتهاء قصة قارون، في خواتيم سورة القصص، قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣].

---

(١) وردت هذه القاعدة في آيتين من القرآن: الأعراف: ١٢٨، والقصص: ٨٣.

ومن المعلوم أن العاقبة هنا لا تنحصر في الآخرة التي ضمن الله النجاة فيها للمتقين، كما في قوله ﷻ: ﴿وَٱلْأَخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾، بل هي عامة في الدنيا والآخرة، ولكن قبل أن نسأل: أين هذه القاعدة من واقعنا؟ فلنسأل: أين تحقيق التقوى على الوجه الصحيح؟! وإلا فوعد الله لا يتخلف!

إن أدنى تأمل لمجيء هذه الآيات -مع تنوع سياقاتها- ليوضح بجلاء اطراد هذه القاعدة، فقد أخبر بها ربنا ﷻ في قوله: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، وبعد قصة قارون قوله: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، وبشر بها موسى ونبينا عليهما الصلاة والسلام.

«وحقيقة العاقبة: أنها كل ما يعقب أمرًا، ويقع في آخره من خير وشر، إلا أنها غلب استعمالها في أمور الخير، فالمعنى: أن التقوى تجيء في نهايتها عواقب خير.

واللام - في قوله: ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾، و﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ للمِلك، تحقيقًا لإرادة الخير من العاقبة؛ لأن شأن لام الملك أن تدل على نوال الأمر المرغوب، وإنما يطرد ذلك في عاقبة خير الآخرة، وقد تكون العاقبة في خير الدنيا أيضًا للتقوى.

وجاءت هذه الجملة بهذا الأسلوب لتؤكد معنى العموم، أي: **لا تكون العاقبة إلا للتقوى،** فهذه الجملة أرسلت مجرى المثل»[(١)].

ما أحوجنا ونحن نشاهد ما نشاهد -إنْ على المستوى الفردي أو الجماعي- أن نتأمل هذه القاعدة!

ولنبدأ بالإشارة إلى المستوى الجماعي:

فإن أمة الإسلام تمر منذ قرون بحالة من الضعف والتفرق وتسلط الأعداء على كثير من أبنائها، وهذه حالٌ تجعل بعض الناس من المنتسبين للإسلام قد يبحث عن موطئ قدم خارج دائرة الإسلام؛ فيذهب غربًا أو شرقًا؛ بحثًا عن مبادئ أخرى،

(١) التحرير والتنوير: (٩/ ١٩٣) بتصرف يسير.




ومذاهب مختلفة، لا تَمُت إلى الإسلام بصلة، بسبب شعوره البائس بهزيمة داخلية! ولما تعانيه الأمة الإسلامية من تفرق وتشرذم! وفي الوقت ذاته: انبهاره بالتقدم المادي، وما يوجد في تلك البلاد من محاسن تتعلق بحقوق الإنسان، وغيرها من المجالات.

والمؤلم في أمثال هؤلاء: أنهم لم يروا من حضارة الشرق أو الغرب إلا الجانب الإيجابي والحسن، وعميت أبصارهم، أو تعاموا عن الجوانب المظلمة -وما أكثرها-! هذه الحضارة التي اعتنت بالجسد، وأهملت الروح، وعمرت الدنيا وخربت الآخرة، وسخّرت ما تملكه من أسباب مادية في التسلط على الشعوب المستضعفة، وفرض ثقافتها، وأجندتها على من تشاء!

وعلى سبيل المثال: فإن نظام الثورة الفرنسية الذي قرر مبادئ حقوق الإنسان والمساواة بين البشر -كما يزعم واضعوه- لم يمنعه من إبادة ثلث سكان جزيرة هاييتي؛ لأنهم تمردوا على العبودية! كما أن القائد الفرنسي المشهور نابليون -الذي أنجبته الثورة الفرنسية- جاء إلى بلاد مصر، ليحتلها ويقيم نظامًا استعماريًا فيها.

والأمثلة كثيرة لا يتسع المقام لسردها، فضلًا عن التفصيل فيها، ولكن لعل من المناسب أن نُذكّر بقضية انهيار النظام الاقتصادي الرأسمالي! الذي قام على مصادمة منهج الله العادل في شأن المال، فرأى أربابه صدق ما توعد الله به أكلة الربا من المحق، وفي كل يوم نسمع عن مليارات ضائعة، وشركات عالمية أفلست، ومئات من البنوك أُغلقت على مستوى العالم! حينها قال من قال: لا بد من العودة إلى المنهج الإسلامي في الاقتصاد! وصدق الله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، وصدق الله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.






ألا ما أحوج الدول الإسلامية، والجماعات الإسلامية -في بقاع الأرض- إلى أن يتدبروا هذه القاعدة جيدًا، وأن يتأملوا في العواقب التي جناها مخالفوا التقوى في الأنظمة والحكم والسلوك.

ومن تدبر مجيء قوله تعالى -على لسان موسى وهو يخاطب قومه المضطهدين عدة قرون-: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] عرف حاجة الدول والمجتمعات لتدبر هذه الآية جيدًا، وأن وعد الله لا يتخلف لمن اتقاه دولًا كانوا أو شعوبًا، وتأمل قول مَنْ عواقب الأمور كلها إليه ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

ومن أراد أن يعرف الآثار السيئة التي لقيها العالم حين بَعُد المسلمون عن دينهم، وخسارة العالم لعظيم مبادئ الإسلام؛ فليقرأ كتاب الشيخ أبي الحسن الندوي رحمه الله: (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)؟!

أما على المستوى الفردي، فإن الحديث فيها يحتاج إلى بسط أكثر، ولكن حسبنا في مقامنا هذا أن نشير إشارة مُذكّرة بأهمية هذه القاعدة في حياتنا اليومية:

فإن آية القصص: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ جاءت بعد قصة قارون الذي لم يصبر على شهوة المال!

وفي هذا إشارة إلى حاجة العبد -رجلًا كان أو امرأة- لتدبر هذه القاعدة، خصوصًا وهو يعيش في جو من المغريات والفتن والصوارف عن دين الله ﷻ؛ لتهوّن عليه الصبرَ عن الشهوات والملذات المحرمة، فكلما دعته نفسه إلى ما يخالف




التقوى، فليذكرها بحسن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة.

وكذلك الداعية إلى الله، من أحوج ما يكون إليها وهو يسير في طريق الدعوة الطويل، والمليء بالابتلاء بالخير أو بالشر، وخصوصًا إذا كان لا يجد معينًا ولا ناصرًا، بل قد يجد مناهضًا ومعاديًا!

يقول شيخنا العلامة ابن باز ﵀ بعد أن ذكر شيئًا مما تعرض له إمام الدعاة محمد ﷺ من أذى وابتلاء:

«فكيف يطمع أحد بعد ذلك أن يسلم؟ أو يقول: متى كنت متقيًا أو مؤمنًا فلا يصيبني شيء؟! ليس الأمر كذلك بل لابد من الامتحان، ومن صبر حَمِدَ العاقبة، كما قال الله ﷻ: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾، ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ فالعاقبة الحميدة لأهل التقوى، متى صبروا واحتسبوا وأخلصوا لله وجاهدوا أعداءه وجاهدوا هذه النفوس، فالعاقبة لهم في الدنيا والآخرة، كما قال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

فأنت -يا عبد الله- في أشد الحاجة إلى تقوى ربك ولزومها، والاستقامة عليها، ولو جرى ما جرى من الامتحان، ولو أصابك ما أصابك من الأذى أو الاستهزاء من أعداء الله، أو من الفسقة والمجرمين فلا تبالِ، واذكر الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، واذكر أتباعهم بإحسان؛ فقد أوذوا، واستهزئ بهم، وسخر بهم، ولكنهم صبروا؛ فكانت لهم العاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة، فأنت يا أخي كذلك اصبر وصابر»[1].

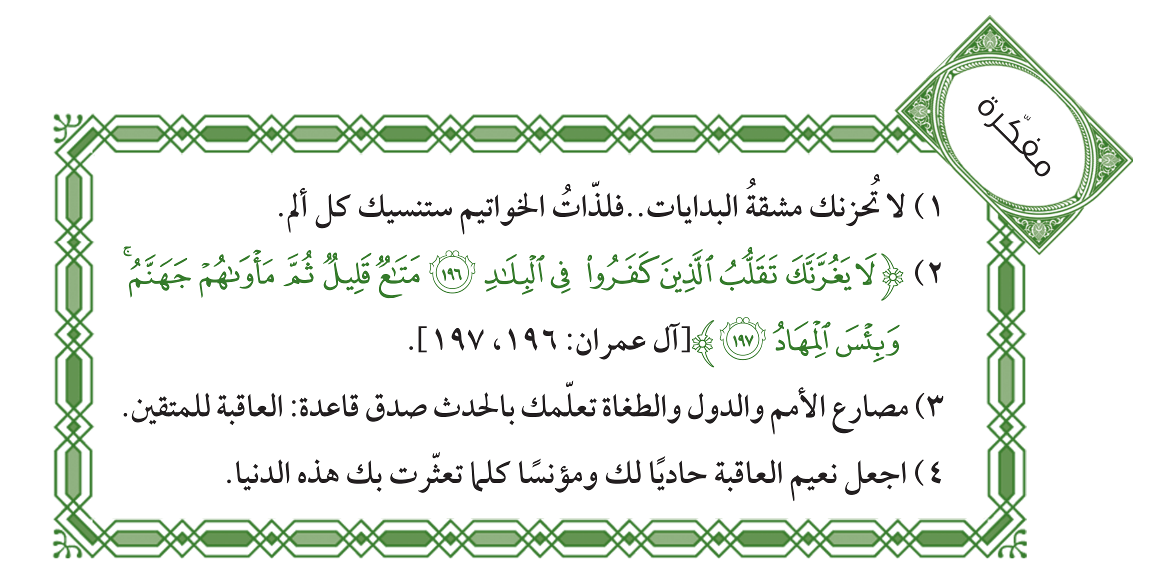
(١) مجموع فتاوى ابن باز: (٢/ ٢٨٩).






ومفهوم هذه القاعدة القرآنية المحكمة: أن كل من لم يكن تقيًا في أحواله، أو أفعاله، فلا عاقبة له حسنة، وإن أُمهل زمانًا، أو تُركَ دهرًا، وهذه سنة الله في خلقه، وقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية يستدل بهذه القاعدة القرآنية: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وبأمثالها -إبان هجوم التتار على بلاد الإسلام- وكان يقسم بالله أن التتار لن يُنصروا، بل سيخذلون وينكسرون، وكان مما قاله حينها: «واعلموا -أصلحكم الله- أن النصرة للمؤمنين، والعاقبة للمتقين، وأن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وهؤلاء القوم مقهورون مقموعون، والله سبحانه وتعالى ناصرنا عليهم، ومنتقم لنا منهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم؛ فأبشروا بنصر الله تعالى وبحسن عاقبته، **وهذا أمر قد تيقناه وتحققناه والحمد لله رب العالمين**»[1].

اللهم ارزقنا تقواك، واجعلنا من عبادك المخلصين.



مفكّرة

١) لا تُحزنك مشقةُ البدايات..فلذّاتُ الخواتيم ستنسيك كل ألم.

٢) ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾[آل عمران: ١٩٦، ١٩٧].

٣) مصارع الأمم والدول والطغاة تعلّمك بالحدث صدق قاعدة: العاقبة للمتقين.

٤) اجعل نعيم العاقبة حاديًا لك ومؤنسًا كلما تعثّرت بك هذه الدنيا.

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوى (٣/ ١٢٥)، و (٢٨ / ٤١٩).





القاعدة السادسة عشر

﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾[1]

هذه قاعدة قرآنية عظيمة، يحتاجها الإنسان في مقام التمييز بين الأقوال والأفعال، والسلوكيات والمقالات.

والخبيث: ما يُكره بسبب رداءته وخساسته، سواء كان شيئًا محسوسًا، أو شيئًا معنويًا، فالخبيث إذًا يتناول: كل قول باطلٍ ورديء في الاعتقاد، والكذب في المقال، والقبيح من الفعال، فكل خبيث: لا يحبه الله ولا يرضاه، بل مآله إلى جهنم، كما قال ﷻ: ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال:٣٧].

وإذا تبين معنى الخبيث ههنا؛ فإن الطيب بعكسه فيدخل فيه الواجب والمستحب والمباح -من الأقوال والأفعال والصحيح من المعتقدات- فدخل في هذه القاعدة كل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الواجبات والمستحبات والمباحات.

---

(١) المائدة: ١٠٠.

فلا يستوي الإيمان والكفر، ولا الطاعة والمعصية، ولا أهل الجنة وأهل النار، ولا الأعمال الخبيثة والأعمال الطيبة، ولا المال الحرام بالمال الحلال[1].

وهذه القاعدة القرآنية هي صدر الآية الكريمة: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ۚ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠]، والتي سيقت في معرض الحديث عن أنواع من المطاعم والمشارب والصيد، وتفصيل الحرام والحلال فيها.

ولا ريب أن الغرض من الآية ليس مجرد الإخبار بأن الخبيث لا يستوي هو والطيب، فذلك أمرٌ مركوز في الفِطَر، بل الغرض: الحث والترغيب في تتبع كل طيب من القول والعمل والاعتقاد والمكسب، والتنفير من كل خبيث من القول والعمل والاعتقاد والمكسب.

ولما كان في بعض النفوس ميلٌ إلى بعض الأقوال أو الأفعال أو المكاسب الخبيثة، وكان كثيرٌ من الناس يؤثر العاجل على الآجل، والفاني على الباقي؛ جاء التحذير من الخبيث بأسلوب عجيب يقطع الطريق على من قد يحتج بكثرة من يتناول هذا الخبيث، فقال ﷻ: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ وذلك أن في بعض الخبائث شيءٌ من اللذة الحسية أو المعنوية، كالحصول على مالٍ كثير لكن من طريق حرام، أو الوصول إلى اللذة الجسدية عن طريق الزنا، أو الخمر أو غيرهما من الملذات المحرمة، فهذه قد تغري الإنسان، وتعجبه، إلا أنه مع كثرة مقداره، ولذاذة متناوله، وقرب وجدانه،

(١) ينظر: مفردات الراغب (٢٧٢)، وتفسير ابن جزي والسعدي لهذه الآية.

سبب للحرمان من السعادات الباقية الأبدية السرمدية التي إليها الإشارة بقوله: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٤٦]، وإذا كان الأمر كذلك فالخبيث -ولو أعجبك كثرته- يمتنع أن يكون مساويًا للطيب الذي أعظمه: معرفة الله ومحبته، وطاعته، فتلك هي -والله- الحياة الطيبة التي وعد بها ﷻ من استقام على أمره، بأن يطيب عيشه في الدنيا والبرزخ والآخرة، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] هؤلاء هم الذين طابت أقوالهم وأفعالهم وحياتهم، فطاب مماتهم ورجوعهم إلى الله، كما قال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٢] نسأل الله الكريم المنان من فضله الواسع العظيم.

ولعظيم موقع هذه القاعدة وما دلّت عليه، فإن المتأمل للقرآن يجد عجبًا من كثرة التأكيد على العمل بما دلّت عليه هذه القاعدة! ومن ذلك:

١- التأكيد على ضرورة العناية بالمكاسب الطيبة، ولم يستثن الله أحدًا من عباده المؤمنين في الحث على هذا الأمر، بالإضافة إلى العمومات الآمرة بطيب المكسب، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨] إلا أن الله تعالى خص الرسل عليهم الصلاة والسلام -الذين كانوا أطيب الناس حسًا ومعنى- بخطاب خاص في هذه المسألة بالذات، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١].

وكلُّ هذا يؤكد ضرورة العناية بهذا الباب العظيم الذي هو طيب المكسب، ولقد كان سلفنا الصالح شديدي العناية بهذه المسألة، ولربما سافر أحدهم مئات الأميال، وتغرب عن وطنه، كل ذلك بحثًا عن لقمة طيبة حلال، حتى قال سفيان الثوري: إن طلب الحلال هو عمل الأبطال.

ولقد كان من أعظم أسباب العناية بطيب المكسب عند أسلافنا أمور، من أهمها:

أ- أن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا كما قال النبي ﷺ.

ب- ومنها: أن هذه المكاسب مما تنبت عليها الأجساد.

ولهذا فإن مما يُوصَى به: كثرة الصدقة كلما كثر المال، أو قويت فيه الشبهة؛ كما أوصى بذلك النبي ﷺ من يتعاطون التجارة، حيث يقول ﷺ - فيما رواه أهل السنن -: من حديث قيس بن أبي غرزة رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ -ونحن نسمى السماسرة- فقال: «**يا معشر التُّجَّار! إن الشيطان والإثم يحضران البيع فشوبوا بيعكم بالصدقة**» قال الترمذي: حديث حسن صحيح[1].

وإذا كان هذا شأن المكسب الطيب - فعلى الناصح لنفسه أن يجتهد في تحقيقه، والحذر من أي شيء يكدره، خصوصًا وقد اتسعت على الناس اليوم أنواع من المكاسب المحرمة فضلًا عن المختلطة والمشتبهة، كبعض الشركات الموجودة في أسواق الأسهم المحلية والعالمية.

---

(١) الترمذي ح (١٢٠٨).




٢- ومن هدايات هذه القاعدة القرآنية العظيمة: أنه لا يصح - أبدًا - أن نجعل الكثرة مقياسًا لطيب شيءٍ ما، وصحته وسلامته من المحاذير الشرعية، وهذا أمرٌ يصدق على الأقوال والأفعال والمعتقدات، بل يجب أن نحكم على الأشياء بكيفيتها وصفتها وبمدى موافقتها للشرع المطهر.

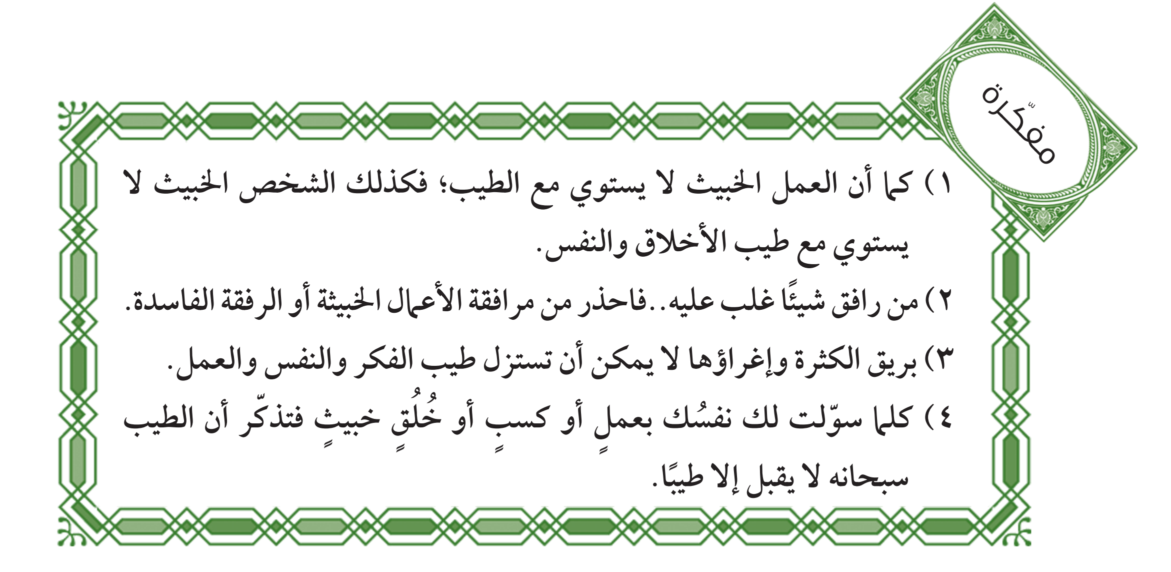
تأمل -مثلًا- في قلة أتباع الرسل وكثرة أعدائهم: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وهذا مما يؤكد على الداعية أهمية العناية بالمنهج وسلامته، وأن لا يكون ذلك على حساب كثرة الأتباع! وهذا موضعٌ لا يفقهه إلا من وفقه الله تعالى، ولا يصبر عليه إلا من أعانه الله وسدده؛ لأن في الكثرة فتنة، وفي القلة ابتلاء.

وإليك مثالًا ثالثًا يجلي لك معنى هذه القاعدة بوضوح، وهو أن تتأمل في كثرة المقالات والعقائد الباطلة وكيف أن المعتقد الحق هو شيء واحدٌ فقط، قال ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ووالله ما في الخبيث من لذة إلا وفي الطيّب مثلها وأحسن، مع أمْنٍ من سوء العاقبة في الدنيا والآخرة، والعاقل حين يتحرر من هواه، ويمتلئ قلبه من التقوى ومراقبة الله تعالى؛ فإنه لا يختار إلا الطيب، بل إن نفسه ستعاف الخبيث،

ولو كان ذلك على حساب فوات لذات، ولحوق مشقات؛ فينتهي الأمر إلى الفلاح في الدنيا والآخرة، مسليًّا نفسه بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

اللهم جعلنا من الذين طابت أقوالهم وأفعالهم، فطاب منقلبهم ومآلهم.



مفكّرة

١) كما أن العمل الخبيث لا يستوي مع الطيب؛ فكذلك الشخص الخبيث لا يستوي مع طيب الأخلاق والنفس.

٢) من رافق شيئًا غلب عليه..فاحذر من مرافقة الأعمال الخبيثة أو الرفقة الفاسدة.

٣) بريق الكثرة وإغراؤها لا يمكن أن تستزل طيب الفكر والنفس والعمل.

٤) كلما سوّلت لك نفسُك بعملٍ أو كسبٍ أو خُلُقٍ خبيثٍ فتذكّر أن الطيب سبحانه لا يقبل إلا طيبًا.



هذه قاعدة من القواعد القرآنية المحكمة في أبواب المعاملات، والعلاقات بين الناس.

وهذه القاعدة القرآنية جاءت في سياق قصة موسى مع صاحب مدين -في سورة القصص-، والذي كان عاجزًا عن طلب الماء فخرجت ابنتاه للسقيا، بيد أنهما تأخرتا انتظارًا لصدور الناس عن البئر، إلا أن مروءة موسى وشهامته حملته على أن يبادر -من غير أن ينتظر سؤالهما- بقضاء حاجتهما، والسقيِ لهما، فأعجبَ هذا الفعلُ الفتاتين، فذكرتاه لوالدهما المقعد عن العمل، فأرسل في طلبه، فلما جاء وحدثه بخبره، قالت له إحداهما -وهي العالمة بعجز والدها عن القيام بمهام الرجال-: ﴿يَـٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] فقولها: ﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ تعليل لطلبها، **فالقوة**: في العمل، **والأمانة**: في أدائه على الوجه المطلوب.

(١) القصص: ٢٦.

وهذا التنصيص على هذين الوصفين هو من وفور عقل هذه المرأة التي رأت اكتمال هاتين الصفتين في موسى، فإنهما من المطالب التي يتفق عليها عقلاء البشر في جميع الأمم والشرائع.

وقد أخذ العلماء -رحمهم الله- هذه الآية مأخذ القاعدة فيمن يلي أمرًا من الأمور، وأن الأحق به هو من توفرت فيه هاتان الصفتان، وكلما كانت المهمة والمسؤولية أعظم، كان التشدد في تحقق هاتين الصفتين أكثر وأكبر.

إن من تأمل القرآن الكريم وجد تلازمًا ظاهرًا وبيّنًا بين هاتين الصفتين (القوة والأمانة) في عدة مواضع، ومن ذلك:

* ما وصف الله به مبلِّغ الوحي والرسالات إلى الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام: جبريل، في قوله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾ [التكوير: ١٩- ٢١] فانظر كم وصفًا وصف الله به هذا الرسول الملكي الكريم! ومن ذلك وصفه بالقوة والأمانة، وهما من أعظم عناصر النجاح والكمال فيمن يؤدي عملًا من الأعمال.

* **الموضع الثاني هو** قول يوسف -عليه الصلاة والسلام- للملِك: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٥].

«أي: حفيظ للذي أتولاه، فلا يضيع منه شيء في غير محله، وضابط للداخل والخارج، عليم بكيفية التدبير والإعطاء والمنع، والتصرف في جميع أنواع التصرفات، وليس ذلك حرصًا من يوسف على الولاية، وإنما هو رغبة منه في النفع العام، وقد عرف من نفسه من الكفاءة والأمانة والحفظ ما لم يكونوا يعرفونه»[1].

(١) تفسير السعدي: (٤٠٠).




ولا يخفى أن إدارة أموال مجموعة من الأيتام تحتاج إلى هاتين الصفتين، فكيف بإدارة أموال تتعلق بجماعة؟! أم كيف بإدارة أموال دولة بأكملها؟! ولهذا أبرزَ يوسفُ -عليه الصلاة والسلام- هاتين الصفتين، ومدح نفسه بهما، لا لذات المدح، بل لأن الوضع الاقتصادي في مصر آنذاك يقتضي مبادرة في ضبط إدارة أموالها، خصوصًا وقد كانت مقبلة -بحسب الرؤيا- على سنين عجاف مجدبات، تحتاج إلى حكمة وتعقل في الصرف.

❊ **أما الموضع الثالث فهو:**

ما جاء في قصة سليمان -عليه الصلاة والسلام-، وهو يعرض على من كان عنده أمرَ إحضار عرش بلقيس ملكة سبأ: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل: ٣٨- ٣٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله معلقًا على هذه المواضع الثلاثة بكلام نفيس، أنقل منه ما يناسب المقام:

«وينبغي أن يعرف الأصلح في كل منصب؛ فإن الولاية لها ركنان: القوة والأمانة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾... **والقوة في كل ولاية بحسبها**: **فالقوة في إمارة الحرب** ترجع إلى شجاعة القلب وإلى الخبرة بالحروب والمخادعة فيها، فإن الحرب خَدْعَةٌ، وإلى القدرة على أنواع القتال: من رمي وطعن وضرب وركوب وكر وفر... **والقوة في الحكم بين الناس** ترجع إلى العلم بالعدل الذي دل عليه الكتاب والسنة، وإلى القدرة على تنفيذ الأحكام.



والأمانة ترجع إلى خشية الله، وألا يشتري بآياته ثمنًا قليلًا، وتركِ خشية الناس، وهذه الخصال الثلاث التي اتخذها الله على كل من حَكم على الناس في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًاۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]» إلى أن قال:

«اجتماع القوة والأمانة في الناس قليل، ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: اللهم أشكوا إليك جلد الفاجر وعجز الثقة، فالواجب في كل ولاية الأصلح بحسبها، فإذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة، والآخر أعظم قوةً، قدم أنفعهما لتلك الولاية، وأقلهما ضررًا فيها، فتقدم في إمارة الحروب الرجل القوي الشجاع وإن كان فيه فجور، على الرجل الضعيف العاجز وإن كان أمينًا، كما سئل الإمام أحمد: عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو، وأحدهما قوي فاجر، والآخر صالح ضعيف مع أيهما يُغزى؟ فقال: أما الفاجر القوي فقوته للمسلمين، وفجوره على نفسه، وأما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين، فيغزى مع القوي الفاجر...».

ثم قال رحمه الله مبينًا منهج النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الباب:

«ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يستعمل الرجل لمصلحةٍ مع أنه قد كان يكون مع الأمير من هو أفضل منه في العلم والإيمان».

ثم لخص كلامه الطويل في تعليقه على هذه الآية بقوله: «**والمهم -في هذا الباب-** معرفةُ الأصلح، وذلك إنما يتم بمعرفة مقصود الولاية، ومعرفة طريق المقصود، فإذا عُرِفَتْ المقاصد والوسائل تَمَّ الأمر»[1].

---

(١) ينظر: السياسة الشرعية - مع تعليق شيخنا العثيمين عليها ص (٤٢-٦٣) باختصار وتصرف.

وكان رحمه الله قد قال كلمة تكتب بماء الذهب، وهي:

«أن المؤدي للأمانة -مع مخالفة هواه- يثبته الله، فيحفظه في أهله وماله بعده، والمطيع لهواه يعاقبه الله بنقيض قصده، فيذل أهله، ويذهب ماله، وفي ذلك الحكاية المشهورة، أن بعض خلفاء بني العباس سأل بعض العلماء أن يحدثه عما أدرك؟ فقال: أدركت عمر بن عبد العزيز، فقيل له: يا أمير المؤمنين أقفرتْ أفواه بنيك من هذا المال، وتركتهم فقراء لا شيء لهم -وكان في مرض موته- فقال: أدخلوهم علي، فأدخلوهم، وهم بضعةَ عشر ذكرًا، ليس فيهم بالغ، فلما رآهم ذرفت عيناه، ثم قال: يا بَنَيّ! والله ما منعتكم حقًا هو لكم، ولم أكن بالذي آخذ أموال الناس فأدفعها إليكم، وإنما أنتم أحد رجلين: إما صالح، فالله يتولى الصالحين، وإما غير صالح، فلا أترك له ما يستعين به على معصية الله، قوموا عني!

قال هذا العالم -الذي يحكي هذه القصة-: فلقد رأيت بعض بنيه، حمل على مائة فرس في سبيل الله، يعني أعطاها لمن يغزو عليها.

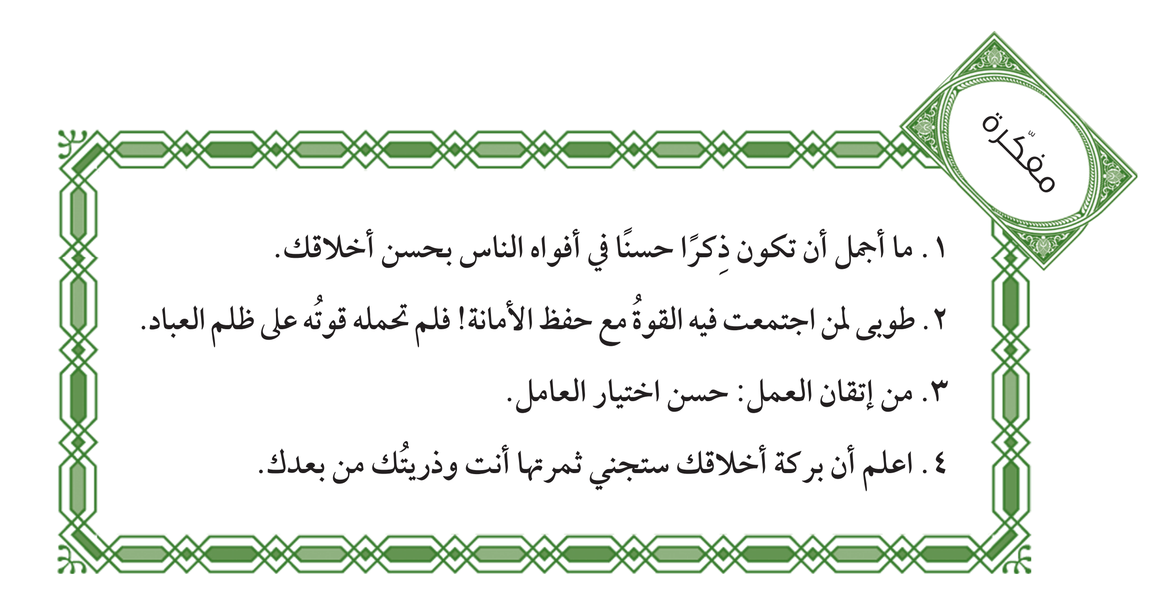
قلت (والكلام لابن تيمية): هذا وقد كان خليفة المسلمين، من أقصى المشرق بلاد الترك، إلى أقصى المغرب، بلاد الأندلس وغيرها، ومن جزيرة قبرص، وثغور الشام والعواصم، إلى أقصى اليمن، وإنما أخذ كل واحدٍ من أولاده، من تركته شيئًا يسيرًا، يقال: أقل من عشرين درهمًا -! **قال -أي هذا العالم الذي يحدث بهذه القصة ويعظ ذلك الخليفة العباسي-:** وحضرتُ بعض الخلفاء، وقد اقتسم تركتَه بنوه، فأخذ كلُّ واحدٍ منهم ستّمائة ألف دينار، ولقد رأيتُ بعضهم، يتكفف الناس!!»[1].

(١) يتكفف الناس: أي يسألهم بكفه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وفي هذا الباب من الحكايات والوقائع المشاهدة في الزمان والمسموعة عما قبله، ما فيه عبرة لكل ذي لب!» ا.هـ[1].

ومن أراد أن يتوسع في فهم معاني هذه القاعدة القرآنية العظيمة، فليراجع ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «السياسية الشرعية في إصلاح الراعي والرعية».

اللهم ارزقنا فهمَ كتابك والعمل به، واجعلنا ممن يقوم بحق ما ولاه الله عليه.



١. ما أجمل أن تكون ذِكرًا حسنًا في أفواه الناس بحسن أخلاقك.

٢. طوبى لمن اجتمعت فيه القوةُ مع حفظ الأمانة! فلم تحمله قوتُه على ظلم العباد.

٣. من إتقان العمل: حسن اختيار العامل.

٤. اعلم أن بركة أخلاقك ستجني ثمرتها أنت وذريتُك من بعدك.

---

(١) ينظر: السياسة الشرعية – مع تعليق شيخنا العثيمين عليها – ص: (٢٩-٣١)، وسيرة عمر بن عبد العزيز: (٣٣٨).



تأتي هذه القاعدة القرآنية المحكمة لتبين سنة من سنن الله تعالى في تعامل الخلق مع بعضهم، وقد جاءت هذه القاعدة القرآنية في سياق آيات في سورة فاطر، يحسن ذكرها ليتضح معناها، يقول تعالى عن طائفة من المعاندين[2]: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٢ - ٤٣].

ومعنى هذه القاعدة باختصار:

أن هؤلاء الكفار المعاندين أقسموا «بالله أشد الأَيمان: لئن جاءهم رسول من عند الله يخوِّفهم عقاب الله ليكونُنَّ أكثر استقامة واتباعًا للحق من اليهود والنصارى وغيرهم، فلما جاءهم محمد ﷺ ما زادهم ذلك إلا بُعْدًا عن الحق ونفورًا منه، **وليس إقسامهم** لقَصْد حسن وطلبًا للحق، وإنما هو استكبارٌ في الأرض على الخلق، يريدون به المكر السيِّئ، والخداع والباطل، **ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله**، فهل ينتظر المستكبرون الماكرون إلا العذاب الذي نزل بأمثالهم الذين سبقوهم،

(١) فاطر: ٤٣ .

(٢) ينظر في بيان صفاتهم: التحرير والتنوير (١٢/ ٧٣).

فلن تجد لطريقة الله تبديلًا ولا تحويلًا فلا يستطيع أحد أن يُبَدِّل، ولا أن يُحَوِّل العذاب عن نفسه أو غيره»[1].

وهذا المعنى الذي قررته هذه القاعدة، جاء معناه في آيات أخر من كتاب الله تعالى، كقوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم﴾، وقولِه تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ بل قد قرر الله تعالى أن هذا الأسلوب -وهو المكر- إنما هو منهجٌ من مناهج أعداء الرسل مع الأنبياء والرسل، فقال ﷻ: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٤٢]، وقال ﷻ: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

وأما الأمثلة الفردية التي تبين معاني هذه القاعدة، فكثيرة في كتاب الله تعالى، لكن حسبنا أن نشير إلى بعضها، فمن ذلك:

١- ما قصه الله تعالى عن مكر إخوة يوسف بأخيهم، فماذا كانت العاقبة؟ يقول تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢] صحيح أن إخوته تابوا، لكن بعد أن آذوا أباهم وأخاهم بأنواع من الأذى، فعاد مكرهم على غير مرادهم، وفاز بالعاقبة الحسنة، والمآل الحميد من صبر وعفا وحلَم.

٢- قوله الله تعالى عمن أرادوا كيدًا بنبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]!

٣- ولما تحايل المشركون بأنواع الحيل لأذية نبينا ﷺ قال الله عنهم: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، فكانت العاقبة له عليه الصلاة والسلام.

(١) التفسير الميسر (تفسير المجمع).




وأما في السُنة، وفي التاريخ فكثيرٌ جدًّا، ومن قرأ التاريخ قراءة المتدبر المتأمل؛ وجد من ذلك عِبرًا، وأدرك معنى هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾.

ولهذا لما كان المكر برسول الله ﷺ كثيرًا، والكيدُ له عظيمًا؛ سلاه الله بآية عظيمة، تبعث على الثقة والطمأنينة، والأمل والراحة، ليس له ﷺ وحده، بل لكل داعية يسير على نهجه ممن قد يشعر بكيد الكائدين ومكر الماكرين، فقال ﷻ: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٧ - ١٢٨].

«فالله حافظه من المكر والكيد، لا يدعه للماكرين الكائدين وهو مخلص في دعوته، لا يبتغي من ورائها شيئًا لنفسه، ولقد يقع به الأذى لامتحان صبره، ويبطئ عليه النصر لابتلاء ثقته بربه، ولكن العاقبة مظنونة ومعروفة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ ومن كان الله معه فلا عليه ممن يكيدون وممن يمكرون»(١)، والمهم أن يحفظ سياج التقوى، ولا يقطع إحسانه إلى الخلق، ثم ليبشر بعد ذلك ببطلان كيد الماكرين.

ولعلك تلاحظ في هذه القاعدة القرآنية: أن المكر أضيف إلى السوء ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، وهذا يوضح أن المكر من حيث هو لا يُذم ولا يُمدح إلا بالنظر في عاقبته، فإن كان المكرُ لغاية صحيحة فهو ممدوح، وإلا فلا.

ومن بلاغة البيان القرآني: التعبير بالحَيق مع كلمة المكر، في قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ﴾ فالعرب تقول: حاق به المكروه يحيق به حيقًا، إذا نزل به وأحاط به، **ولا يطلق إلا على إحاطة المكروه خاصة**، فلا تقول: حاق به الخير، بمعنى: أحاط به(٢).

---

(١) في ظلال القرآن: (٤/ ٤٩٩).

(٢) ينظر: أضواء البيان (٤/ ١٥٣).



ولعلك تتأمل في الحكمة من اتباع هذه القاعدة القرآنية بقوله ﷻ: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ ليتبين أن هذه القاعدة القرآنية مطردة، وفي ذلك من التحذير من مكر السوء ما فيه.

وإذا تقرر أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ فإنه يدخل في هذه الآية كل مكر سيء، يقول العلامة ابن عاشور مبينًا علة اطراد وثبات هذه القاعدة ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾: «لأن أمثال هذه المعاملات الضارة تؤول إلى ارتفاع ثقة الناس بعضهم ببعض، والله بنى نظام هذا العالم على تعاون الناس بعضهم مع بعض؛ لأن الإنسان مدني بالطبع، فإذا لم يأمن أفراد الإنسان بعضهم بعضًا تنكر بعضهم لبعض، وتبادروا الإضرار والإهلاك؛ ليفوز كل واحد بكيد الآخر قبل أن يقع فيه؛ فيفضي ذلك إلى فساد كبير في العالم، والله لا يحب الفساد، ولا ضر عبيده إلا حيث تأذن شرائعه بشيء.

وكم في هذا العالم من نواميس مغفول عنها، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾، وفي كتاب ابن المبارك في «الزهد» بسنده عن الزهري بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لا تمكر، ولا تُعِن ماكرًا؛ فإن الله يقول: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾».

ومن كلام العرب: من حفر لأخيه جبًا، وقع فيه منكبًا!

فكم انهالت من خلال هذه الآية من آداب عمرانية، ومعجزات قرآنية، ومعجزات نبوية خفية»[(١)].

وإذا أردنا أن ننظر في آثار هذه القاعدة القرآنية على أهلها في الدنيا والآخرة، فلنتأمل هذه القصص التي ذكرها ربنا في كتابه عن أهل المكر بأوليائه والدعاة إلى سبيله، فبالإضافة إلى ما سبق ذكره عن جملة من الأنبياء، نجد أمثلة أخرى لأتباعهم، نجاهم الله فيها من مكر الأعداء، ومن ذلك:

(١) التحرير والتنوير: (٢٢/ ٣٣٥-٣٣٦).

- فرعون! كم كاد لبني إسرائيل لمّا آمنوا به! ومن جملتهم ذلك الرجل الذي عرف بـ «مؤمن آل فرعون» الذي قصّ الله خبره في سورة غافر! تأمل قوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّاۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥ - ٤٦] فنجى الله المؤمن، وأما فرعون وجنوده فهم الآن - بل منذ ماتوا - وهم يعذبون، وإلى يوم القيامة.

- وهذا الإمام البخاري رحمه الله -صاحب «الصحيح»-، كان كثير من أصحابه يقولون له: إن بعض الناس يقع فيك! فيقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء ٧٦]، ويتلو أيضًا: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]، فقال له أحد أصحابه: كيف لا تدعو الله على هؤلاء الذين يظلمونك ويتناولونك ويبهتونك؟!

فقال: «قال النبي ﷺ: «اصبروا حتى تلقوني على الحوض»[١]، وقال ﷺ: «من دعا على ظالمه، فقد انتصر»[٢]»[٣].

- **وقد ذكر ابن القيم** رحمه الله أمثلةً تطبيقية وعملية من واقع الناس لهذه القاعدة في سياق حديثه عن المتحايلين على الأحكام الشرعية، كالمتحايلين على أكل الربا ببعض المعاملات، أو يحتالون على بعض الأنكحة، وأمثال هؤلاء، فقال:

«فالمحتال بالباطل مُعَاملٌ بنقيض قصده شرعًا وقَدَرًا، **وقد شاهد الناس عيانا أنه من عاش بالمكر مات بالفقر**؛ ولهذا عاقب الله عز وجل من احتال على إسقاط نصيب المساكين وقت الجداد بحرمانهم الثمرة كلها[٤]، وعاقب من احتال على الصيد المحرم بأن مسخهم قردة وخنازير،

(١) البخاري ح (٣٥٨١)، ومسلم ح (١٠٦١).

(٢) الترمذي (٥/ ٥٥٤)، ولفظه: «من دعا على من ظلمه...»، قال الترمذي: هذا حديث غريب.

(٣) سير أعلام النبلاء: (٢٣/ ٤٥٥).

(٤) يشير بذلك إلى قصة أصحاب الجنة في سورة القلم.

وعاقب من احتال على أكل أموال الناس بالربا بأن يمحق ماله، كما قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ فلا بد أن يُمحق مال المرابي ولو بلغ ما بلغ، وأصل هذا: أن الله سبحانه جعل عقوبات أصحاب الجرائم بضد ما قصدوا له بتلك الجرائم،... وهذا بابٌ واسعٌ جدًا عظيمُ النفع، فمن تدبره يجده متضمنًا لمعاقبة الرب سبحانه من خرج عن طاعته؛ بأن يعكس عليه مقصوده شرعًا وقدرًا، دنيًا وأخرى، وقد اطردت سنته الكونية سبحانه في عباده بأن: **من مكر بالباطل مُكر به، ومن احتال احتيل عليه، ومن خادع غيره خُدِعَ**، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، فلا تجد ماكرًا إلا وهو ممكورٌ به، ولا مخادعًا إلا وهو مخدوع ولا محتالا إلا وهو محتال عليه»[1].

مفكّرة

١) الماكرون رفضوا إلا أن يلبسوا وجوهًا غير التي ألبسهم الله!

٢) تحريم المكر السيء هو تشريع إسلامي يهدف لبناء مجتمع تسوده الرحمة والصدق.

٣) لو نظر الماكرون في قصص عواقب أهل المكر من قبلهم؛ لانتهوا عن مكرهم إن كان في قلوبهم حياة.

٤) الماكر قد يكون رئيسًا أو مرؤسًا، أو مديرًا أو موظفًا، أو زوجًا أو زوجة، أو مدرسًا أو طالبًا..لكن العاقبة المؤلمة واحدة!

٥) إذا جلب لك المكرُ المالَ أو المتعة..فلن يستطيع أبدًا أن يدفع عنك عقوبتَه!

(١) إغاثة اللهفان: (١/ ٣٥٨).



هذه قاعدة من القواعد المحكمة في أبواب التعامل بين الخلق، الذين لا تخلو حياة كثير منهم من بغي وعدوان، سواء على النفس أو على ما دونها.

وهذه **القاعدة القرآنية** العظيمة جاءت بعد قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ثم قال تعالى -مبينًا هذه القاعدة العظيمة في باب الجنايات-: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]، ولنا مع هذه **القاعدة القرآنية** المحكمة وقفات:

الوقفة الأولى:

إن من تأمل في واقع بلاد الدنيا عمومًا -مسلمها وكافرها- فسيجد قلة القتل في البلاد التي يُقتلُ فيها القاتل -كما أشار إلى ذلك العلامة الشنقيطي، وعلل ذلك بقوله-: «لأن القصاص رادع عن جريمة القتل؛ كما ذكره الله في الآية المذكورة آنفًا، وما يزعمه أعداء الإسلام من أن القصاص غير مطابق للحكمة؛

(١) البقرة: ١٧٩ .

لأن فيه إقلال عدد المجتمع بقتل إنسان ثان بعد أن مات الأول، وأنه ينبغي أن يعاقب بغير القتل فيحبس، وقد يولد له في الحبس فيزيد المجتمع **كله كلامٌ ساقط،** عارٍ من الحكمة؛ لأن الحبس لا يردع الناس عن القتل، فإذا لم تكن العقوبة رادعةً فإن السفهاء يكثر منهم القتل، فيتضاعف نقص المجتمع بكثرة القتل»[1].

الوقفة الثانية:

مع قوله ﷻ -في هذه **القاعدة القرآنية** المحكمة- ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾:

ذلك أن «الحياة أعز شيء على الإنسان في الجبلة، فلا تعادل عقوبة القتل في الردع والانزجار، ومن حكمة ذلك: تطمين أولياء القتلى بأن القضاء ينتقم لهم ممن اعتدى على قتيلهم، قال تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء:٣٣] أي: لئلا يتصدى أولياء القتيل للانتقام من قاتل مولاهم بأنفسهم؛ لأن ذلك يفضي إلى صورة الحرب بين رهطين فيكثر فيه إتلاف الأنفس»[2].

الوقفة الثالثة:

مع تنكير كلمة (حياة) في هذه **القاعدة القرآنية:** ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾:

فهذا التنكير «للتعظيم، أي: **في القصاص حياة لنفوسكم؛** فإن فيه ارتداعُ الناس عن قتل النفوس، فلو أهمل حكم القصاص لما ارتدع الناس؛ لأن أشد ما تتوقاه نفوس البشر من الحوادث هو الموت، فلو علم القاتل أنه يسلم من الموت لأقدم على القتل مستخفًا بالعقوبات كما قال سعد بن ناشب لما أصاب دمًا وهربَ فعاقبه أمير البصرة بهدم داره بها:

---

(١) أضواء البيان: (٣/ ٣٢).

(٢) التحرير والتنوير: (٢/ ١٩٢).




سأغسلُ عني العار بالسيف جالبًا ... علـيَّ قـضاء الله مـا كان جالبـا

وأذهل عن داري، وأجعل هدمها ... لعِـرضيَ مـن باقـي المذمـة حاجبـا

ويصغر في عيني تلادي إذا انثنـت ... يميني بـإدراك الـذي كنـتُ طالبا

ولو ترك الأمر للأخذ بالثأر -كما كان عليه في الجاهلية- لأفرطوا في القتل وتسلسل الأمر كما تقدم، فكان في مشروعية القصاص حياة عظيمة من الجانبين»[(١)].

الوقفة الرابعة:

هي مع ختم هذه القاعدة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ففي ذلك «تنبيه على التأمل في حكمة القصاص؛ ففي توجيه النداء إلى أصحاب العقول إشارة إلى أن حكمة القصاص لا يدركها إلا أهل النظر الصحيح؛ إذ هو في بادئ الرأي كأنه عقوبة بمثل الجناية؛ لأن في القصاص رزية ثانية لكنه عند التأمل هو حياة لا رزية؛ للوجهين المتقدمين.

ثم قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ إكمالا للعلة، أي لأجل أن تتقوا، فلا تتجاوزوا في أخذ الثأر حد العدل والإنصاف»[(٢)].

الوقفة الخامسة:

أن هذه القاعدة العظيمة فاقت ما كان ساريًا مسرى المثل عند بعض المتأخرين[(٣)]، وهو قولهم: (القتل أنفى للقتل).

---

(١) التحرير والتنوير: (٢/ ٢٠٠).

(٢) التحرير والتنوير: (٢/ ٢٠٠) بتصرف واختصار.

(٣) ينظر في بيان كون هذا المثل منقولاً ومترجمًا وليس عربيًا أصالة: وحي القلم (٣/ ٤٠٧ - ٤١٠).



وقد اشتغل جمع من البلاغيّين في تحليل هذه **القاعدة القرآنية**: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ للبحث عن مواطن إيجازها المتقَن، ومقارنتِها بالمثل المشهور الذي تكرر وتردد على ألسنة كثير من الأدباء، والكُتَّاب والصحفيين، ذلكم هو قول العرب: (القتلُ أنفى للقتل) فزعم بعضهم أنه أفصح من هذه القاعدة التي نحن بصدد الحديث عنها ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾، وقبل بيان المقارنة يحسن إيراد كلمة محررة ومتينة لأبي بكرٍ الباقلاني؛ حيث يقول كلامًا، هو كالقاعدة بين حال من يريد أن يقارن بين كلام الله وكلام خلقه، يقول: «فإن اشتبه على متأدب أو متشاعر أو ناشئ أو مُرْمَدٍ[1] فصاحة القرآن، وموقع بلاغته وعجيب براعته **فما عليك منه!** إنما يخبر عن نفسه، ويدل على عجزه، ويبين عن جهله، ويصرح بسخافة فهمه وركاكة عقله»![2].

وبالمقارنة بين ما نحن بصدده من هذه **القاعدة القرآنية**: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ وبين ذلك المثل: «الْقَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتل» ظهر ما يلي:

(١) إنّ حروف **القاعدة القرآنية**: ﴿فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ أقل عددًا من عبارة العرب: «الْقَتْلُ أَنْفَى للقتل».

(٢) القاعدة القرآنية ذكرت «القِصَاصَ» ولم تقل القتل، فشملت كلَّ ما تُقَابَلُ به الجناية على الأنفس فما دون الأنفس من عقوبة مُماثلة، وحدّدَتِ الأمر بأنْ يكون عقوبة وجزاء لخطأ سابق، لا مجرد عدوان، وهذا عين العدل.

أمّا عبارة العرب فقد ذكرت القتل فقط، ولم تقيّده بأن يكون عقوبة، ولم تُشِرْ إلى مبدأ العدل، فهي قاصرة وناقصة.

---

(١) أي من في عينيه رمدٌ، إشارة إلى عماه عن إبصار الحقيقة.

(٢) نقلها الرافعي في: وحي القلم (٣/ ٣٩٩)، وينظر: أعلام النبوة للماوردي (١٠٠).




(٣) القاعدة القرآنية ﴿فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ نصَّتْ على ثبوت الحياة بتقرير حكم القصاص، أما المثل العربي فذكر نَفْي القتل، وهو لا يَدُلُّ على المعنى الذي يَدُلُّ عليه لفظ «حياة».

(٤) القاعدة القرآنية خالية من عيب التكرار، بخلاف المثل العربي الذي تكررت فيه كلمة القتل مرتين في جملة قصيرة.

(٥) القاعدة القرآنية صريحة في دلالتها على معانيها، مستغنية بكلماتها عن تقدير محذوفات، بخلاف عبارة «العرب» فهي تحتاج إلى عدّة تقديراتٍ حتى يَستقيم معناها، إذْ لا بُدَّ فيها من ثلاثة تقديرات، وهي كما يلي: «القتلُ» قصَاصًا «أنْفَى» من تركه «لِلقَتْلِ» عمْدًا وعدوانًا.

(٦) في القاعدة القرآنية سَلاَسة؛ لاشتمالها على حروف متلائمة سهلة التتابع في النطق، أمّا العبارة «العربية» ففيها تكرير حرف القاف المتحرِّك بين ساكنين، وفي هذا ثقل على الناطق[1].

وبعد: فإن لهذه المقارنة البلاغية الموجزة قصةً أختم بها حديثي في هذه القاعدة القرآنية، وهي أن العلامة محمود شاكر رحمه الله قرأ مقالةً لأحد الصحفيين يقرر فيها أن عبارة «القتل أنفى للقتل» أبلغ من هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾، فضاق صدر الشيخ محمود شاكر جدًّا، ووصف هذه الكلمة بأنها كافرة، فكتب -وقتها- إلى الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي رحمه الله يستحثه على الجواب عن هذه الدعوى المزيفة، يقول الشيخ محمود شاكر رحمه الله:

(١) ينظر في بيان أوجه إعجاز هذه الآية الكريمة: وحي القلم (٣/ ٤٠٢ - ٤٠٩) للرافعي، والبلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها (٤٩٢) للميداني.






«غلى الدم في رأسي حين رأيت الكاتب يلج في تفضيل قول العرب: «القتل أنفى للقتل» على قول الله تعالى في كتابه الحكيم: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، فذكرت هذه الآية القائلة: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]... ففي عنقك أمانة المسلمين جميعًا لتكتبن في الرد على هذه الكلمة الكافرة؛ لإظهار وجه الإعجاز في الآية الكريمة، وأين يكون موقع الكلمة الجاهلية منها؛ فإن هذه زندقة إن تركت تأخذ مأخذها في الناس؛ جعلتْ البر فاجرًا، وزادتْ الفاجر فجورًا، هم ذئاب الزندقة الأدبية التي جعلت همها أن تلغ ولوغها في البيان القرآني...» إلخ كلامه.

فلما بلغ هذا الكلامُ الأديبَ الرافعي غضب غضبة مُضَرية، وانبرى للرد على هذه الكلمة الآثمة في بضع صفحات من كتابه الرائع «وحي القلم»، لخصنا شيئًا منها فيما ذكرته آنفًا، فجزاه الله خيرًا، وغفر له، وإلى هنا ينتهي ما أردتُ بيانه حول هذه القاعدة القرآنية الكريمة: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾.



مفكّرة

١) القصاص ما هو إلا جوهرة في عِقد الشريعة التي جعلها الله حياة للبشرية.

٢) بالقصاص توأد حربٌ طويلة المدى بين طائفتي القاتل والقتيل.

٣) القرآن كلام الله؛ فقد جمع البلاغة كلها، ومن درس هذه القاعدة القرآنية أبهرته بلاغتُها.

٤) لا يزال عقلك في حياة مستمرة ما جعلتَه تبعًا لخالقه الذي شرّع هذا الدين.



القاعدة العشرون

﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍ﴾[1]

هذه قاعدة من القواعد المحكمة في أبواب العدل والجزاء، ولتدبرها أثرٌ في فهم المؤمن لما يراه أو يقرأه في كتب التاريخ، أو الواقع من تقلبات الزمن والدهر بأهله، سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات، إنها القاعدة القرآنية التي دل عليها قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

ولعل إيراد الآية الكاملة التي ذكرت فيها هذه القاعدة مما يجلي لنا أبرز صور الإهانة التي تنزل الإنسان من عليائه، يقول ﷻ: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨].

فهل أدركتَ معي -وأنت تتلو هذه الآية الكريمة- أن أعلى وأبهى وأجلى صور كرامة العبد أن يوحّد ربه، وأن يفرده بالعبادة، وأن يترجم ذلك بالسجود لربه،

---

(١) الحج: ١٨.



والتذللِ بين يدي مولاه، وخالقِه ورازقه، ومَنْ أمرُ سعادتِه ونجاته وفلاحِه بيده ﷻ، يفعلُ ذلك اعترافًا بحق الله، ورجاءً لفضله، وخوفًا من عقابه؟!

وهل أدركتَ أيضًا أن غاية الهوان والذلّ، والسفول والضعة أن يستنكف العبد عن السجود لربه، أو يشرك مع خالقه إلهًا آخر؟! وتكون الجبال الصم، والشجر، والدواب البُهمُ، خيرًا منه حين سجدتْ لخالقها ومعبودها الحق؟!

إذا تبيّن هذا فإن هذه القاعدة القرآنية الكريمة: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ جاءت في سياق بيان من هم الذين يستحقون العذاب؟ إنهم الذين أذلوا أنفسهم بالإشراك بربهم، فأذلهم الله بالعذاب، كما قال ﷻ: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ فلا يجدون حينها من يكرمهم بالنصر، أو بالشفاعة!

وتأمل كيف جاء التعبير عن هذا العذاب بقوله: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ﴾ ولم يأت بـ(ومن يعذب الله) وذلك -والله أعلم- «لأن الإهانة إذلالٌ وتحقيرٌ وخزيٌ، وذلك قدرٌ زائدٌ على ألم العذاب، فقد يعذب الرجل الكريم ولا يهان»[(١)].

ثم تأمل كيف جاء التعبير عن ضد ذلك بقوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾؛ فإن «الكرم: لفظ جامع للمحاسن والمحامد، لا يراد به مجرد الإعطاء، بل الإعطاء من تمام معناه؛ فإن الإحسان إلى الغير تمام المحاسن، والكرم كثرة الخير ويسرته،... والشيء الحسن المحمود يوصف بالكرم، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٧]، قال ابن قتيبة: من كل جنس حسن،

(١) مجموع الفتاوى: (١٥/ ٣٦٧).




والقرآن قد دل على أن الناس فيهم كريم على الله يكرمه، وفيهم من يهينه، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج:١٨]»[1].

وإذا كان الشرك بالله هو أعظم صورةٍ يذل بها العبد نفسه، ويدسها في دركات الهوان، فإن ثمةَ صورًا أخرى -وإن كانت دون الشرك- إلا أن أثرها في هوان العبد وذله ظاهر بيّن: إنه ذل المعصية، وهوان العبد بسببها.

يقول ابن القيم موضحًا شيئًا من معاني هذه القاعدة القرآنية المحكمة، وهو يتحدث عن شيء من شؤم المعاصي، وآثارها السيئة:

«ومنها: أن المعصية سببٌ لهوان العبد على ربه وسقوطه من عينه، قال الحسن البصري: هانوا عليه فعصوه ولو عزوا عليه لعصمهم!

وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾! وإنْ عَظّمهم الناس في الظاهر لحاجتهم إليهم، أو خوفًا من شرهم، فهم في قلوبهم أحقر شيء وأهونه...» إلى أن قال -وهو يتحدث عن بعض عقوبات المعاصي-:

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٦/ ٢٩٥).



«أن يرفع الله ﷻ مهابته من قلوب الخلق، ويهون عليهم، ويستخفون به، كما هان عليه أمر الله، واستخف به، فعلى قدر محبة العبد لله يحبه الناس، وعلى قدر خوفه من الله يخافه الناس، وعلى قدر تعظيمه الله وحرماته يعظم الناس حرماته**! وكيف ينتهك** عبدٌ حرمات الله ويطمع أن لا ينهك الناس حرماته؟! أم كيف يهون عليه حق الله ولا يهونه الله على الناس؟! **أم كيف** يستخف بمعاصي الله ولا يستخف به الخلق؟!

وقد أشار سبحانه إلى هذا في كتابه عند ذكر عقوبات الذنوب، وأنه أركس أربابها بما كسبوا، وغطي على قلوبهم، وطبع عليها بذنوبهم، وأنه نسيهم كما نسوه، وأهانهم كما أهانوا دينه، وضيعهم كما ضيعوا أمره.

ولهذا قال تعالى -في آية سجود المخلوقات له-: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ فإنهم لما هان عليهم السجود له، واستخفوا به ولم يفعلوه؛ أهانهم فلم يكن لهم من مكرم بعد أن أهانهم، ومن ذا يكرم من أهانه الله أو يهن من أكرم...ومن عقوباتها: أنها تسلب صاحبها أسماء المدح والشرف، وتكسوه أسماء الذم والصغار، فتسلبه اسم المؤمن والبر والمحسن والمتقي والمطيع... ونحوها، **وتكسوه اسم** الفاجر والعاصي والمخالف والمسيء...، وأمثالها.

فهذه أسماء الفسوق وبئس الاسم الفسوق بعد الإيمان التي توجب غضب الديان، ودخول النيران، وعيش الخزي والهوان، وتلك أسماء توجب رضى الرحمان، ودخول الجنان، وتوجب شرف المتسمي بها على سائر أنواع الإنسان، فلو لم يكن في عقوبة المعصية إلا استحقاق تلك الأسماء وموجباتها لكان في العقل ناهٍ عنها،

ولو لم يكن في ثواب الطاعة إلا الفوز بتلك الأسماء وموجباتها؛ لكان في العقل أمرٌ بها ولكن لا مانع لما أعطى الله، ولا معطي لما منع، ولا مقرب لمن باعد، ولا مبعد لمن قرب، **ومن يهن الله فماله من مكرم**، إن الله يفعل ما يشاء»[1].

وفي كلمة ابن القيم الآنفة: «**ومن ذا يُكرم من أهانه الله، أو يُهنْ من أكرم**» إشارة إلى معنى يفهم من هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ وهو: أن من أكرمه ربه بطاعته، والانقيادِ لشرعه ظاهرًا وباطنًا؛ فهو الأعز الأكرم، وإن خاله المنافقون أو الكفار على خلاف ذلك، كما قال من طمس الله على بصائرهم من المنافقين وأشباههم: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨] إي والله.. لا يعلمون من هم أهل العزة حقًا!

ألم يقل الله: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]؟!

وكيف يشعر المؤمن بالهوان وسنده أعلى؟! ومنهجه أعلى؟! ودوره أعلى؟ وقدوته ﷺ أعلى وأسمى؟!

فهل يعي ويدرك أهل الإيمان أنهم الأعزة حقًا؛ متى ما قاموا بما أوجب الله عليهم؟

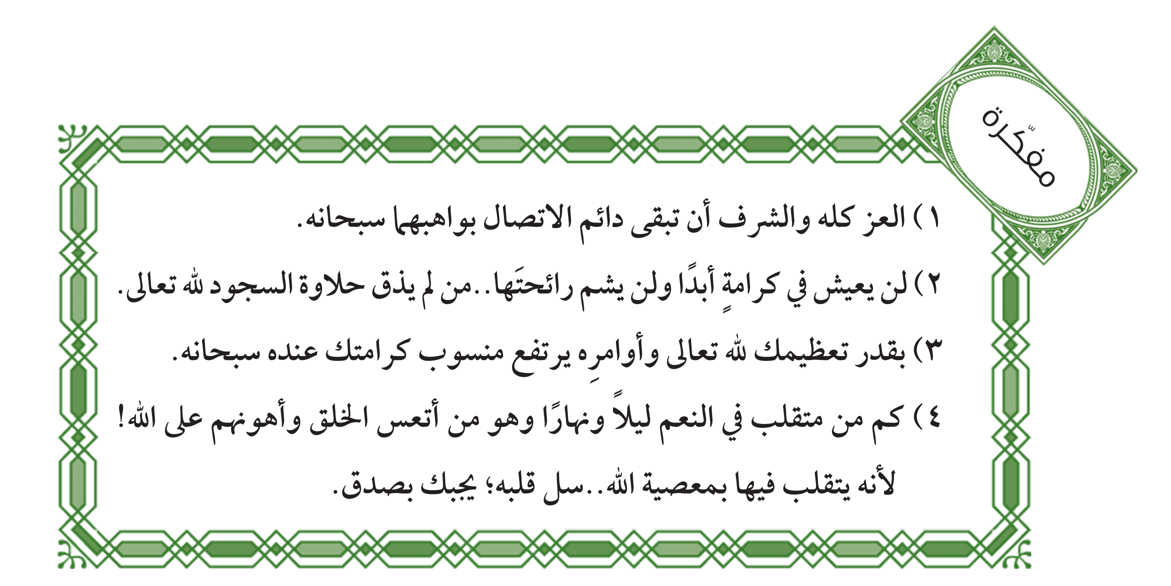
---

(١) الجواب الكافي: (٣٨ - ٥٢) باختصار.

وأختم كلامي -عن هذه القاعدة القرآنية المحكمة- بكلمة رائعة لشيخ الإسلام ابن تيمية: حيث يقول:

«الكرامة في لزوم الاستقامة، واللهُ تعالى لم يكرم عبده بكرامة أعظم من موافقته فيما يحبه ويرضاه، وهو طاعته وطاعة رسوله وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه، وهؤلاء هم أولياء الله الذين قال الله فيهم: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾»[1].

أسأل الله تعالى أن يجعلني وإياكم منهم، وأن يكرمنا وإياكم بطاعته، ولا يذلنا ويهيننا بمعصيته.



١) **العز كله والشرف أن تبقى دائم الاتصال بواهبهما سبحانه.**

٢) **لن يعيش في كرامةٍ أبدًا ولن يشم رائحتَها..من لم يذق حلاوة السجود لله تعالى.**

٣) **بقدر تعظيمك لله تعالى وأوامرِه يرتفع منسوب كرامتك عنده سبحانه.**

٤) **كم من متقلب في النعم ليلاً ونهارًا وهو من أتعس الخلق وأهونهم على الله! لأنه يتقلب فيها بمعصية الله..سل قلبه؛ يجبك بصدق.**

(١) التحفة العراقية في الأعمال القلبية (١٢).



هذه قاعدة من القواعد المحكمة في أبواب التعامل مع الخالق ﷻ والتعامل مع خلقه، هي قاعدة تمثل سفينةً من سفن النجاة، وركنًا من أركان الحياة الاجتماعية، وهي -لمن اهتدى بهديها- علامة خير، وبرهان على سمو الهمة، ودليل على كمال العقل.

هذه القاعدة المحكمة جاءت تعقيبًا على قصة جهاد طويل، وبلاء كبير في خدمة الدين، والذب عن حياضه، قام به النبيُّ ﷺ وأصحابُه رضوان الله عليهم، وذلك في خاتمة سورة التوبة -التي هي من آخر ما نزل عليه ﷺ- قال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٧ - ١١٩].

---

(١) التوبة: ١١٩.



والرسالة التي تحملها هذه القاعدة في موقعها هذا: أن هؤلاء الذين تاب الله عليهم -النبي ﷺ ومن معه، والثلاثة الذين خلفوا- هم أئمة الصادقين؛ فاقتدوا بهم.

وأنت إذا تأملتَ مجيء هذه القاعدة القرآنية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ بعد هذه الآيات، أدركتَ أن الصدق أعمّ من أن يختصر في الصدق في الأقوال! بل هو الصدق في الأقوال والأفعال والأحوال، التي كان يتمثلها نبينا ﷺ في حياته كلها، قبل البعثة وبعدها.

ولما كان النبي ﷺ صادق اللهجة، عف اللسان، أمينًا وفيًّا حافظًا للعهود قبل بعثته؛ عرف بالصادق الأمين، وكان ذلك سببًا في إسلام بعض عقلاء المشركين، الذين كان قائلهم يقول: لم يكن هذا الرجل ليترك الكذب على الناس ثم يكذب على الله!!

كثيرٌ من الناس حينما يسمع هذه القاعدة القرآنية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ لا ينصرف ذهنه إلا للصدق في الأقوال، وهذا في الحقيقة تقصير في فهم هذه القاعدة، وإلا لو تأمل الإنسان سياقها لعلم أنها تشمل جميع الأقوال والأفعال والأحوال! كما تقدم.

إن للصدق آثارًا حميدة، وعوائد جليلة؛ وهو دليل على رجحان العقل، وحسن السيرة، ونقاء السريرة.

ولو لم يكن للصدق من آثار إلا سلامته من رجس الكذب، ومخالفة المروءة، والتشبه بالمنافقين! فضلًا عما يكسبه الصدق من عزة، وشجاعة، تورثه كرامة، وعزة نفس، وهيبةَ جناب، ومن تأمل في قصة الثلاثة الذين خلفوا أدرك حلاوة الصدق ومرارة الكذب ولو بعد حين.




ومن تأمل في الآيات الواردة في مدح الصدق والثناء على أهله وجدَ عجبا عجابًا!

وحسبنا هنا أن نشير إلى جملة من الآثار التي دلّ عليها القرآن للصدق وأهله في الدنيا والآخرة:

١- فالصادق سائر على درب الأنبياء والرسل -عليهم الصلاة والسلام- الذين أثنى الله عليهم في غير ما آية بالصدق في الوعد والحديث.

٢- والصادق معانٌ ومنصورٌ، ويسخر الله له من يدافع عنه من حيث لا يتوقع، بل قد يكون المدافع خصمًا من خصومه، تأمل في قول امرأة العزيز: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١].

والصادق يسير في طريق يهدي إلى الجنة، ألم يقل النبي ﷺ: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا»؟[1]، وقد قال الله ﷻ -مبينًا صفات أهل الجنة-: ﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

وأهل الصدق هم الناجون يوم العرض الأكبر على ربهم، كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

والصادقون هم أهلٌ لمغفرة الله وما أعده لهم من الأجر والثواب العظيم، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْقَـٰنِتَـٰتِ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ ...﴾، إلى قوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

(١) البخاري ح (٥٧٤٣)، ومسلم ح (٢٦٠٧) واللفظ له.



وبعد هذا؛ فإن من المحزن والمؤلم أن يرى المسلم الخرق الصارخ -في واقع المسلمين- لما دلّت عليه هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾!

فكم هم الذين يكذبون في حديثهم؟ وكم هم الذين يخلفون مواعيدهم؟ وكم هم أولئك الذين ينقضون عهودهم؟

أليس في المسلمين من يتعاطى الرشوة، ويخون بذلك ما اؤتمن عليه من أداء وظيفته؟ **أليس في المسلمين** من لا يبالي بتزوير العقود، والأوراق الرسمية؟ وغير ذلك من صور التزوير؟

لقد شوّه هؤلاء -وللأسف- بأفعالهم وجهَ الإسلام المشرق، الذي ما قام إلا على الصدق!

وإنك لتعجب من مسلم يقرأ هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾! ومع ذلك يمارس الكذب على غيره مع وفرة النصوص الشرعية التي تأمر بالصدق وتنهى عن الكذب!

ليت هؤلاء يتأملون هذا الموقف، الذي حدّث به أبو سفيان رضي الله عنه قبل أن يسلم، حينما كان في أرض الشام، إذ جيء بكتاب من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل، فقال هرقل: هل ها هنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ قالوا: نعم، قال: فدعيت في نفر من قريش، فدخلنا على هرقل، فأجلسنا بين يديه، فقال: أيكم أقرب نسبًا من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقلت: أنا، فأجلسوني بين يديه، وأجلسوا أصحابي خلفي، ثم دعا بترجمانه، فقال له: قل لهم: إني سائل هذا عن الرجل الذي يزعم أنه نبي، فإن كذبني فكذبوه، فقال أبو سفيان: **وأيم الله لولا مخافة أن يؤثر علي الكذب لكذبت**[1].

(١) البخاري ح (٧)، ومسلم ح (٧٤).




فتأمل -أيها المؤمن- كيف حاذر هذا الرجل الذي كان مشركًا يومئذ من الكذب؛ لأنه يراه عارًا وسُبةً لا تليق بالرجل الذي يعرف جلالة الصدق، وقبح الكذب؟! إنها مروءة العربي، الذي كان يعد الكذب من أقبح الأخلاق!

ولهذا لما سئل ابن معين رحمه الله عن الإمام الشافعي قال: دعنا، والله لو كان الكذب حلالًا لمنعته مروءته أن يكذب![1].

وجاء في ترجمة الحافظ إسحاق بن الحسن الحربي (ت: ٢٨٤) أن الإمام إبراهيم الحربي سئل عنه، فقال: ثقة، ولو أن الكذب حلال ما كذب إسحاق![2].

وكان إبراهيم الحربي (ت: ٢٨٥) يقول في الإمام المحدث هارون الحمال: لو أن الكذب حلال لتركه هارون تنزهًا[3].

ولله درُّ الإمامِ الأوزاعي حيث قال: والله لو نادى منادٍ من السماء أن الكذب حلال ما كذبت!

فأين من هذا أولئك الذين استمرؤوا الكذب؟! بل وامتهنوه، ولم يكتفوا بهذا بل روّجوا شيئًا من عادات الكفار في الكذب، كما هو الحال فيما يسمى بكذبة إبريل! ويزعم بعضهم أن تلك كذبة بيضاء! وما علموا أن الكذب كله أسود! إلا ما استثناه الشرع المطهر.

ويقال: لو لم يكن من خسارة يجنيها هؤلاء الذين يكذبون إلا أنهم يتخلفون بكذبهم هذا عن ركب المؤمنين الصادقين، الذين عناهم الله بهذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ لكفتهم رادعًا.

---

(١) لسان الميزان: (٥/ ٤١٦).

(٢) تاريخ بغداد: (٦/ ٣٨٢).

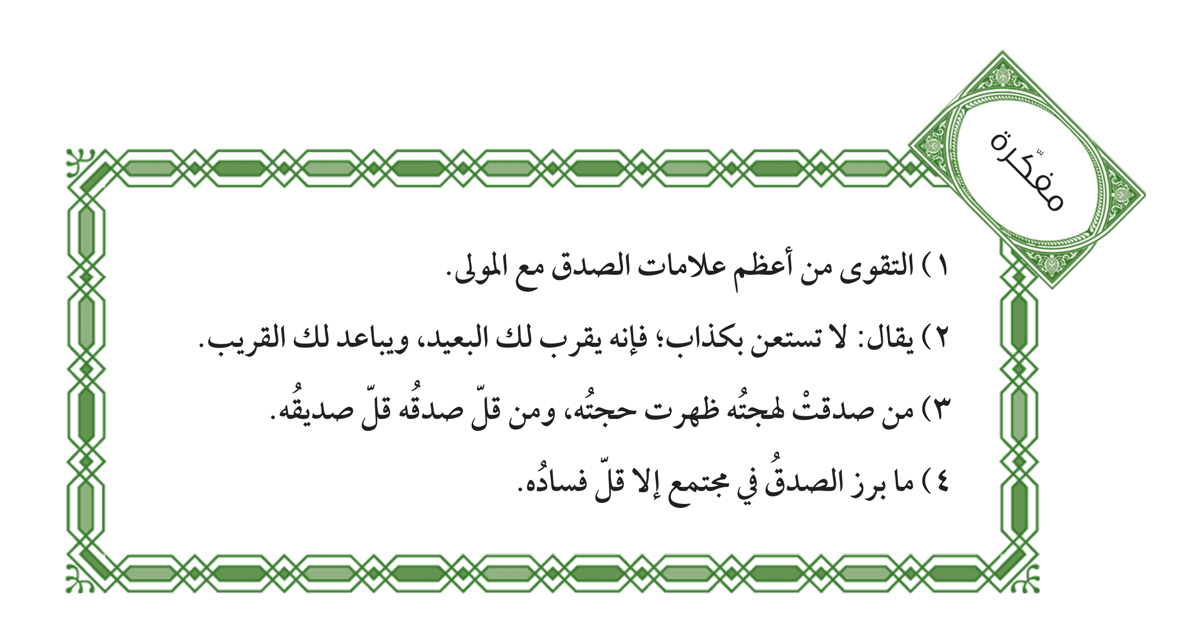
(٣) تاريخ بغداد: (١٤/ ٢٢) وفي النص خلل صُحح من تذكرة الحفاظ: (٢/ ٤٧٨).



ما أحرانا معشر الآباء والمربين، أن نربي أجيالنا على هذا الخلق العظيم، وعلى كراهة الكذب، وأن نكون لهم قدوات حية يرونها بأعينهم.

يقول الأستاذ الأديب الكبير محمد كرد علي:

«لو عَمَدنا إلى الصدق نجعله شعارنا الباطنَ والظاهر في عامة أحوالنا؛ لوفرنا على أنفسنا وعلى من يحتفون بنا وعلى القائمين بالأمر فينا أوقاتًا وأموالًا ولغوًا وباطلًا، ولعشنا وأبناءنا سعداء لا نقلق ولا نُرَوّع، ممتعين بما نجني، مباركًا لنا فيما نأخذ ونعطي، ولعشنا في ظل الشرف، وتذوقنا معنى الإنسانية، ونَعِمْنا بالقناعة، وعَمّنا الرضى»[1]. انتهى، والحمد لله رب العالمين.



١) التقوى من أعظم علامات الصدق مع المولى.

٢) يقال: لا تستعن بكذاب؛ فإنه يقرب لك البعيد، ويباعد لك القريب.

٣) من صدقتْ لهجتُه ظهرت حجتُه، ومن قلّ صدقُه قلّ صديقُه.

٤) ما برز الصدقُ في مجتمع إلا قلّ فسادُه.

(١) أقوالنا وأفعالنا (قولنا في الصدق).



هذه قاعدة من القواعد المحكمة في أبواب التعامل مع الخالق ﷻ والتعامل مع خلقه، هي قاعدة وملاذٌ لمن تُواجَه أعمالهم بعدم التقدير.

وهذه القاعدة جاءت في قصة يوسف عليه الصلاة والسلام، وذلك حين دخل عليه إخوته فقالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ۝٨٨ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ۝٨٩ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٨٨-٩٠]، ما هي التقوى؟! وما هو الصبر؟

ما أكثر ما نحفظ تعريف التقوى، بل قد يحفظ بعضنا عدة تعاريف لها وللصبر، ويحفظ تقسيمات الصبر، ثم يفشل أحدنا في أول اختبار الصبر، أو يقع منه تقصير ظاهر في تطبيق هذه المعاني الشرعية كما ينبغي عند وجود المقتضي لها.

---

(١) يوسف: ٩٠ .



ولستُ أعني بذلك العصمة من الذنب، فذلك غير مراد قطعًا، وإنما أقصد أننا نخفق أحيانًا -إلا من رحم الله- في تحقيق التقوى أو الصبر إذا جد الجد، وجاء موجبهما.

كلنا يحفظ أن التقوى هي فعل أوامر الله، واجتناب نواهيه.

وكلنا يدرك أن ذلك يحتاج إلى صبر ومصابرة، وحبس للنفس على مراد الله ورسوله، ولكن الشأن في النجاح في تطبيق هذين المعنيين العظيمين في أوانهما.

ولنا أن نتساءل هنا عن سر الجمع بين التقوى والصبر في هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؟

والجواب: أن ذلك -والله أعلم- لأن أثر التقوى في فعل المأمور، وأما الصبر فأثره في الأغلب في ترك المنهي[1].

❋ من تطبيقات هذه القاعدة:

إن لهذه القاعدة القرآنية الجليلة تطبيقاتٍ كثيرة في حياة المؤمن، بل وفيما يقرأه المسلم في كتاب ربه، ومن ذلك:

١- ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية -تعليقًا على هذه القاعدة في سورة يوسف عليه الصلاة والسلام- فقال رحمه الله:

«ثم إن يوسف ابتلي بعد أن ظُلِمَ بمن يدعوه إلى الفاحشة، ويراوده عليها، ويستعين عليه بمن يعينه على ذلك، فاستعصم واختار السجن على الفاحشة، وآثر عذاب الدنيا على سخط الله، فكان مظلومًا من جهة من أحبه لهواه، وغرضِه الفاسد...»، ثم تكلم على محنته مع إخوته، وكيف أنه تعرض لنوعين من الأذى فقابلهما بالتقوى والصبر:

(١) جامع الرسائل لابن تيمية: (١/ ٣٨).




أما الأذى الأول: فهو ظلم إخوته له، الذين أخرجوه من انطلاق الحرية إلى رق العبودية الباطلة بغير اختياره.

وأما الأذى الثاني: فهو ما تعرض له من ظلم امرأة العزيز، التي ألجأته إلى أن اختار أن يكون محبوسًا مسجونًا باختياره.

ثم فرق الشيخ: بين صبره على أذى إخوته، وصبره على أذى امرأة العزيز، وقرر أن صبره على الأذى الذي لحقه من امرأة العزيز أعظم من صبره على أذى إخوته؛ لأن صبره على أذى إخوته كان من باب الصبر على المصائب التي لا يكاد يسلم منها أحد، وأما صبره على أذى امرأة العزيز فكان اختياريًا، واقترن به التقوى؛ ولهذا قال يوسف: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

ثم قال شيخ الإسلام -مبينًا اطراد هذه القاعدة القرآنية-:

«وهكذا إذا أوذي المؤمن على إيمانه، وطلب منه الكفر أو الفسوق أو العصيان -وإن لم يفعل أوذي وعوقب- اختار الأذى والعقوبة على فراق دينه: إما الحبس وإما الخروج من بلده، كما جرى للمهاجرين حين اختاروا فراق الأوطان على فراق الدين، وكانوا يعذبون ويؤذون.

وقد أوذي النبي ﷺ بأنواع من الأذى فكان يصبر عليها صبرًا اختياريًا، فإنه إنما يُؤذى لئلا يفعل ما يفعله باختياره، وكان هذا أعظم من صبر يوسف؛ لأن يوسف إنما طلب منه الفاحشة، وإنما عوقب -إذ لم يفعل- بالحبس، والنبي ﷺ وأصحابه طلب منهم الكفر، وإذا لم يفعلوا طلبت عقوبتهم بالقتل فما دونه، وأهون ما عوقب به الحبس...» إلى أن قال:



«فكان ما حصل للمؤمنين من الأذى والمصائب هو باختيارهم طاعة لله ورسوله لم يكن من المصائب السماوية التي تجري بدون اختيار العبد، من جنس حبس يوسف، لا من جنس التفريق بينه وبين أبيه، وهذا أشرف النوعين، وأهلها أعظم بدرجة، وإن كان صاحب المصائب يثاب على صبره ورضاه، وتكفر عنه الذنوب بمصائبه»[1].

٢- ومن تطبيقات هذه القاعدة القرآنية: تربيةُ النفس على التقوى والصبر على ما يسمى بعشق الصور، الذي أفسد قلوب فئام من الناس، بسبب تعلق قلوبهم بتلك الصور، سواء كانت صورًا حية، أم ثابتة.

ولقد عظمت الفتنة بهذه الصور في عصرنا هذا، الذي لم تعرف الدنيا عصرًا أعظم منه في انتشار الصورة، والاحتراف في تصويرها، والتفنن في تغيير ملامحها، وتَيسّر الوصول إلى الصور المحرمة منها وغير المحرمة، عن طريق الإنترنت، والجوال، وغيرها من الوسائل.

فعلى المؤمن الناصح لنفسه أن يتقي ربه، وأن يجاهد نفسه في البعد عن هذا المرتع الوخيم -أعني تقليب النظر في الصور المحرمة- وأن يوقن أن ما يقذفه الله في قلبه من الإيمان والنور والراحة والطمأنينة سيكون أضعاف ما يجده من لذة عابرة بتلك الصور، ومن أراد أن يعرف مفاسد هذا الباب -أعني عشق الصور- فليقرأ أواخر كتاب العلامة ابن القيم: «الجواب الكافي» فقد أجاد وأفاد.

وليتذكر المبتلى بالعشق «أنه إذا عف عن المحرمات نظرًا وقولًا وعملًا، وكتم ذلك، فلم يتكلم به حتى لا يكون في ذلك كلامٌ محرم: إما شكوى إلى المخلوق،

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٠/ ١٢١- ١٢٣) بتصرف واختصار.




وإما إظهار فاحشة، وإما نوعُ طلبٍ للمعشوق، وصَبَرَ على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى ما في قلبه من ألم العشق، كما يصبر المصاب عن ألم المصيبة؛ فإن هذا يكون ممن اتقى الله وصبر، و﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾»[1].

٣- ومن تطبيقات هذه القاعدة القرآنية العظيمة: أن الإنسان قد يبتلى بحُساد يحسدونه على ما آتاه الله من فضله، وقد يجد من آثار هذا الحسد ألوانًا من الأذى القولي أو الفعلي، كما وقع لأحد ابني آدم حين حسد أخاه؛ لأن الله تقبل قربانه ولم يتقبل قربان أخيه، وكما وقع ليوسف مع إخوته، وقد يقع هذا من المرأة مع ضرتها، أو من الزميل مع زميله في العمل.

وهذا النوع من الحسد، يقع غالبًا بين المتشاركين في رئاسة أو مال أو عمل إذا أخذ بعضهم قسطًا من ذلك وفات الآخر؛ ويكون بين النظراء؛ لكراهة أحدهما أن يفضل الآخر عليه[2].

فعلى من ابتلي بذلك أن يتذكر هذه القاعدة القرآنية: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، وليتذكر أيضًا قوله تعالى: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾.

٤- ومن تطبيقات هذه القاعدة القرآنية العظيمة: ما تكرر الحديث عنه في سورة آل عمران في ثلاثة مواضع، كلها جاءت بلفظ: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾.

الأول والثاني منهما: في ثنايا الحديث عن غزوة أُحد، يقول ﷻ: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

---

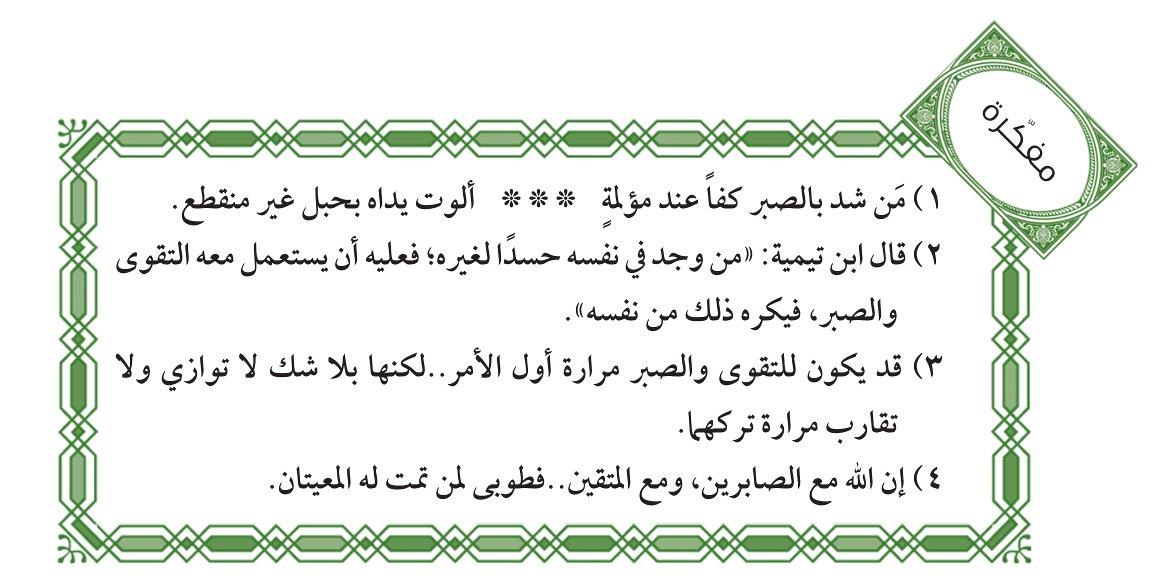
(١) مجموع الفتاوى: (١٠/ ١٣٣) بتصرف واختصار.

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ١٢٥-١٢٦).



والثاني: في قوله ﷻ: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ ءَالَافٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَافٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤ - ١٢٥].

والموضع الثالث: في أواخر آل عمران -في سياق الحديث عن شيء من المنهج القرآني في التعامل مع أذى الأعداء من المشركين وأهل الكتاب- فقال ﷻ: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].



١) مَن شد بالصبر كفاً عند مؤلمةٍ *** ألوت يداه بحبل غير منقطع.

٢) قال ابن تيمية: «من وجد في نفسه حسدًا لغيره؛ فعليه أن يستعمل معه التقوى والصبر، فيكره ذلك من نفسه».

٣) قد يكون للتقوى والصبر مرارة أول الأمر..لكنها بلا شك لا توازي ولا تقارب مرارة تركهما.

٤) إن الله مع الصابرين، ومع المتقين..فطوبى لمن تمت له المعيتان.



وهذه القاعدة القرآنية جاءت ضمن سياق الحديث عن عادة من عادات أهل الجاهلية، الذين إذا أحرموا، لم يدخلوا البيوت من أبوابها، تعبدا بذلك، وظنا أنه بر، فأخبر الله أنه ليس ببر؛ لأن الله تعالى، لم يشرعه لهم، كما ثبت سبب هذا النزول في الصحيحين من حديث البراء رضي الله عنه(٢).

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩].

*** من تطبيقات هذه القاعدة:**

ولئن كان سبب النزول الذي عالج ذلك الخطأ من أجلى وأظهر الصور التي عالجتها هذه القاعدة، فإن ثمة تطبيقات أخرى واسعة لهذه القاعدة القرآنية الجليلة ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾، تظهر لمن تتبع كلام العلماء عنها، أو في تطبيقاتهم العملية لها، ومن ذلك:

---

(١) البقرة: ١٨٩ .

(٢) البخاري ح (١٨٠٣)، مسلم ح (٣٠٢٦).

١- **عبادة الله تعالى، فإنها الطريق الموصل إلى الله** ﷻ، ومن أراد أن يصل إلى الله، فعليه أن يسلك الطريق الموصل إليه ﷻ، ولا يكون ذلك إلا بواسطة الطريق الذي سنه رسول الله ﷺ.

يقول العلامة ابن القيم رحمه الله: «فالوصول إلى الله وإلى رضوانه بدونه محال، وطلب الهدى من غيره هو عين الضلال، وكيف يوصل إلى الله مِن غير الطريق التي جعلها هو سبحانه موصلة إليه، ودالة لمن سلك فيها عليه! بعث رسوله بها مناديا، وأقامه على أعلامها داعيا، وإليها هاديا، فالباب عن السالك في غيرها مسدود، وهو عن طريق هداه وسعادته مصدود، بل كلما ازداد كدحًا واجتهادًا: ازداد من الله طردًا وإبعادًا»(١).

ويؤكد ذلك العلامة السعدي رحمه الله -في تعليقه على هذه القاعدة التي نحن بصدد الحديث عنها- فيقول: «وكل من تعبد بعبادة لم يشرعها الله ولا رسوله، فهو متعبد ببدعة، وأمرهم أن يأتوا البيوت من أبوابها لما فيه من السهولة عليهم، **التي هي قاعدة من قواعد الشرع**»(٢).

٢- **ومن تطبيقات هذه القاعدة، أنه:**

«يؤخذ من عمومها اللفظي والمعنوي أن كل مطلوب من المطالب المهمة ينبغي أن يؤتى من بابه، وهو أقرب طريق ووسيلة يتوصل بها إليه، وذلك يقتضي معرفة الأسباب والوسائل معرفة تامة؛ ليسلك الأحسن منها والأقرب والأسهل، والأقرب نجاحًا، لا فرق بين الأمور العلمية والعملية، ولا بين الأمور الدينية والدنيوية، ولا بين الأمور المتعدية والقاصرة، وهذا من الحكمة»(٣).

(١) مقدمة كتابه «تهذيب السنن»: (١/ ٣).

(٢) تفسير السعدي (٨٨)، وقد نبه على اطراد هذه القاعدة: شيخنا محمد العثيمين رحمه الله في شرحه على البخاري.

(٣) تيسير اللطيف المنان: (ص٤٥).

٣- ومن تطبيقات هذه القاعدة:

إغلاقها لباب الحيل على الأحكام الشرعية، إلا فيما أذن فيه الشرع؛ ذلك أن المتحايل على الشريعة لم يأت الأمر من بابه، فخالف بذلك ما دلت عليه هذه القاعدة المحكمة.

يقول ابن القيم رحمه الله -مبينًا شناعة فعل هؤلاء المتحايلين، الذين تفننوا في هذا الباب-:

«فاستبيحت بحيلهم الفروج، وأخذت بها الأموال من أربابها فأعطيت لغير أهلها، وعطلت بها الواجبات، وضيعت بها الحقوق، وعجّت الفروج والأموال والحقوق إلى ربها عجيجًا، وضجت مما حل بها إليه ضجيجًا، ولا يختلف المسلمون أن تعليم هذه الحيل حرام، والإفتاء بها حرام، والشهادة على مضمونها حرام، والحكم بها مع العلم بحالها حرام»[1].

فإذا تبين ذلك؛ فقارن: كم هم الذين وقعوا في هذا المرتع الوخيم ممن نصبوا أنفسهم للإفتاء في بعض المنابر الإعلامية، أو في بعض المواقع، وساعدهم على ذلك تراكض كثير من الناس في هذا الباب؟! وأدنى نظرة في الواقع، تبين أن الأمر جلل، والله المستعان.

٤- ومن تطبيقات هذه القاعدة القرآنية:

في باب طلب العلم شرعيًا كان أم غير شرعي، وكذلك في طلب الرزق، فإن «كل من سلك طريقًا وعمل عملًا، وأتاه من أبوابه وطرقه الموصلة إليه، فلا بد أن يفلح وينجح ويصل به إلى غايته، كما قال تعالى: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩]، وكلما عظم المطلوب تأكد هذا الأمر، وتعين البحث التام عن أمثل وأقوم الطرق الموصلة إليه»[2].

(١) إعلام الموقعين: (٣/ ٣٧٢).

(٢) القواعد الحسان لتفسير القرآن (ص: ٩) للعلامة: السعدي رحمه الله.

وما أجمل ما قاله قيس بن الخطيم:

إذا ما أتيت العزّ من غير بابه ضللتَ، وإن تقصد من الباب تهتد[1]

٥- ومن تطبيقات هذه القاعدة القرآنية: هو الحديث مع الناس.

فإن الآية ترشد إلى أن المؤمن عليه أن يسلك الطريقة المناسبة في الحديث، فيعرف الموضوع المناسب الذي يحسن طرقُه، والوقت الملائم، ويعرف طبيعة الشخص أو الناس الذين يتحدث إليهم، فإن لكل مقام مقالًا، ولكل مجال جدالًا، ولكل حادثة مقامًا.

وعلى هذا فإذا أراد الإنسان أن يخاطب شخصًا كبير المنزلة في العلم أو الشرف، فلا يليق أن يخاطبه بما يخاطب سائر الناس؛ والحكمة في هذا هي المدار، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا.

٦- ومن تطبيقات هذه القاعدة القرآنية:

ما أشار إليه ابن الجوزي في كتابه الماتع «صيد الخاطر» حيث يقول:

«شكا لي رجل من بغضه لزوجته ثم قال: ما أقدر على فراقها لأمور: منها كثرة دينها علي، وصبري قليل، ولا أكاد أسلم من فلتات لساني في الشكوى، وفي كلمات تعلم بغضي لها.

(١) جمهرة الأمثال للعسكري: (٨٩).

فقلت له: هذا لا ينفع وإنما تؤتى البيوت من أبوابها، فينبغي أن تخلو بنفسك، فتعلم أنها إنما سلطت عليك بذنوبك، فتبالغ في الاعتذار والتوبة، فأما الضجر والأذى لها فما ينفع، كما قال الحسن البصري عن الحجاج بن يوسف: عقوبة من الله لكم، فلا تقابلوا عقوبته بالسيف، وقابلوها بالاستغفار.

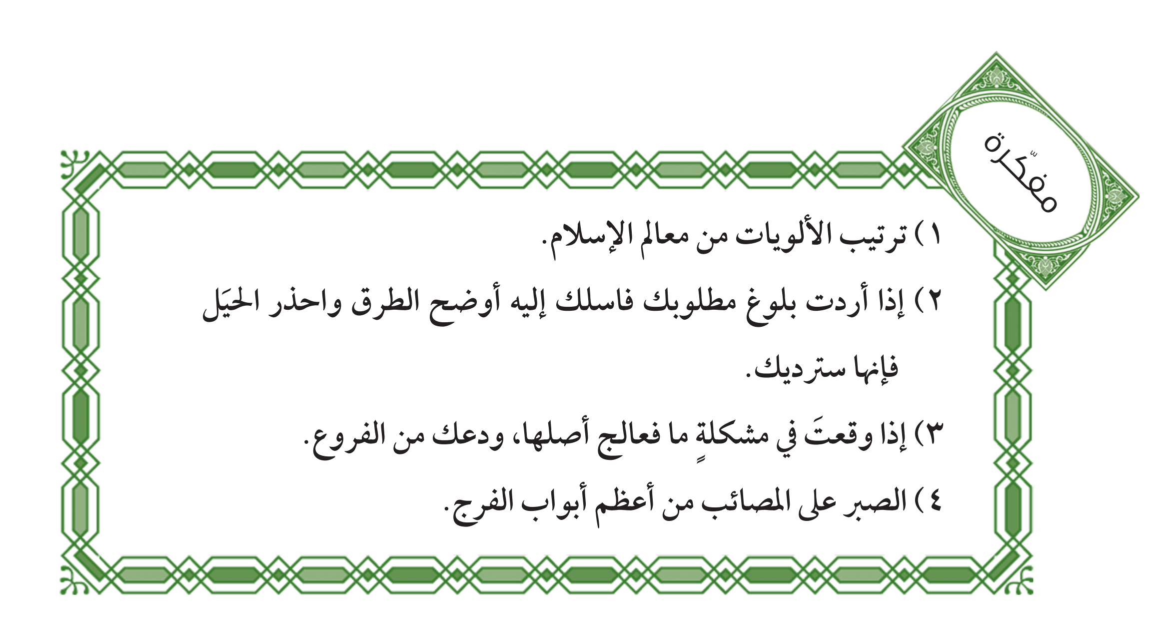
واعلم أنك في مقام مبتلى، ولك أجر بالصبر وعسى أن تكرهوا شيئًا، وهو خير لكم، فعامل الله سبحانه بالصبر على ما قضى، واسأله الفرج، **فإذا جمعت** بين الاستغفار وبين التوبة من الذنوب، والصبر على القضاء، وسؤال الفرج، **حصلت ثلاثة فنون من العبادة** تثاب على كل منها، ولا تُضَيّع الزمان بشيء لا ينفع، ولا تحتل ظانًا منك أنك تدفع ما قدر... **وأما أذاك للمرأة** فلا وجه له؛ لأنها مسلطة فليكن شغلك بغير هذا.

وقد روي عن بعض السلف أن رجلًا شتمه فوضع خده على الأرض وقال: اللهم اغفر لي الذنب الذي سَلّطَتَ هذا به علي»[1] انتهى كلام ابن الجوزي رحمه الله.

والغرض الذي أردتُ منه ذكر هذه القصة: أن هذا الإمام الواعظ استخدم هذه القاعدة القرآنية ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ في علاج مشكلة هذا الرجل الاجتماعية، وما أكثر هذا النوع من المشاكل، لكن ما أقل من يستعمل قواعد القرآن، وهداياته في علاج مشاكل الناس الاجتماعية، إما تقصيرًا في فهم هداياته، أو قصورًا في ذلك، والواجب علينا أن ننطلق في إصلاح مشاكلنا كلها مهما تنوعت من كتاب ربنا، وسنة نبينا ﷺ،

(١) صيد الخاطر (٣٩٩-٤٠٠) ط: دار الكتب العلمية.

وأن نعتقد ذلك يقينًا؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ في كل شيء: في أمر العقائد، وأحكام الحلال والحرام، والقضايا الاجتماعية، والاقتصادية والسياسية، ولكن الشأن فينا نحن، وفي تقصيرنا في تطلب حل مشاكلنا من كتاب ربنا تعالى، نسأل الله تعالى أن يعيننا على فهم كتابه، والاهتداء بهديه، والاستنارة بنوره.



مفكّرة

١) ترتيب الأولويات من معالم الإسلام.

٢) إذا أردت بلوغ مطلوبك فاسلك إليه أوضح الطرق واحذر الحيَل فإنها ستر ديك.

٣) إذا وقعتَ في مشكلةٍ ما فعالج أصلها، ودعك من الفروع.

٤) الصبر على المصائب من أعظم أبواب الفرج.



هذه القاعدة جاءت في ختام سورة العنكبوت، والتي افتتحت بقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ - ٣].

وكأن ختام سورة العنكبوت بهذه القاعدة القرآنية: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ هو جواب عن التساؤل الذي قد يطرحه المؤمن -وهو يقرأ صدر سورة العنكبوت، والتي تقرر حقيقة شرعية وسنة إلهية- في طريق الدعوة إلى الله تعالى، وذلك السؤال هو: ما المخرج من تلك الفتن التي حدثتنا عنها أول سورة العنكبوت؟! فيأتي الجواب في آخر السورة، في هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ فلا بد من الجهاد -بمعناه العام- ولا بد من الإخلاص، عندها تأتي الهداية، ويتحقق التوفيق بإذن الله.

ولا بد لكل من أراد أن يسلك طريقًا أن يتصور صعوباته؛ ليكون على بينة من أمره، وهكذا هو طريق الدعوة إلى الله، فلم ولن يكون مفروشًا بالورود والرياحين،

(١) العنكبوت: ٦٩ .

بل هو طريق «تعب فيه آدم، وناح لأجله نوح، ورُمي في النار الخليل، وأضجع للذبح إسماعيل، وبيع يوسف بثمن بخس، ولبث في السجن بضع سنين»[١].

لأن «الإيمان ليس كلمة تقال إنما هو حقيقة ذات تكاليف، وأمانة ذات أعباء، وجهاد يحتاج إلى صبر، وجهد يحتاج إلى احتمال، فلا يكفي أن يقول الناس: آمنا! وهم لا يتركون لهذه الدعوى، حتى يتعرضوا للفتنة فيثبتوا عليها ويخرجوا منها صافية عناصرهم خالصة قلوبهم، كما تفتن النار الذهب لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به، وهذا هو أصل الكلمة اللغوي، وله دلالته وظله وإيحاؤه، وكذلك تصنع الفتنة بالقلوب»[٢].

«فيا من نصبت نفسك للدعوة، وأقمت نفسك مقام الرسل الدعاة الهداة تحمَّل كلَّ ما يلاقيك من المحن بقلب ثابت، وجأش رابط، ولا تزعزعنَّك الكروب؛ فإنها مربِّية الرجال، ومهذِّبة الأخلاق، ومكوِّنة النفوس.

وإن رجلًا لم تعركه الحوادث، ولم تجرِّبه البلايا لا يكون رجل إصلاح ولا داعي خَلْقٍ إلى حقٍّ؛ فوطِّن النفس على تحمُّل المكروه، وابذل كل ما تستطيع من قوة ومال يهدك الله طريقًا رشدًا، ويصلح بك جماعات بل أممًا ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝﴾»[٣].

---

(١) الفوائد: (ص٤٢).

(٢) في ظلال القرآن: (٥/ ٢٧٢٠) ط: الشروق.

(٣) الكلمة للمنفلوطي، نقلاً عن «مقالات لكبار كتاب العربية» د. محمد الحمد وفقه الله (١/ ٢١٣).




وإذا تبينت صلة هذه القاعدة القرآنية المذكورة في آخر سورة العنكبوت: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ - بأول السورة، فإن دلالات هذه القاعدة في ميدان الدعوة كبيرة ومتسعة جدًا، وهي تدل بوضوح على أن من رام الهداية والتوفيق -وهو يسير في طريق الدعوة- فليحقق ذينك الأصلين الكبيرين اللذين دلّت عليهما هذه القاعدة:

١- **أما الأصل الأول:** فهو بذل الجهد والمجاهدة في الوصول إلى الغرض الذي ينشده الإنسان في طريقه إلى الله تعالى.

٢- **والأصل الثاني هو:** الإخلاص لله، لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ فليس جهادهم من أجل نصرة ذات، ولا جماعة على حساب أخرى، وليس من أجل لعاعة من الدنيا، أو ركض وراء كرسي أو منصب، بل هو جهادٌ في ذات الله تعالى.

وإنما نُبّه على هذا الأصل -وهو الإخلاص- مع كونه شرطًا في كل عمل، فإن السر -والله أعلم- لأن من الدعاة من قد يدفعه القيام بالدعوة، أو بأي عمل نافع، الرغبة في الشهرة التي نالها الداعية الفلاني، أو يدفعه نيل ثراء ناله المتحدث الفلاني.. فجاء التنبيه على هذا الأصل الأصيل في كل عمل صالح.

وثمة سرٌّ آخر -والله أعلم- في التنبيه على هذا الأصل، وهو: أن الإنسان قد يبدأ مخلصًا، ثم لا يلبث أن تنطفئ حرارة الإخلاص في نفسه كلما لاح أمام ناظريه شيء من حظوظ النفس، والأثرة، أو التطلع إلى جاه، والرغبة في العلو والافتخار، أو الانتصار.



«والعلل الناشئة عن فقدان الإخلاص كثيرة، وهي إذا استفحلت استأصلت الإيمان، وإذا قلّت تركت به ثُلَمًا شتى، ينفذ منها الشيطان»[(١)]، لذا ليس غريبًا أن يأتي التوكيد على هذا الأصل الأصيل في هذا المقام العظيم: مقام الجهاد والمجاهدة.

وإذا تقرر أن السورة مكية -على القول الصحيح من أقوال المفسرين- وهو الذي لم تجب فيه بعدُ شعيرة الجهاد بمعناه الخاص -وهو قتال المشركين لإعلاء كلمة الله- فإن ثمة معنى كبيرًا تشير إليه هذه القاعدة -﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾- وهو أن من أبلغ صور الجهاد: الصبر على الفتن بنوعيها: فتن السراء وفتن الضراء، والتي أشارت أوائل سورة العنكبوت إلى شيءٍ منها.

وهذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ دلت على شيءٍ آخر، كما يقول ابن القيم رحمه الله: «وهو أن أكمل الناس هدايةً أعظمهم جهادًا، وأفرض الجهاد جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا، فمن جاهد هذه الأربعة في الله، هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته، ومن ترك الجهاد فاته من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد... -إلى أن قال رحمه الله-: ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر إلا من جاهد هذه الأعداء باطنًا، فمن نُصِرَ عليها نُصِرَ على عدوه، ومن نصرتْ عليه نُصِرَ عليه عدوُه»[(٢)].

وفي كلمات الأعلام من سلف هذه الأمة، والتابعين لهم بإحسان ما يوسع دلالة هذه القاعدة:

(١) خلق المسلم للغزالي: (ص٦٦).

(٢) الفوائد: (ص٥٩).

فهذا الجنيد رحمه الله يقول -في تعليقه على هذه القاعدة القرآنية: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾-: والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة؛ لنهدينهم سبل الإخلاص.

ولأهل العلم نصيب من هذه القاعدة، يقول أحمد بن أبي الحواري: حدثني عباس بن أحمد -في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾-: الذين يعملون بما يعلمون، نهديهم إلى ما لا يعلمون.

وهذا الذي ذكره هذا العالم الجليل هو معنى ما روي في الأثر: من عمل بما علم، ورّثه الله علم ما لم يعلم، وشاهد هذا في كتاب الله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدًى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ [محمد: ١٧].

وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يقول: «جهلنا بما علمنا تركنا العمل بما علمنا ولو عملنا بما علمنا لفتح الله على قلوبنا غلق ما لا تهتدي إليه آمالنا»[١].

وفي واقع المسلمين أحوال تحتاج إلى استشعار معنى هذه القاعدة القرآنية: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾:

فمن له والدان كبيران مريضان، بحاجة أن يستشعر هذه القاعدة.

ومن سلك طريق طلب العلم، فطال عليه بعض الشيء بحاجة أن يتأمل معاني هذه القاعدة.

ومن فرّغ جزءً من وقته لتربية النشء والشباب، أو لتعليم أبناء وبنات المسلمين كتابَ الله ﷻ -وقد دبّ إليه الفتور- هو بحاجة ماسّة ليتدبر هذه القاعدة.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل: (٤/ ٣٥٨).

وبالجملة: فكلُّ من نصب نفسه لعمل صالح، سواء كان قاصرًا أم متعديًا، فعليه أن يتدبر هذه القاعدة كثيرًا؛ فإنها بلسمٌ شافٍ في طريق السائرين إلى ربهم، ويوشك المؤمن أن ينسى كلَّ ما واجهه من تعب ونصب، إذا وضع قدمه على أول عتبة من عتبات الجنة، جعلني الله وإياكم -ووالدينا وذرياتنا- من أهلها، ومن الدعاة إلى دخولها.

مفكّرة

١) إنما الحياة جهاد! للنفس، والشيطان، والأعداء.

٢) ابذل جهدَك في كل ما تطلب من خير..فذاك هو الجهاد.

٣) إذا لم تبنِ جهادَك على الإخلاص فلا تُجهد نفسك!

٤) شتان بين من يجاهد ليوصل الخير للناس، ومن يجاهد ليوصل الشر لهم!



القاعدة الخامسة والعشرون

﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾[1]

هذه قاعدة من القواعد التي تتصل بفقه السنن الإلهية في الأمم والمجتمعات.

وقد تنوعت عبارات المفسرين في بيان المراد بهذه الآيات التي يرسلها ربنا تعالى، فمن قائل: هو الموت المتفشي الذي يكون بسبب وباء أو مرض، ومن قائل: هي معجزات الرسل جعلها الله تعالى تخويفًا للمكذبين، وثالث يقول: آيات الانتقام تخويفًا من المعاصي.

وهذا الإمام ابن خزيمة رحمه الله يبوب على أحاديث الكسوف بقوله: باب ذكر الخبر الدال على أن كسوفهما تخويف من الله لعباده، قال الله جل جلاله: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾[2].

وكل هذه العبارات -في تنوعها- تشير إلى أن الآيات لا يمكن حصرها في شيء واحد، وما ذكره السلف -رحمهم الله- إنما هو عبارة عن أمثلة لهذه الآيات، وليس مرادهم بذلك حصر الآيات في نوع واحد منها، وهذه هي عادة السلف في أمثال هذه المواضع عندما يفسرونها.

---

(١) الإسراء: ٥٩.

(٢) صحيح ابن خزيمة: (٢/ ٣٠٩).

والمهم هنا أن يتأمل المؤمن والمؤمنة كثيرًا في الحكمة من إرسال هذه الآيات ألا وهي التخويف، أي: حتى يكون الإنسان خائفًا وجلًا من عقوبة قد تنزل به.

يقول قتادة رحمه الله في بيان معنى هذه القاعدة القرآنية: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾-: «إن الله يخوف الناس بما شاء من آية لعلهم يعتبرون، أو يذكرون، أو يرجعون، ذكر لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود، فقال: يا أيها الناس إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه»[(١)].

وروى ابن أبي شيبة رحمه الله في «مصنفه» من طريق صفية بنت أبي عبيد قالت: زلزلت الأرض على عهد عمر حتى اصطفقت السرر، فوافق ذلك عبد الله بن عمر وهو يصلي، فلم يدرِ، قال: فخطب عمر الناس وقال: لئن عادت لأخرجن من بين ظهرانيكم[(٢)].

وهذا التوارد في كلمات السلف في بيان معنى هذه الآية يؤكد أن السبب الأكبر في إرسال الآيات: هو تخويف العباد، وترهيبهم مما يقع منهم من ذنوب ومعاصٍ، لعلهم يرجعون إلى ربهم الذي أرسل لهم هذه الآيات والنذر، وإن لم يرجعوا فإن هذه علامة قسوة في القلب -عياذًا بالله تعالى- كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَـٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢ - ٤٤].

وكما قال ربنا ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦].

---

(١) تفسير الطبري: (١٧/ ٤٧٨).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة: الأثر رقم (٨٤٢١).

- فإن قلتَ: ما الجواب عما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال -لما سمع بخسف-: كنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم نعد الآيات بركة، وأنتم تعدونها تخويفا؟!

فالجواب: أن مراد ابن مسعود رضي الله عنه -كما بينه الإمام الطحاوي-: «أنا كنا نعدها بركة؛ لأنا نخاف بها فنزداد إيمانًا وعملًا، فيكون ذلك لنا بركة، وأنتم تعدونها تخويفًا ولا تعملون معها عملًا يكون لكم به بركة، ولم يكن ما قال عبد الله رضي الله عنه عندنا مخالفًا لما جاء به كتاب الله عز وجل من قول الله عز وجل: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ أي: تخويفًا لكم بها لكي تزدادوا عملًا وإيمانًا؛ فيعود ذلك لكم بركة»[1].

ومع وضوح هذا المعنى الذي دلت عليه هذه القاعدة القرآنية، ومع ظهوره، إلا أن من المؤسف جدًا أن يقرأ الإنسان أو يسمع بعض كُتّاب الصحف، أو المتحدثين على بعض المنابر الإعلامية ممن يسخرون أو يهوّنون من هذه المعاني الشرعية الظاهرة! ويريدون أن يختصروا الأسباب في وقوع الزلازل أو الفيضانات، أو الأعاصير -ونحوها من الآيات العظام- في أسباب مادية محضة، وهذا غلط عظيم!

ونحن لا ننكر أن لزلزلة الأرض أسبابًا جيولوجية معروفة، وللفيضانات أسبابها، وللأعاصير أسبابها المادية، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: من الذي أمر الأرض أن تتحرك وتضطرب؟ ومن الذي أذن للماء أن يزيد عن قدره المعتاد في بعض المناطق؟ ومن الذي أمر الرياح أن تتحرك بتلك السرعة العظيمة؟ أليس هو الله؟! أليس الذي أرسلها يريد من عباده أن يتضرعوا إليه، ويستكينوا له لعله يصرف عنهم هذه الآيات؟!

---

(١) انظر: شرح مشكل الآثار (٩/ ٦).

ولا أدري! ألم يتأمل هؤلاء دلالة هذه القاعدة من الناحية اللغوية؟ فإنها جاءت بأسلوب الحصر: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ فهي في قوة الحصر الذي دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٦٢]، وهي في قوة الحصر الذي دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦] ونحوها من الآيات.

ثم ماذا يصنع هؤلاء الذين يهوّنون من شأن هذه الآيات - شعروا أم لم يشعروا، قصدوا أم لم يقصدوا - بمثل تلك التفسيرات المادية الباردة، ماذا يصنعون بما رواه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أنها قالت: كان النبي ﷺ إذا عصفت الريح، قال: «**اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشرما فيها وشر ما أرسلت به**» قالت: وإذا تخيلت السماء - وهي سحابة فيها رعد وبرق يخيل إليه أنها ماطرة - تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سُرّي عنه، فعرفت ذلك في وجهه، قالت عائشة: فسألته؟ فقال: لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾[1].

ولا أدري كيف يجيب هؤلاء عن قوله تعالى في حق قوم نوح: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ [نوح: ٢٥]؟!

يقول ابن كثير رحمه الله في بيان معنى قوله عز وجل: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ﴾: أي من كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم ﴿أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ أي نقلوا من تيار البحار إلى حرارة النار[2].

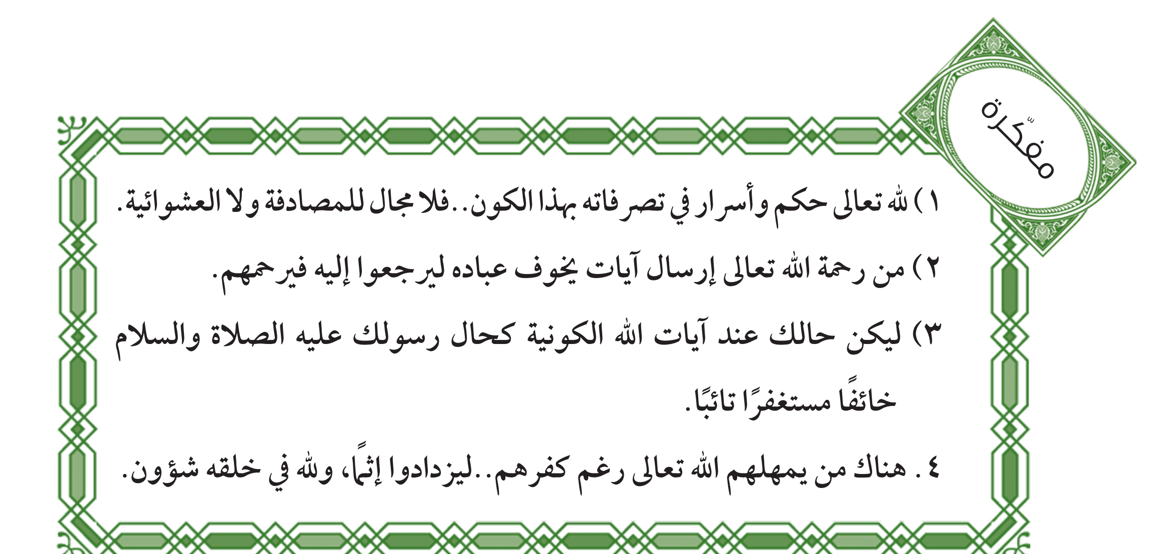
(١) البخاري ح (٤٥٥١)، مسلم ح (٨٩٩) واللفظ والدعاء لمسلم.

(٢) تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٣٨) ط: دار طيبة.

وأما ما يورده بعض الناس من قولهم:

هناك بلاد أشد معصية من تلك البلاد التي أصابها ذلك الزلزال، ويوجد دول أشد فجورًا من تلك التي ضربها ذاك الإعصار، فهذه الإيرادات لا ينبغي أن تورد أصلًا؛ لأنها كالاعتراض على حكمة الله تعالى في أفعاله وقضائه وقدره، فإن ربنا يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد، والله يقضي بالحق، وربنا لا يُسأل عما يفعل، وله ﷻ الحكمة البالغة، والعلم التام، ومن وراء الابتلاءات حكم وأسرار تعجز عقولنا عن الإحاطة بها، فضلًا عن إدراكها.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا الاعتبار والادكار، والاتعاظ بما نوعظ به، ونعوذ بالله من قسوة القلب التي تحول دون الفهم عن الله وعن رسوله.



١) لله تعالى حكم وأسرار في تصرفاته بهذا الكون..فلا مجال للمصادفة ولا العشوائية.

٢) من رحمة الله تعالى إرسال آيات يخوف عباده ليرجعوا إليه فيرحمهم.

٣) ليكن حالك عند آيات الله الكونية كحال رسولك عليه الصلاة والسلام خائفًا مستغفرًا تائبًا.

٤ . هناك من يمهلهم الله تعالى رغم كفرهم..ليزدادوا إثمًا، ولله في خلقه شؤون.



هذه قاعدة قرآنية عظيمة الصلة بواقع الناس، وازدادت الحاجة إلى التنويه بها في هذا العصر الذي اتسعت فيه وسائل نقل الأخبار.

وهذه القاعدة القرآنية الكريمة جاءت ضمن سياق الآداب العظيمة التي أدب الله بها عباده في سورة الحجرات، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

ولهذه الآية الكريمة سبب نزول توارد المفسرون على ذكره، وخلاصته أن الحارث بن ضرار الخزاعي رضي الله عنه -سيد بني المصطلق- لما أسلم اتفق مع النبي ﷺ أن يبعث له -في وقت اتفقا عليه- جابيًا يأخذ منه زكاة بني المصطلق، فخرج رسولُ رسولِ الله ﷺ لكنه خاف فرجع في منتصف الطريق، فاستغرب الحارث بن ضرار تأخر رسولَ رسولِ الله ﷺ، وفي الوقت ذاته لما رجع الرسول إلى النبي ﷺ قال: يا رسول الله! إن الحارث منعني الزكاة، وأراد قتلي، فغضب الرسول الله ﷺ وبعث إلى الحارث، فالتقى البعث الذين بعثهم الرسول ﷺ مع الحارث بن ضرار في الطريق،

(١) الحجرات: ٦ .



فقال لهم: إلى من بُعثتم؟ قالوا: إليك! قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ كان بعث إليك الوليد بن عقبة، فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله! قال: لا والذي بعث محمدًا بالحق، ما رأيته بتة ولا أتاني!! فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: «منعت الزكاة وأردت قتل رسولي»؟! قال: لا والذي بعثك بالحق، ما رأيته ولا أتاني، وما أقبلت إلا حين احتبس علي رسولُ رسولِ الله ﷺ، خشيت أن تكون كانت سخطة من الله ﷻ ورسوله، قال فنزلت الحجرات: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ انتهى الحديث مختصرًا، وقد رواه الإمام أحمد بسند لا بأس به، ويعضده الإجماع الذي حكاه ابن عبد البر على أنها نزلت في هذه القصة[1].

وجاء في قراءة سَبعيّة: ﴿فتثبتوا﴾ وهذه القراءة تزيد الأمر وضوحًا؛ فهي تأمر عموم المؤمنين حين يسمعون خبرًا أن يتحققوا بأمرين:

الأول: التثبت من صحة الخبر.

الثاني: التبيّن من حقيقته.

فإن قلتَ: فهل بينهما فرقٌ؟

فالجواب: نعم؛ لأنه قد يثبت الخبر، ولكن لا يُدْرى ما وجهه!

(١) قال ابن عبد البر في «الاستيعاب» (٤/ ١٥٥٣) عند ترجمة الوليد بن عقبة: ولا خلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن –فيما علمت– أن قوله ﷻ: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ﴾ نزلت في الوليد بن عقبة وذلك أنه بعثه رسول الله ﷺ.

ولعلنا نوضح ذلك بقصة وقعت فصولها في عهد النبي ﷺ، وذلك حين خرج النبي ﷺ من مسجده ليوصل زوجته صفية رضي الله عنها إلى بيتها، فرآه رجلان فأسرعا المسير، فقال: «على رسلكما إنها صفية»[1].

فلو نقل ناقل أنه رأى النبي ﷺ يمشي مع امرأة في سواد الليل لكان صادقًا، لكنه لم يتبين حقيقة الأمر، وهذا هو التبين.

وهذا مثال قد يواجهنا يوميًا: فقد يرى أحدنا شخصًا دخل بيته والناس متجهون إلى المساجد لأداء صلاتهم.

فلو قيل: إن فلانًا دخل بيته والصلاة قد أقيمت، لكان ذلك القول صوابًا، لكن هل تبين سبب ذلك؟ وما يدريه؟! فقد يكون الرجل لتوِّه قدم من سفر، وقد جَمَعَ جمْع تقديم فلم تجب عليه الصلاة أصلًا، أو لغير ذلك من الأعذار!

وهذا مثال آخر قد يواجهنا في شهر رمضان مثلًا:

قد يرى أحدنا شخصًا يشرب في نهار رمضان ماءً أو عصيرًا، أو يأكل طعامًا في النهار، فلو نقل ناقل أنه رأى فلانًا من الناس يأكل أو يشرب لكان صادقًا، ولكن هل تبين حقيقة الأمر؟ قد يكون الرجل مسافرًا وأفطر أول النهار فاستمر في فطره - على قول طائفة من أهل العلم في إباحة ذلك - وقد يكون مريضًا، وقد يكون ناسيًا،... إلى آخر تلك الأعذار.

---

(١) البخاري ح (٣١٠٧)، ومسلم ح (٢١٧٥).

وفي هذه القاعدة القرآنية دلالات أخرى، منها:

١ - أن خبر العدل مقبول غير مردود، اللهم إلا إن لاحت قرائن تدل على وهمه وعدم ضبطه فإنه يُرَد.

٢ - «أنه سبحانه لم يأمر بردِّ خبر الفاسق وتكذيبه ورد شهادته جملةً، وإنما أمر بالتبين، فإن قامت قرائن وأدلة من خارج تدل على صدقه عمل بدليل الصدق، ولو أخبر به من أخبر»[1].

٣- ومنها: أنها تضمنت ذم التسرع في إذاعة الأخبار التي يخشى من إذاعتها، ولقد عاب ربنا تبارك وتعالى هذا الصنف من الناس، كما في قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ [النساء: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ﴾ [يونس: ٣٩][2].

٤ - أن في تعليل هذا الأدب بقوله: ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ ما يوحي بخطورة التعجل في تلقي الأخبار عن كل أحدٍ، خصوصًا إذا ترتب على تصديق الخبر طعنٌ في أحد، أو بهتٌ له.

إذا تبين هذا المعنى، فإن من المؤسف أن يجد المسلم خرقًا واضحًا من قبل كثير من المسلمين لهذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾، وازداد الأمر واتسع مع وسائل الاتصال المعاصرة كأجهزة الجوال والإنترنت وغيرها من الوسائل!

---

(١) مدارج السالكين: (١/ ٣٦٠).

(٢) ينظر: القواعد الحسان في تفسير القرآن (٩٨).




وأعظم من يُكذب عليه من الناس في هذه الوسائل هو رسول الله ﷺ، فكم نسبت إليه أحاديث وقصص لا تصح عنه! بل بعضها كذب عليه، لا يصح أن ينسب لآحاد الناس فضلًا عن شخصه الشريف ﷺ!

ويلي هذا الأمر في الخطورة: التسرع في النقل عن العلماء، خصوصًا العلماء الذين ينتظر الناس كلمتهم، ويتتبعون أقوالهم، وكلُّ هذا محرم لا يجوز، وإذا كنا أمرنا في هذه القاعدة القرآنية: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ أن نتحرى ونتثبت من الأخبار عمومًا؛ فإنها في حق النبي ﷺ وحق ورثته أشد وأشد.

ومثل ذلك يقال: في النقل عما يصدر عن ولاة أمور المسلمين، وعن خواص المسلمين ممن يكون لنقل الكلام عنهم له أثره، فالواجب التثبت والتبين، قبل أن يندم الإنسان ولات ساعة مندم.

ولا يقتصر تطبيق هذه القاعدة القرآنية: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ على ما سبق ذكره، بل هي قاعدة يحتاجها الزوجان، والآباء مع أبنائهم، والأبناء مع آبائهم.

ولله كم من بيت تقوضت أركانه بسبب الإخلال بهذه القاعدة القرآنية!

هذه رسالة قد تصل إلى جوال أحد الزوجين، فإن كانت من نصيب جوال الزوجة، واطلع الزوج عليها، سارع إلى الطلاق قبل أن يتثبت من حقيقة هذه الرسالة التي قد تكون رسالة طائشة جادة أو هازلة جاءت من مغرض أو على سبيل الخطأ!

وقل مثل ذلك: في حق رسالة طائشة جادة أو هازلة تصل إلى جوال الزوج، فتكتشفها الزوجة، فتتهم زوجها بخيانة أو غيرها، فتبادر إلى طلب الطلاق قبل أن تتثبت من حقيقة الحال!



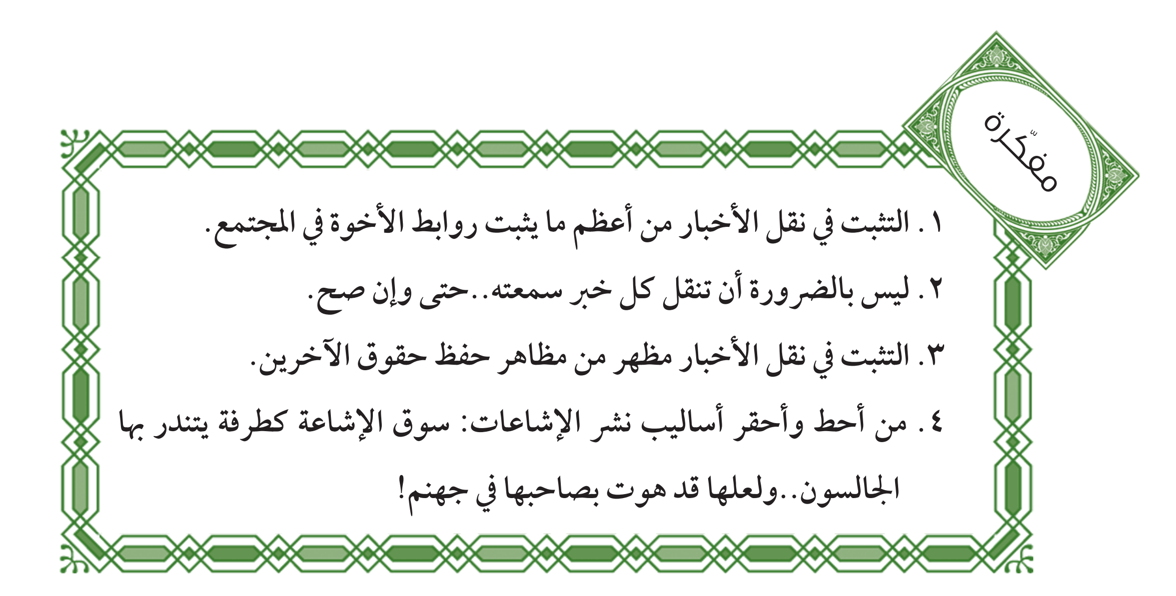



ولو أن الزوجين أعملا هذه القاعدة القرآنية: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ لما حصل هذا كلّه.

وإذا انتقلتَ إلى ميدان الصحافة أو غيرها من المنابر الإعلامية؛ وجدت عجبًا من خرق سياج هذا الأدب.. فكم من تحقيقات صحفية بنيت على خبر إما أصله كذب، أو ضُخّم وفُخّم حتى صُور للقراء على أن الأمر بتلك الضخامة والهول، وليس الأمر كما قيل!

والواجب على كل مؤمن معظم لكلام ربه أن يتقي ربه، وأن يتمثل هذا الأدب القرآني الذي أرشدت إليه هذه القاعدة القرآنية الكريمة: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾.

جعلنا الله وإياكم من المتأدبين بأدب القرآن العاملين به.



١. التثبت في نقل الأخبار من أعظم ما يثبت روابط الأخوة في المجتمع.

٢. ليس بالضرورة أن تنقل كل خبر سمعته..حتى وإن صح.

٣. التثبت في نقل الأخبار مظهر من مظاهر حفظ حقوق الآخرين.

٤. من أحط وأحقر أساليب نشر الإشاعات: سوق الإشاعة كطرفة يتندر بها الجالسون..ولعلها قد هوت بصاحبها في جهنم!



القاعدة السابعة والعشرون

﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾[1]

هذه قاعدة قرآنية عظيمة القدر؛ لعظيم أثرها في حياة العبد، وقوة صلتها بتلك المضغة التي بين النبي ﷺ أن صلاحها صلاح لبقية الجسد، وفسادها فساد له.

التزكية تطلق ويراد بها معنيان:

المعنى الأول: التطهير، ومنه قوله تعالى عن يحيى: ﴿وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ فإن الله زكاه وطهر قلبه وفؤاده، وهذا تطهير معنوي، ويطلق على التطهير الحسي، يقال: زكيت الثوب إذا طهرته.

والمعنى الثاني: هو الزيادة، يقال زَكَى المال يزكوا إذا نمى.

وكلا المعنيين اللغويين مقصودان في الشرع؛ لأن تزكية النفس شاملة للأمرين: **تطهيرها** وتخليتها من الأدران والأوساخ الحسية والمعنوية، **وتنميتها** وتحليتها بالأوصاف الحميدة والفاضلة، فالزكاة -باختصار- تدور على أمرين: التخلية، والتحلية.

والمقصود بالتخلية: أي تطهير القلب من أدران الذنوب والمعاصي، والمقصود بالتحلية: أي تحلية النفس بمكارم الأخلاق، وطيب الشمائل، وهما عمليتان تسيران جنبًا إلى جنب، فالمؤمن **مطالب** «بالتنقِّي من العيوب: كالرياء والكبر،

(١) فاطر: ١٨.

والكذب والغش، والمكر والخداع والنفاق، ونحو ذلك من الأخلاق الرذيلة، **ومطالب** بالتحلِّي بالأخلاق الجميلة: من الصدق، والإخلاص، والتواضع، ولين الجانب، والنصح للعباد، وسلامة الصدر من الحقد والحسد وغيرهما من مساوئ الأخلاق؛ فإن تزكيته يعود نفعها إليه، ويصل مقصودها إليه، ليس يضيع من عمله شيء»[(١)].

وعلى هذا المعنى جاءت الآيات القرآنية بالأمر بتزكية النفس وتهذيبها، كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾، وقال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾، وكما في هذه القاعدة القرآنية التي نحن بصددها: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾.

وهذه الآية جاءت في سورة فاطر ضمن السياق التالي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝١٧ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٥- ١٨].

قال العلامة ابن عاشور: «وجملة ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ تذييلٌ جار مجرى المثل، وذكر التذييل عقب المذيل يؤذن بأن ما تضمنه المذيَّل داخل في التذييل بادئ ذي بدء مثل دخول سبب العام في عمومه من أول وهلة دون أن يُخص العام به، فالمعنى: أن الذين خَشُوا ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة هم ممّن تزكى فانتفعوا بتزكيتهم، فالمعنى: إنما ينتفع بالنذارة الذين يخشون ربهم بالغيب فأولئك تزكوا بها ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه.

---

(١) تفسير السعدي: (ص٦٨٧).




والمقصود من القصر في قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ أن قبولهم النذارة كان لفائدة أنفسهم، ففيه تعريض بأن الذين لم يعبؤا بنذارته تركوا تزكية أنفسهم بها، فكان تركهم ضرًا على أنفسهم»[1].

إن من تأمل نصوص القرآن وجد عناية عظيمة بمسألة تزكية النفوس:

فهذا خليل الرحمن حينما دعا بأن يبعث من ذريته رسولًا، ذكر من جملة التعليلات: تزكية الناس الذين سيدعوهم، فقال ﷻ: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وربنا تعالى يذكر عباده بمنته عليهم، حين استجاب دعوة خليله إبراهيم، وأن من أعظم وظائفه هي تزكية نفوسهم، فقال ﷻ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

ولما دعا نبي الله موسى فرعون اختصر له دعوته في جملتين: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨ - ١٩].

ومن تأمل سورة الشمس، أدرك عظيم هذه الغاية، وخطورة هذه العبادة الجليلة، فإن الله تعالى أقسم أحد عشر قسمًا متتابعًا على أن فلاح النفس لا يكون إلا بتزكيتها! ولا يوجد في القرآن نظير لهذا - أعني تتابع أحد عشر قسمًا على مُقْسَمٍ واحد - وهو بلا ريب دليل واضح، وبرهان ساطع على خطورة هذا الموضوع.

(١) التحرير والتنوير: (١٢ / ٤٣).






إن منطوق هذه القاعدة القرآنية: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ يدل بوضوح أن أعظم أثر لهذه التزكية هو أثرها على نفس المتزكي، ومفهومها يتضمن تهديدًا: أنك إن لم تتزكَ يا عبد الله، فإن أعظم متضرر بإهمال التزكية هو أنت.

ولئن كانت هذه القاعدة تعني كل مسلم يسمعها، فإن حظ الداعيةِ وطالبِ العلم منها أعظم وأوفر؛ لأن الأنظار إليه أسرع، والخطأ منه أوقع، والنقد عليه أشد، ودعوته يجب أن تكون بحاله قبل مقاله.

ولعظيم منزلة تزكية النفس في الدين، كان الأئمة والعلماء المصنفون في العقائد يؤكدون على هذا الأمر بعبارات مختلفة، منها ما ذكره شيخ الإسلام ابنُ تيميه رحمه الله جملةً من الصفات السلوكية والأخلاقية لأهل السنّةِ، ومن ذلك قولُه: «يأمرون بالصبر عند البلاء والشكرِ عند الرخاء، ويدعون إلى مكارمِ الأخلاق ومحاسن الأعمالِ، ويعتقدون معنى قولِه ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانًا أَحسنُهُم خلقاُ»[1]... ويأمرون بمعالي الأخلاق وينهون عن سفاسفها»[2].

وإنما نص أئمة الدين على ذلك؛ لأن هناك تلازمًا وثيقًا بين السلوك والاعتقاد: فالسلوك الظاهرُ مرتبطٌ بالاعتقادِ الباطن، فأيُّ انحرافٍ في الأخلاقِ إنما هو من نقص الإيمان الباطن، قال ابنُ تيميه رحمه الله: «إذا نقصت الأعمالُ الظاهرةُ الواجبةُ، كانَ ذلك لنقص ما في القلب من الإيمان، فلا يُتصور مع كمال الإيمان الواجب الذي في القلب، أن تُعدم الأعمالُ الظاهرةُ الواجبةُ»[3].

(١) الترمذي ح (١١٦٢)، وغيره، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) مجموع الفتاوى: (٣/ ١٥٨-١٥٩).

(٣) ينظر: مجموع الفتاوى: (٧/ ٥٨٢، ٦٢١،٦١٦).




ويقول الشاطبيُّ رحمه الله: «الأعمالُ الظاهرةُ في الشرع دليلٌ على ما في الباطن، فإذا كان الظاهرُ منخرمًا أو مستقيمًا حُكم على الباطن بذلك»[1].

فالسلوكُ والاعتقادُ متلازمان، كذلك فإن من الأخلاقِ والسلوك ما هو من شُعَبِ الإيمان.

ولهذا: لما ظن بعض الناس -ومنهم بعض طلاب العلم- أن أمر التزكية سهلٌ أو يسير أو من شأن الوعاظ فحسب! يقال ذلك إما بلسان الحال أو بلسان المقال؛ وُجِدَت صورٌ كثيرة من التناقضات والفصام النكد بين العلم والعمل!

إن سؤالًا يتبادر إلى الذهن ونحن نتحدث عن هذه القاعدة القرآنية: كيف نزكي نفوسنا؟ والجواب عن هذا يطول جدًا، لكنني أشير باختصار إلى أهم وسائل تزكية النفس، فمن ذلك:

١- توحيد الله تعالى، وقوة التعلق به.

٢- ملازمة قراءة القرآن، وتدبره.

٣- كثرة الذكر عمومًا.

٤- المحافظة على الصلاة المفروضة، وقيام الليل ولو قليلًا.

٥- لزوم محاسبة النفس بين الفينة والأخرى.

٦- حضور الآخرة في قلب العبد.

٧- تذكر الموت، وزيارة القبور.

٨- قراءة سير الصالحين.

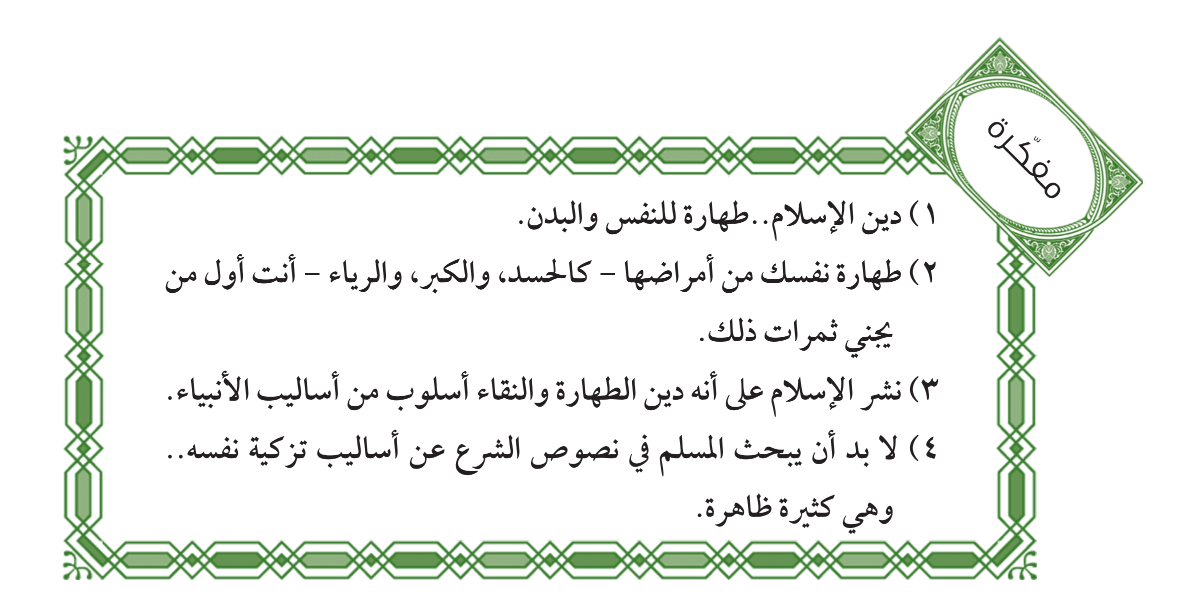
(١) الموافقات: (١/ ٢٣٣).



وفي مقابل هذا: فإن العاقل من يتنبه لسد المنافذ التي قد تُفسد عليه أثر تلك الوسائل؛ لأن القلب الذي يتلقى الوسائل والعوائق موضع واحد لا يمكن انفصاله.

إذن: لا يكفي أن يأتي الإنسان بالوسائل، بل لا بد من الانتباه إلى العوائق، مثل: النظر إلى المحرمات، أو سماع المحرمات، أو إطلاق اللسان فيما لا يعني -فضلًا عما حرم الله تعالى-.

اللهم إنا نسألك وندعوك بما دعاك به نبيك محمد ﷺ: «اللهم آت نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها اللهم إنا نعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها»[1].



مفكّرة

١) دين الإسلام..طهارة للنفس والبدن.

٢) طهارة نفسك من أمراضها - كالحسد، والكبر، والرياء - أنت أول من يجني ثمرات ذلك.

٣) نشر الإسلام على أنه دين الطهارة والنقاء أسلوب من أساليب الأنبياء.

٤) لا بد أن يبحث المسلم في نصوص الشرع عن أساليب تزكية نفسه.. وهي كثيرة ظاهرة.

(١) صحيح مسلم ح (٢٧٢٢).



هذه قاعدة قرآنية تتصل بواقع الناس، سواءٌ في أبواب المعاملات -وهذا الأصل في سياقها الذي وردت فيه- أم في أبواب تقييم الناس أو الأعمال، كما سيأتي بيانه قريبًا.

وهذه القاعدة القرآنية الكريمة تكررت ثلاث مرات في كتاب الله ﷻ، كلها في قصة شعيب عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

ومن المعلوم أن من جملة الأمور التي وعظ بها شعيبٌ قومَه: مسألة التطفيف في الكيل والميزان، حيث كان هذا فاشيًا فيهم، ومنتشرًا بينهم.

وهذا مثال -من جملة أمثلة كثيرة- تدل على شمول دعوات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لجميع مناحي الحياة، وأنهم كما يدعون إلى أصل الأصول -وهو التوحيد- فهم يدعون إلى تصحيح جميع المخالفات الشرعية،

(١) وردت هذه القاعدة ثلاث مرات في القرآن: الأعراف: ٨٥، وهود: ٨٥، والشعراء: ١٨٣.



مهما ظنّ بعض الناس أنها مخالفات هينة؛ إذ لا يتحقق كمال العبودية لله تعالى إلا بأن تكون أمور الدين والدنيا خاضعةً لسلطان الشرع.

وأنت إذا تأملت هذه القاعدة القرآنية: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ وجدتها جاءت بعد عموم النهي عن نقص المكيال والميزان، فهو عموم بعد خصوص؛ ليشمل جميع ما يمكن بخسه من القليل والكثير، والجليل والحقير.

قال العلامة الطاهر ابن عاشور رحمه الله: «وما جاء في هذا التّشريع هو أصل من أصول رواج المعاملة بين الأمّة؛ لأنّ المعاملات تعتمد الثّقة المتبادَلة بين الأمّة، وإنّما تحصل بشيوع الأمانة فيها، فإذا حصل ذلك نشط النّاس للتّعامل فالمُنتج يزداد إنتاجًا وعَرْضًا في الأسواق، والطَّالبُ من تاجر أو مُستهلك يُقبِل على الأسواق آمِنًا لا يخشى غبنًا ولا خديعة ولا خِلابة، فتتوفّر السّلع في الأمّة، وتستغني عن اجتلاب أقواتها وحاجياتها وتحسينياتها؛ فيقوم نَماء المدينة والحضارة على أساس متين ويَعيش النّاس في رخاء وتحابب وتآخ، وبضد ذلك يختلّ حال الأمّة بمقدار تفشي ضدّ ذلك»(١).

وقال بعض المفسرين -مبينًا سعة مدلول هذه القاعدة-:

«وهو عامّ في كل حق ثبت لأحد أن لا يهضم، وفي كل ملك أن لا يغصب عليه مالكه ولا يتحيف منه، ولا يتصرف فيه إلا بإذنه تصرفًا شرعيًّا»(٢).

إذا تبين سعة مدلول هذه القاعدة، وأن من أخص ما يدخل فيها: بخس الحقوق المالية؛ فإن دلالتها تتسع لتشمل كلّ حق حسي أو معنوي ثبت لأحدٍ من الناس.

---

(١) التحرير والتنوير: (٥/ ٤٥١).

(٢) تفسير الكشاف: (٣/ ٣٣٧).




أما الحقوق الحسية فكثيرة، منها: ما سبقت الإشارة إليه - كالحق الثابت للإنسان كالبيت والأرض والكتاب والشهادة الدراسية - ونحو ذلك.

وأما الحقوق المعنوية، فأكثر من أن تحصر، ولكن يمكن القول: إن هذه القاعدة القرآنية كما هي قاعدة في أبواب المعاملات، فهي بعمومها قاعدة من قواعد الإنصاف مع الغير.

والقرآن مليء بتقرير قاعدة الإنصاف، وعدم بخس الناس حقوقهم، تأمل -مثلًا- قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] فتصور! ربك يأمرك أن تنصف عدوك، وألا يحملك بغضه على غمط حقه، أفتظن أن دينًا يأمرك بالإنصاف مع عدوك، لا يأمرك بالإنصاف مع أخيك المسلم؟!

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله -معلقًا على هذه الآية-: «فنهى أن يحمل المؤمنين بغضُهم للكفار على ألا يعدلوا عليهم، فكيف إذا كان البغض لفاسق أو مبتدع متأول من أهل الإيمان؟! فهو أولى أن يجب عليه ألا يحمله ذلك على ألا يعدل على مؤمن وإن كان ظالمًا له»(١).

وفي واقع المسلمين ما يندى له الجبين من بخس للحقوق، وإجحاف وقلة الإنصاف، حتى أدى ذلك إلى قطيعة وتدابر، وصدق المتنبي يوم قال:

ولم تزل قلة الإنصاف قاطعة ... بين الرجال وإن كانوا ذوي رحم

---

(١) الاستقامة: (١/ ٣٨).



وهذا إمام دار الهجرة مالك بن أنس رحمه الله، يعلن شكواه قديمًا من هذه الآفة، فيقول: «ليس في الناس شيء أقل من الإنصاف».

علّق ابن رشد على هذه الكلمة فقال: «قال مالك هذا لما اختبره من أخلاق الناس، وفائدة الإخبار به التنبيه على الذم له؛ لينتهي الناس عنه فيعرف لكل ذي حق حقه»[1].

وقلّب صفحات التعامل في واقعنا:

يختلف أحدنا مع شخص آخر من أصدقائه، أو مع أحد من هل الفضل والخير، فإذا غضب عليه أطاح به، ونسي جميع حسناته، وجميع فضائله، وإذا تكلم عنه تكلم عليه بما لا يتكلم به أشد الناس عداوة، والعياذ بالله!

وقُلْ مثل ذلك: في تعاملنا مع زلة العالم، أو خطأ الداعية، الذين عرف عنهم جميعًا تلمس الخير، والرغبة في الوصول إلى الحق، ولكن لم يوفق في هذه المرة أو تلك، فتجد بعض الناس ينسى أو ينسف تاريخه وبلاءه وجهاده ونفعه للإسلام وأهله، بسبب خطأ لم يحتمله ذلك المتكلم أو الناقد، مع أنه قد يكون معذورًا فيه!

ولنفترض أنه غير معذور، فما هكذا تورد الإبل، وما هكذا يربينا القرآن! بل إن هذه القاعدة القرآنية التي نحن بصدد الحديث عنها تؤكد ضرورة الإنصاف، وعدم بخس الناس حقوقهم.

---

(١) البيان والتحصيل: (١٨/ ٣٠٦).

وثمة صورةٌ أخرى -تتكرر يوميًا تقريبًا- يغيب فيها الإنصاف، وهي أن بعض الكتاب والمتحدثين حينما ينتقد جهازًا حكوميًا، أو مسئولًا عن أحد الوزارات، يحصل منه إجحاف وبخس للجوانب المشرقة في هذا الجهاز أو ذاك، ويبدأ الكاتب أو المتحدث - بسبب النفسية التي دخل بها - لا يتحدث إلا من زاوية الأخطاء، ناسيًا أو متناسيًا النظر من زاوية الصواب والحسنات الكثيرة التي وُفق لها ذاك المرفق الحكومي، أو ذلك الشخص المسئول!

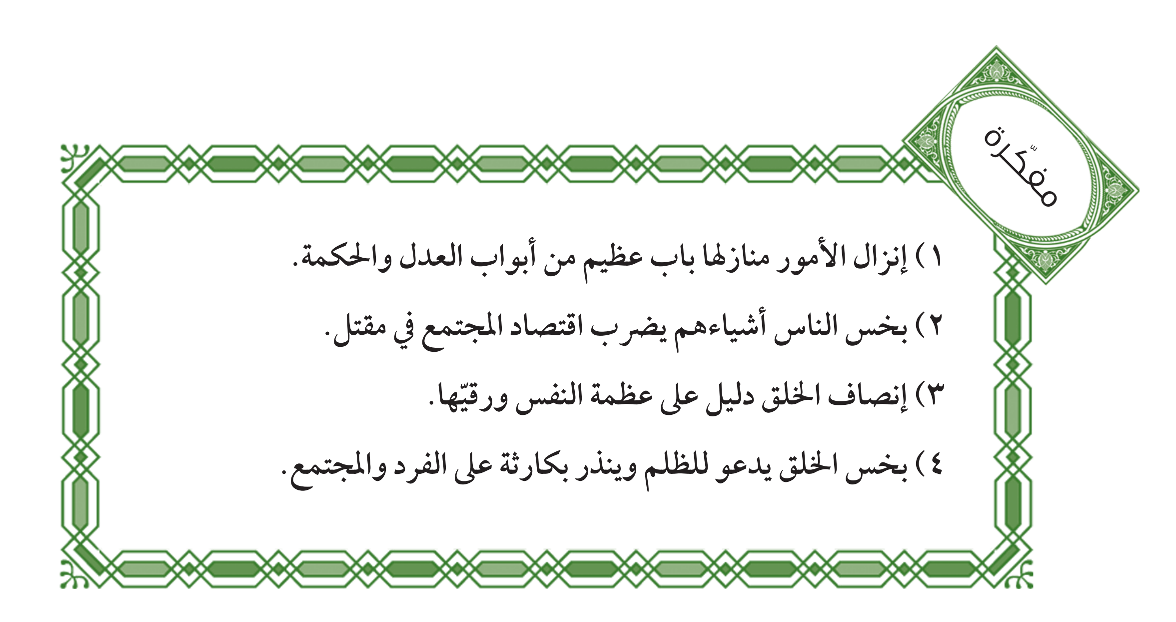
وما هكذا يربي القرآن أهله، بل القرآن يربيهم على هذا المعنى العظيم الذي دلّت عليه هذه القاعدة المحكمة: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾.

وتلوح ههنا صورة مؤلمة في مجتمعنا، تقع من بعض الكفلاء الذين يبخسون حقوق خدمهم أو عمالهم، فيؤخرون رواتبهم، وربما حرموهم من إجازتهم المستحقة لهم، أو ضربوهم بغير حق، في سلسلة مؤلمة من أنواع الظلم والبخس! أفلا يتقي الله هؤلاء؟! ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٤ - ٦] ألا يخشون أن يُسَلّطَ عليهم -بسبب ظلمهم لمن تحت أيديهم وبخسهم حقوق خدمهم وعمالهم- من يظلمهم ويبخسهم حقوقهم؟! ألا يخشون من عقوبات دنيوية -قبل الأخروية- تصيبهم بما صنعوا؟!




يقع البخس -أحيانًا- في تقييم الكتب أو المقالات على النحو الذي أشرنا إليه آنفًا، ولعل من أسباب غلبة البخس على بعض النقاد في هذه المقامات، أن الناقد يقرأ بنية تصيُّد الأخطاء والعيوب، لا بقصد التقييم المنصف، وإبراز الصواب من الخطأ، عندها يتضخم الخطأ، ويغيب الصواب، والله المستعان.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا الإنصاف من أنفسنا، والإنصاف لغيرنا، وأن يجعلنا من المتأدبين بأدب القرآن العاملين به.



مفكّرة

١) إنزال الأمور منازلها باب عظيم من أبواب العدل والحكمة.

٢) بخس الناس أشياءهم يضرب اقتصاد المجتمع في مقتل.

٣) إنصاف الخلق دليل على عظمة النفس ورقيّها.

٤) بخس الخلق يدعو للظلم وينذر بكارثة على الفرد والمجتمع.





هذه قاعدة قرآنية عظيمة الصلة بواقع الناس، وازدادت الحاجة إلى التنويه بها في هذا العصر الذي اتسعت فيه وسائل نقل الأخبار، وكثر فيها تكالب الأعداء بصنفيهم: المعلن والخفي.

ولكي تُفهم هذه القاعدة جيدًا، فلا بد من ذكر السياق الذي وردت فيه من سورة النساء، يقول تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء: ٤٤ - ٤٦].

وهذا -كما هو ظاهر-: «ذم لمن ﴿أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، وفي ضمنه تحذير عباده عن الاغترار بهم، والوقوع في أشراكهم، فأخبر أنهم في أنفسهم ﴿يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾

---

(١) النساء: ٤٥ .



أي: يحبونها محبة عظيمة، ويؤثرونها إيثار من يبذل المال الكثير في طلب ما يحبه؛ فيؤثرون الضلال على الهدى، والكفر على الإيمان، والشقاء على السعادة، ومع هذا ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾... فهم حريصون على إضلالكم غاية الحرص، باذلون جهدهم في ذلك.

ولكن لما كان الله ولي عباده المؤمنين وناصرهم، بيَّن لهم ما اشتملوا عليه من الضلال والإضلال، ولهذا قال: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ أي: يتولى أحوال عباده ويلطف بهم في جميع أمورهم، وييسر لهم ما به سعادتهم وفلاحهم، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ ينصرهم على أعدائهم، ويبين لهم ما يحذرون منهم ويعينهم عليهم، فولايته تعالى فيها حصول الخير، ونصره فيه زوال الشر، ثم بين كيفية ضلالهم وعنادهم وإيثارهم الباطل على الحق فقال: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ أي: اليهود وهم علماء الضلال منهم ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾...»[1] إلخ تلك الجرائم التي تلطخوا بها.

هؤلاء العلماء الضلال من أهل الكتاب صنف من أصناف الأعداء الذين حذرنا الله منهم، وإذا كان الله ﷻ يخبرنا هذا الخبر الصادق في هذه القاعدة القرآنية: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ﴾ فحري بنا أن نتأمل جيدًا فيمن وصفهم ربنا بأنهم أعداء لنا، فليس أصدق من الله قيلًا، ولا أصدق من الله حديثًا.

(١) تفسير السعدي: (ص١٨٠-١٨١).

وعلى رأس أولئك الأعداء:

١- عدو الله إبليس، الذي لم يأت تحذير من عدو كما جاء في التحذير منه، فكم في القرآن من وصفه بأنه عدو مبين؟ بل إن من أبلغ الآيات وضوحًا في بيان حقيقته وما يجب أن يكون موقفنا منه، هو قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]!

وقد جاء التعجب الصريح، والذم القبيح لمن قلب عداوة إبليس إلى ولاية، كما في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]؟!

٢- الكفار المحاربون لنا، ومن كان في حكمهم ممن يريد تبديل ديننا، أو طمس معالم شريعتنا، قال تعالى -في سياق آيات صلاة الخوف من سورة النساء-: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٠١].

قال أهل العلم: «والمعنى أن العداوة الحاصلة بينكم وبين الكافرين قديمة والآن قد أظهرتم خلافهم في الدين وازدادت عداوتهم وبسبب شدة العداوة أقدموا على محاربتكم وقصد إتلافكم إن قدروا فإن طالت صلاتكم فربما وجدوا الفرصة في قتلكم»[١].

---

(١) ينظر: تفسير الرازي (١١/ ١٩).

وفي سورة الممتحنة ما يجلي هذا النوع من الأعداء، يقول ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١ إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ١ - ٢].

فهذا النوع من الكفار حرم الله علينا مودتهم وموالاتهم، وعلل القرآن هذا بقوله: ﴿وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ﴾ إلى آخر الآيات.

ومن كمال الشريعة أنها فرقت بين أنواع الكفار، فقال الله تعالى في نفس سورة الممتحنة -التي حذرنا ربنا فيها من موالاة الصنف السابق-: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨ - ٩].

٣- والصنف الثالث الذين نص القرآن على عداوتهم، بل وشدتهم: هم المنافقون، الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، وتتجلى شدة عداوة هذا الصنف في أمور:

أولًا: أنه لم يوصف في القرآن كله من فاتحته إلى خاتمته شخص أو فئة بأنه «العدو» معرفًا بـ (أل) إلا المنافقون، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤].




ثانيًا: لم يأت تفصيل في القرآن والسنة لصفات طائفةٍ أو مذهب كما جاء في حق المنافقين، وتأمل أوائل سورة البقرة يكشف لك هذا المعنى بوضوح.

يقول ابن القيم رحمه الله: «وقد هتك الله سبحانه أستار المنافقين وكشف أسرارهم في القرآن وجلّى لعباده أمورهم ليكونوا منها ومن أهلها على حذر.

وذكر طوائف العالم الثلاثة في أول سورة البقرة: المؤمنين والكفار والمنافقين، فذكر في المؤمنين أربع آيات، وفي الكفار آيتين، وفي المنافقين ثلاث عشرة آية؛ لكثرتهم، وعموم الابتلاء بهم، وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله، فإن بلية الإسلام بهم شديدة جدًا؛ لأنهم منسوبون إليه وإلى نصرته وموالاته وهم أعداؤه في الحقيقة.

يخرجون عداوته في كل قالب، يظن الجاهل أنه علم وإصلاح، وهو غاية الجهل والإفساد!

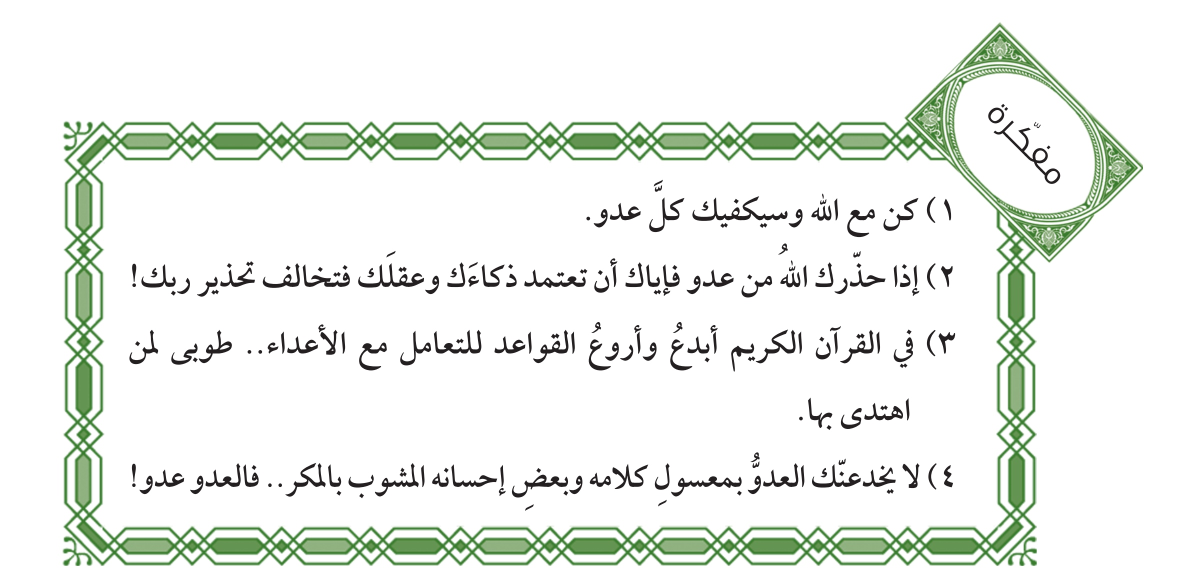
فلله كم من معقل للإسلام قد هدموه! وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخربوه! وكم من علم له قد طمسوه! وكم من لواء له مرفوع قد وضعوه! وكم ضربوا بمعاول الشبه في أصول غراسه ليقلعوها! وكم عمّوا عيون موارده بآرائهم ليدفنوها ويقطعوها! فلا يزال الإسلام وأهله منهم في محنة وبلية ولا يزال يطرقه من شبههم سرية بعد سرية، ويزعمون أنهم بذلك مصلحون! ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون»[1].

(١) مدارج السالكين: (١/ ٣٤٧).



إذا تبين هذا، اتضح لنا أهمية تأمل هذه القاعدة القرآنية: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡ﴾، وأن لا تخدعنا عن معرفة حقائق أعدائنا ظروف استثنائية، أو أحوال خاصة، فإن الذي أخبرنا بهؤلاء الأعداء هو الله الذي خلقهم وخلقنا، ويعلم ما تكنه صدور العالمين أجمعين، ﴿أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت:١٠]، ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]؟!

اللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه.



١) كن مع الله وسيكفيك كلَّ عدو.

٢) إذا حذّرك اللهُ من عدو فإياك أن تعتمد ذكاءَك وعقلَك فتخالف تحذير ربك!

٣) في القرآن الكريم أبدعُ وأروعُ القواعد للتعامل مع الأعداء.. طوبى لمن اهتدى بها.

٤) لا يخدعنّك العدوُّ بمعسولِ كلامه وبعضِ إحسانه المشوب بالمكر.. فالعدو عدو!



القاعدة الثلاثون

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[1]

هذه قاعدة قرآنية، وقاعدة إيمانية، تمتد جذورها في قلوب الموحدين، في غابر الزمان وحاضره، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ومعنى هذه القاعدة ظاهر بيّن، فإنها تدل على أن من توكل على ربه ومولاه في أمر دينه ودنياه، بأن يعتمد على الله في جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، وفعل ما أمر به من الأسباب، مع كمال الثقة بتسهيل ذلك، وتيسيره ﴿فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ أي: كافيه الأمر الذي توكل عليه به[2].

إن هذه القاعدة القرآنية: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ جاءت في سياق الحديث عن آيات الطلاق في سورة الطلاق، لبيان جملة من المبشرات التي تنتظر من طبق شرع الله في أمر الطلاق، فقال ﷻ: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢ – ٣].

---

(١) الطلاق: ٣.

(٢) ينظر: تفسير السعدي (٨٦٩).



وأما مناسبة مجيء هذا المعنى بعد ذكر هذه الأحكام المتعلقة بالطلاق، فلعل السر -والله أعلم- هو تضمنها للتحذير والتطمين!

أما التحذير: فهو متجه لكل واحد من الزوجين اللذين قد تسول له نفسه مجاوزة حدود الله تعالى في أمر الطلاق، سواء فيما يتعلق بالعدة، أو النفقة، أو غير ذلك، خصوصًا وأن النفوس حال الطلاق قد تكون مشحونةً، وغير منضبطةٍ في تصرفاتها غالبًا، وقد تتصرف بما تمليه حالة الغضب، بلا تجرد ولا إنصاف!

وأما التطمين: فهي لمن صدق مع الله في تطبيق شرع ربه في أمر الطلاق، وأنه وإن كيد به أو له، فإن الله معه، وناصره، وحافظ حقه، ودافع كيد من يريد به كيدًا، والله أعلم بمراده.

ومع أن هذه القاعدة وردت في سياق آيات الطلاق -كما أسلفتُ- إلا أن معناها أعم وأشمل من أن يُختصر في هذا الموضوع، وآيات القرآن الكريم طافحة بالحديث عن التوكل، وفضله، والثناء على أهله، وأثره على حياة العبد.

وقبل الإشارة المجملة إلى ذلك: **يحسن التذكير** بأن النصوص دلّت على أن من كمال التوكلِ فعلُ الأسباب، وهذا بيِّن ظاهرٌ، لكن ينبَّه عليه؛ لأن بعض الناس قد يظن -خطأً- أن التوكل يعني تعطيل الأسباب! وهذا غلط بيّن، ومن تأمل قصة موسى عليه السلام لما واجه البحر، وقصة مريم عليها السلام لما ولدت، وغيرهم من الأولياء والصالحين، يجد أنهم جميعًا أُمِروا بفعل أدنى سبب، فموسى أُمِر بضرب الحجر، ومريم أُمِرت بهز الجذع، وما أحسن ما قيل:

«**الالتفاتُ** إلى الأسباب بالكلية شركٌ منافٍ للتوحيد، **وإنكار** أن تكون أسبابًا بالكلية قدح في الشرع والحكمة، **والإعراضُ** عنها -مع العلم بكونها أسبابًا- نقصان في العقل، **وتنزيلها** منازلها ومدافعة بعضها ببعض، وتسليط بعضها على بعض، هو محض العبودية والمعرفة وإثبات التوحيد والشرع والقدر والحكمة»[1].

إنّ التّوكُّل على الله ﷻ مطلوب في كلّ شئون الحياة، بيد أنّ هناك مواطن كثيرة ورد فيها الحضّ على التّوكّل والأمر به للمصطفى ﷺ والمؤمنين! ورسائل القرآن تقول:

«١- إن طلبتم النّصر والفرج فتوكّلوا عليه: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

٢- إذا أعرضت عن أعدائك فليكن رفيقك التّوكُّل: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء:٨١].

٣- إذا أعرض عنك الخلق فتوكّل على ربك: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [التوبة: ١٢٩].

٤- إذا طلبت الصّلح والإصلاح بين قوم لا تتوسّل إلى ذلك إلّا بالتّوكّل: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١].

٥- إذا وصلت قوافل القضاء فاستقبلها بالتّوكّل: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

---

(١) مدارج السالكين: (١/ ٢٤٤) بتصرف.

٦- وإذا نصبت الأعداء حبالات المكر فادخل أنت في أرض التّوكّل: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ [يونس: ٧١].

٧- وإذا عرفت أنّ مرجع الكلّ إلى الله وتقدير الكلّ فيها لله؛ فوطّن نفسك على فرش التّوكّل: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ [هود: ١٢٣].

٨- وإذا علمت أنّ الله هو الواحد على الحقيقة، فلا يكن اتّكالك إلّا عليه: ﴿قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠].

٩- وإذا كانت الهداية من الله، فاستقبلها بالشّكر والتّوكّل: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢].

١٠- وإذا خشيت بأس أعداء الله، والشّيطانَ والغُدّارَ فلا تلتجئ إلّا إلى باب الله: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩].

١١- وإذا أردت أن يكون الله وكيلك في كلّ حال، فتمسّك بالتّوكّل في كلّ حال: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ [النساء:٨١].

١٢- وإذا أردت أن يكون الفردوس الأعلى منزلك فانزل في مقام التّوكّل: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤٢].

١٣- وإن شئت أن تنال محبّة الله فانزل أوّلا في مقام التّوكّل: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].




١٤- وإذا أردت أن يكون الله لك، وتكون لله خالصا فعليك بالتّوكّل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]»[١].

وقبل أن نختم حديثنا عن هذه القاعدة القرآنية: أود أن أنبه إلى ما ذكره العلامة ابن القيم رحمه الله مِن أن كثيرًا من المتوكلين يكون مغبونًا في توكله!

وبيان ذلك -كما يقول-: أنك ترى بعض الناس يصرف توكله إلى حاجة جزئية استفرغ فيها قوة توكله، مع أنه يمكنه نيلها بأيسر شيء، وفي المقابل ينسى أو يغفل عن تفريغ قلبه للتوكل في زيادة الإيمان، والعلم، ونصرة الدين، والتأثير في العالم خيرًا، فهذا توكل العاجز القاصر الهمة، كما يصرف بعضهم همته وتوكله ودعاءه إلى وجع يمكن مداواته بأدنى شيء، أو جوع يمكن زواله بنصف رغيف، أو نصف درهم، ويدع صرفه إلى نصرة الدين، وقمع المبتدعين، وزيادة الإيمان ومصالح المسلمين[٢].

وههنا ملحظ مهم يستفاد من كلامه رحمه الله: وهو أن الواحد منا -في حال نشاطه وقوة إيمانه- قد يقع منه نسيان وغفلة عن التوكل على الله؛ اعتمادًا على ما في القلب من قوة ونشاط، وهذا غلط ينبغي التنبه إليه، والحذر منه، ومن تأمل في أدعية النبي ﷺ وجده دائم الافتقار إلى ربه، ضارعًا إلى ربه أن لا يكله إلى نفسه طرفة عين، حتى ربى أمتَه على هذا المعنى في شيءٍ قد يظنه البعض بسيطًا أو سهلًا، وهو أن يقولوا: «لا حول ولا قوة إلا بالله» عند سماع المؤذن في الحيعلتين![٣].

---

(١) جميع ما تقدم من ١ - ١٤ من كلام الإمام اللغوي المفسر الفيروز آباديّ رحمه الله في كتابه: «بصائر ذوي التمييز»: (٢/ ٣١٣-٣١٥) باختصار يسير.

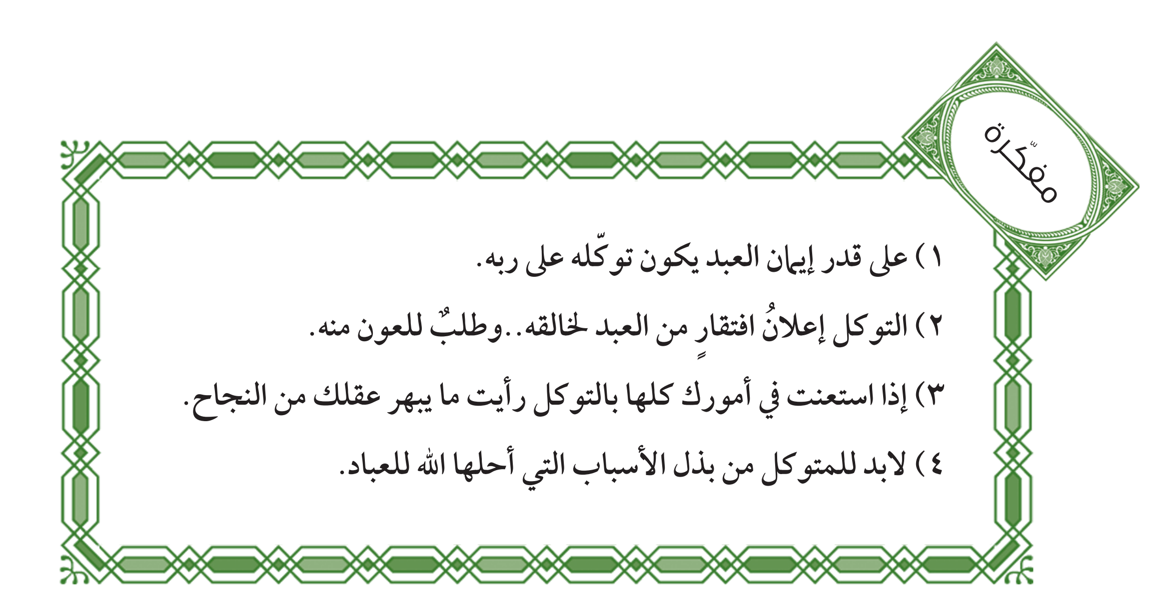
(٢) ينظر: مدارج السالكين: (٢/ ٢٢٥) بتصرف.

(٣) أخرجه الشيخان: البخاري ح (٥٨٨) ومسلم ح (٣٨٥)، ولم أشأ أن أستشهد بالحديث الذي



وقد أجمع العلماء على أن التوفيق: ألّا يكل اللهُ العبدَ إلى نفسه، وأن الخذلان كل الخذلان: أن يخلي بينه وبين نفسه!

اللهم إنا نبرأ من كل حول وقوة إلا من حولك وقوتك، ونعوذ بك أن نوكل إلى أنفسنا طرفة.



١) على قدر إيمان العبد يكون توكّله على ربه.

٢) التوكل إعلانُ افتقارٍ من العبد لخالقه..وطلبٌ للعون منه.

٣) إذا استعنت في أمورك كلها بالتوكل رأيت ما يبهر عقلك من النجاح.

٤) لابد للمتوكل من بذل الأسباب التي أحلها الله للعباد.

رواه أبو داود وابن حبان وغيرهما: من حديث عبد الرحمن بن أبي بكرة أنه قال لأَبِيهِ ﵁: يا أبةِ إِنِّي أسمعُكَ تدعُو كلَّ غَدَاةٍ: «اللَّهُمَّ عافني في بدني، اللَّهُمَّ عافني في سمعي، اللَّهُمَّ عافني في بصري، لا إِلَهَ إِلَّا أنت»، تُعِيدُها ثلاثًا حين تُصبحُ، وثلاثًا حين تُمسي؟ فقال: إِنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يدعو بهنَّ، فأنا أُحِبُّ أنْ أستنَّ بسُنَّتِه. قال عبَّاسٌ فِيهِ: وَتَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أعوذُ بك من الكفرِ والفقرِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أعوذُ بك من عذابِ القبرِ، لا إله إِلَّا أنت»، تعيدها ثلاثًا حين تصبحُ، وثلاثًا حين تمسي، فتدعُو بهنَّ، فأُحِبُّ أن أَسْتَنَّ بسُنَّتِه. قال: وقال رسولُ الله ﷺ: «دَعَوَاتُ المكْرُوبِ: اللَّهُمَّ رحمتَكَ أَرْجُو، فلا تَكِلْنِي إلى نفسي طَرْفَةَ عينٍ، وأصلحْ لي شأني كلَّهُ، لا إله إلَّا أنتَ»؛ **لأن إسناده ضعيف**، وينظر في تخريجه: مسند أبي داود الطيالسي (٢/ ٢٠٠) ح (٩٠٩، ٩١٠) والله أعلم.



القاعدة الحادية والثلاثون

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾[1]

هذه قاعدة قرآنية وإيمانية، وثيقة الصلة بواقع الناس الاجتماعي، بل وبأخص تلك العلاقات الاجتماعية، تلكم هي **القاعدة القرآنية** التي دل عليها قول الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [النساء: ١٩].

وهذه القاعدة القرآنية المحكمة جاءت ضمن سياق توجيه رباني عظيم، يقول الله تعالى فيه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٩].

ومما يعين على فهم هذه القاعدة، أن نُذَكِّرَ بسبب نزول هذه الآية الكريمة، فقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضُهم تزوجها، وإن شاءوا زَوَّجُوها، وإن شاؤوا لم يُزَوِّجوها، فهم أحق بها من أهلها، فنزلت هذه الآية في ذلك[2].

(١) النساء: ١٩.

(٢) البخاري (٤٣٠٣).

يقول العلامة ابن العربي المالكي:

«وحقيقة: (عشر) في اللغة العربية الكمال والتمام، ومنه: العشيرة، فإنه بذلك كمل أمرهم، وصح استبدادهم عن غيرهم، وعشرةٌ تمام العقد في العدد، فأمر الله سبحانه الأزواج إذا عقدوا على النساء أن يكون أَدَمَةُ ما بينهم وصحبتهم على التمام والكمال، فإنه أهدأ للنفس، وأقر للعين، وأهنأ للعيش، وهذا واجب على الزوج، ومن سقوط العشرة تنشأ المخالعة، وبها يقع الشقاق، فيصير الزوج في شق، وهو سبب الخلع»[١].

ويقول العلامة الجصاص الحنفي رحمه الله معلقًا على هذه القاعدة ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾:

هو «أمر للأزواج بعشرة نسائهم بالمعروف، ومن المعروف: أن يوفيها حقها من المهر، والنفقة، والقَسْمِ، وترك أذاها بالكلام الغليظ، والإعراضِ عنها والميل إلى غيرها، وترك العبوس والقطوب في وجهها بغير ذنب»[٢].

إن من تأمل وتدبر دلالات هذه القاعدة العظيمة: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ أدرك أن هذا القرآن هو حقًا كلام الله عز وجل، وبيان ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن هذه القاعدة رغم قصر كلماتها - وهي كما ترى - كلمتان، اشتملت على معانٍ عظيمة، يطول شرحها، وما حديثنا عنها هنا إلا إضاءة وإشارة فحسب.

(١) أجكام القرآن: (٢/ ٣٦٣) لابن العربي، بتصرف يسير.

(٢) أحكام القرآن: (٣/ ٤٧) للجصاص.

الوجه الثاني: أن الله تعالى ردّ أمر المعاشرة إلى العرف، ولم يحدده بشيء معين؛ لاختلاف الأعراف والعادات بين البلدان كما هو معروف وظاهر، ولاختلاف مكانة الأزواج من الناحية المالية والاجتماعية، إلى غير ذلك من صور التفاوت التي هي من سنن الله في خلقه.

وليست هذه هي القضية الوحيدة التي يَرُدُّ الشرعُ فيها أمور التعامل إلى العرف، بل جاء ذلك في مواضع كثيرة، من ألصقها بما نحن بصدد الحديث عنه، قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فكما أن القاعدة التي نحن بصددها: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ تأمر الأزواج بمعاشرة أزواجهم بالمعروف، فإن هذه الآية: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨] تأمر كلا الطرفين بذلك.

ويقول: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

ويقول جل شأنه: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٣١].

وفي شأن النفقة على المرضع والمرتضع يقول الله ﷻ: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] إذ ليست نفقة الغني كنفقة الفقير، ولا نفقة الموسر كالمعسر.

ولعظيم موقع هذه المعاني التي دلت عليها هذه القاعدة القرآنية: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أكّد النبي ﷺ هذه الحقوق في أعظم مجمع عرفته الدنيا في ذلك الوقت؛ حين خطب الناس في يوم عرفة فقال: «فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله،

واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف»(١).

والآيات والأحاديث في هذا الباب كثيرة جدًّا.

والمقصود التنبيه على عظيم موقع هذه القاعدة الشرعية، والتي يتألم المؤمن من كثرة ما يرى من هتك لحرمتها، وعدم مراعاة لحدودها! فترى بعض الرجال لا يحسن إلا حفظ وترديد الآيات والحقوق التي تخصه، ولا يتحدث عن النصوص التي تؤكد حقوق زوجته، فويل للمطففين.

وفي المقابل فإن على الزوجة أن تتقي الله ﷻ في زوجها، وأن تقوم بحقوقه قدر الطاقة، وأن لا يحملها تقصير زوجها في حقها على مقابلة ذلك بالتقصير في حقه، وعليها أن تصبر وتحتسب.

وليتدبر كلٌ من الزوجين ما قصّه الله تعالى في سورة الطلاق من أحكام وتوجيهات عظيمة، فإن الله تعالى -لما ذكر أحكامًا متنوعة في تلك السورة- عقّبَ على كل حكم بذكر فوائد التقوى التي هي سبب كل خير، فقال ﷻ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ [الطلاق: ٢ - ٣]، وقال ﷻ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: ٤]، وقال تقدس اسمه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾ [الطلاق: ٥]؛ **ولعل السر في تتابع هذه التعقيبات**: أن أحوال الطلاق والفراق

(١) مسلم (١٢١٨).




-مع وجود الحمل والإرضاع أو بقاء العدة- قد تحمل أحد الطرفين على التقصير والبغي، ونحو ذلك من التجاوزات، فجاءت هذه التعقيبات الإلهية لتبشر المتقين، ولتحذير المجانفين للتقوى، بأن أضداد هذه الوعود الإلهية ستحصل إن أنتم فرطتم في تطبيق شرع الله، ويوضح هذا المعنى ختم السورة بهذه الآية المخوفة: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا...﴾ الآيات [الطلاق: ٨-١٠].

لقد كان سلف هذه الأمة يفقهون حقًا معاني هذه النصوص العظيمة، ومن ذلك هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، فهذا حبر الأمة وترجمان القرآن ابن عباس رضي الله عنه، يقول: «إني أحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي المرأة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وما أحب أن أستنطف -أستوفي- جميع حقي عليها؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾»[(١)].

وقال يحيى بن عبد الرحمن الحنظلي: أتيت محمد ابن الحنفية فخرج إلي في ملحفة حمراء ولحيته تقطر من الغالية -وهو نوع نفيس من الطيب- فقلت: ما هذا؟ قال: إن هذه الملحفة ألقتها علي امرأتي ودهنتني بالطيب، وإنهن يشتهين منَّا ما نشتهيه منهن[(٢)].

---

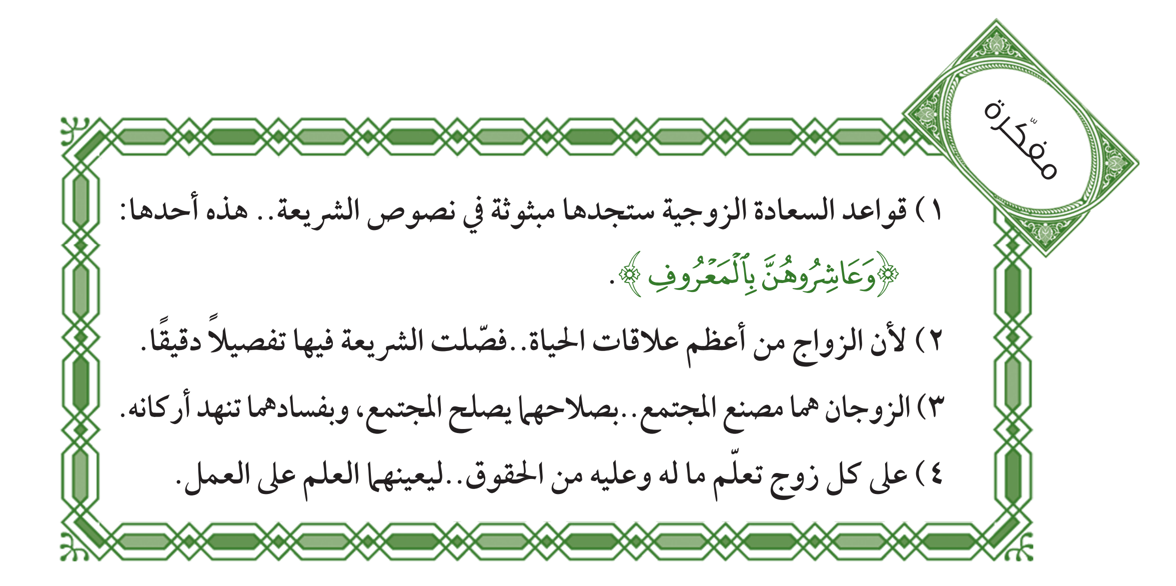
(١) مصنف ابن أبي شيبة: (١٠/ ٢١٠) ح (١٩٦٠٨).

(٢) ذكرها القرطبي في تفسيره: (٦/ ١٦٠).



وبعد: هذه هي نظرة الإسلام العميقة للعلاقة الزوجية، اختصرتْها هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾، وكذلك: ﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِى عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ فهي علاقة قائمة على المعاشرة بالمعروف، وعلى الصبر على ما قد يبدر من الطرفين من تقصير، فإن كانت العلاقة غير قابلة للاستمرار فيأتي الأمر بالتسريح بالمعروف -أيضًا- الذي يحفظ حق الكرامة لكلا الطرفين؛ كلُّ هذا يجعل المؤمن يفخر ويحمد الله على هدايته وانتمائه لهذه الشريعة العظيمة الكاملة من كل وجه، وينظر بعين المقت لتلك الأقلام الدنسة، والدعوات الخبيثة التي تجرئ المرأة -إذا رأت من زوجها ما تكره- وتوحي للرجل -إذا رأى من زوجته ما يكره- أن ينحرف قلبه عن مساره الشرعي ليقيم علاقةً محرمةً مع هذه أو ذاك!!

اللهم كما هديتنا لهذه الشريعة فارزقنا العمل بها، والثبات عليها حتى نلقاك.



١) قواعد السعادة الزوجية ستجدها مبثوثة في نصوص الشريعة.. هذه أحدها: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾.

٢) لأن الزواج من أعظم علاقات الحياة..فصّلت الشريعة فيها تفصيلاً دقيقًا.

٣) الزوجان هما مصنع المجتمع..بصلاحهما يصلح المجتمع، وبفسادهما تنهد أركانه.

٤) على كل زوج تعلّم ما له وعليه من الحقوق..ليعينهما العلم على العمل.



القاعدة الثانية والثلاثون

﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ (١)

هذه قاعدة قرآنية إيمانية، وثيقة الصلة بالواقع الذي تعيشه الأمة اليوم بالذات، وهي تعيش هذه التغيرات المتسارعة، والتي خالها البعض خارجةً عن سنن الله تعالى!! وليس الأمر كذلك.

وهذه القاعدة الكريمة جاءت في سياق تهديد الكفار الذين قابلوا الدعوة إلى الإسلام بالتكذيب والجحود، والاستهزاء والسخرية، قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٢ - ٤٨].

فقوله ﷻ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ...﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ والمعنى: أن هؤلاء الكفار يقولون: «لو كان محمد صادقًا في وعيده لعُجِّلَ لنا وعيدُه، فكانوا يسألونه التعجيل بنزول العذاب استهزاء،

(١) الحج: ٤٧.



كما حكى الله عنهم في قوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وفي قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فذكر ذلك في هذه الآية بمناسبة قوله: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ الآية، وحكي: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ بصيغة المضارع؛ للإشارة إلى تكريرهم ذلك؛ تجديدًا منهم للاستهزاء وتوركًا على المسلمين»[1].

ثم جاء التعقيب على هذه المقالة الآثمة، بهذه القاعدة التي تسكب اليقين والطمأنينة في نفس النبي ﷺ ونفوسِ أتباعه من المؤمنين المضطهدين، الذين امتلأت آذانهم من استهزاء هؤلاء الكفار، فقال الله -وهو أصدق من وعد وأصدق من وفّى- ﷻ: ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾.

وإذا تقرر أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فإن هذه القاعدة القرآنية: ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ لا تختص بهذا المعنى الذي وردت الآية في سياقه -وهو تعذيب الكفار- بل هي عامة في كل ما وعد الله به؛ إذ لا مكره لربنا ﷻ، ولا راد لأمره ومشيئته، ولكن الشأن في تحقق العباد بفعل الأسباب المتعلقة بها وعد الله به.

كما أن هذه القاعدة القرآنية: ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ دلّت على معنى يُقَرّرُ بعض اللغويين خلافه، وهو أنه اشتهر عند كثيرين أن الوعد خاص بالخير، والوعيد متعلق بالشر، وينشدون في هذا البيتين المشهورين:

---

(١) التحرير والتنوير: (١٧/ ٢١٠).




ولا يرهب ابن العم والجار سطوتي ولا أنثني عن سطوة المتهدد

فإني وإن أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

وهذه القاعدة التي نحن بصددها تخالف هذا الإطلاق، يقول العلامة الشنقيطي -بعد أن ذكر عدة شواهد تؤكد خطأ هذا الإطلاق-: «ومن الآيات الموضحة لذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحج:٧٢] فإنه قال في هذه الآية في النار: ﴿وَعَدَهَا اللَّهُ﴾ بصيغة الثلاثي الذي مصدره الوعد، ولم يقل: أوعدها، وما ذكر في هذه الآية، من أن ما وعد به الكفار من العذاب واقع لا محالة، وأنه لا يخلف وعده بذلك، جاء مبينًا في غير هذا الموضع... -ثم ذكر جملة من الشواهد، ثم قال-: وبالتحقيق الذي ذكرنا: تعلَم أن الوعد يطلق في الخير والشر كما بينا»[1].

إذا تقرر عموم هذه القاعدة في الخير والشر، فإنها -بلا ريب- من أعظم ما يجدد الفأل في نفوس أهل الإسلام، في الثبات على دينهم ومنهجهم الحق، بل وتزيدهم يقينًا بما عليه أهل الكفر والملل الباطلة من ضلال وانحراف، وبيان هذا: أن المؤمن لا يزال يرى -إما بعين البصر أو البصيرة- صدق ما وعد به أولياءه في الدنيا، كيف لا وهو يقرأ نماذج مشرقة في كتاب الله ﷻ؟!

ألسنا نقرأ قول ربنا في سورة آل عمران في سياق الحديث عن غزوة أحد: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾ [آل عمران: ١٥٢]؟

(١) أضواء البيان: (٥/ ٢٧٦).



أين نحن عن فواتح سورة الروم التي يقول الله تعالى فيها: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ١ – ٧].

وهذه الآيات من سورة الروم، تشير إلى سبب كبير في ضعف اليقين تجاه الوعود الربانية، ألا وهو: التعلق بالدنيا، والركون إليها، ولهذا فإنك لو تأملتَ لوجدت أن أضعف الناس يقينًا بموعود الله هم أهل الدنيا، الراكنين إليها، وأقواهم يقينًا هم العلماء الربانيون، وأهل الآخرة، جعلنا الله منهم بمنِّه وكرمه.

ولا يشكل على هذا ما يمر على القارئ من آيات قد يفهم منها أن فيها نوعًا من التردد في تصديق وعد الله، أو الشك في ذلك، كقوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وكقوله ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠]، فإن هذه الآيات إنما تحكي حالةً عارضة تمر بالإنسان –بسبب ضعفه حينًا، وبسبب استعجاله أحيانًا– وليست حالةً دائمةً، وإذا كان الشك في موعود الله لا يصح أن ينسب إلى آحاد المؤمنين،



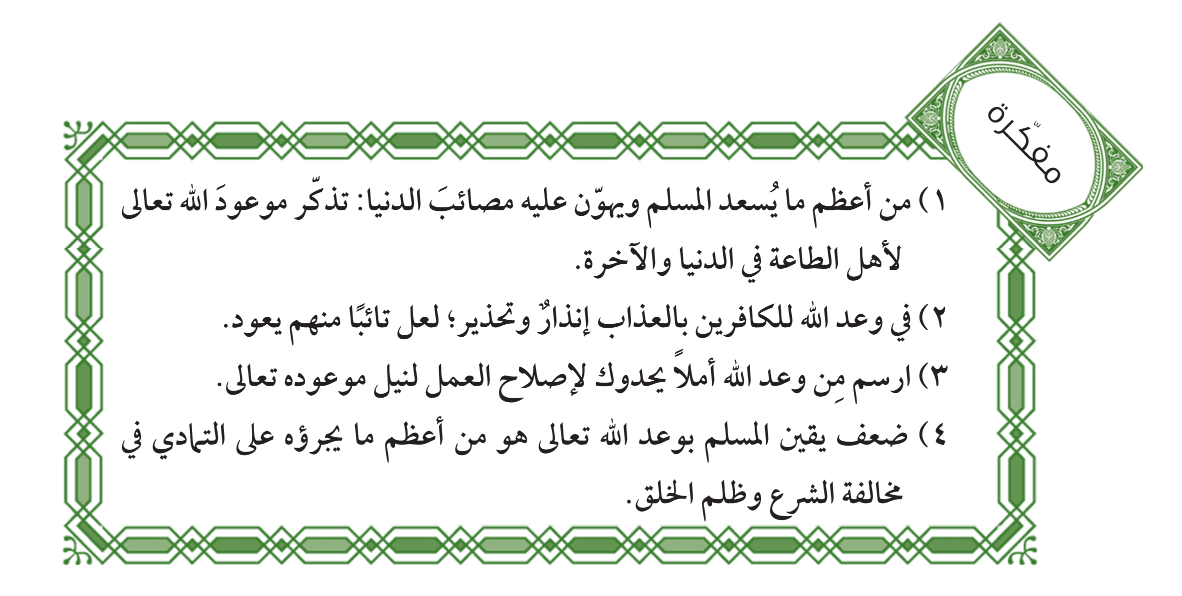

فهو من الأنبياء والمرسلين أبعد وأبعد، ولكن - ولحكمة بالغة - جاءت هذه الآيات لتطمئن المؤمنين من هذه الأمة أن حالات اليأس التي قد تعرض للعبد مجرد عرْض بسبب شدة وطأة أهل الباطل، أو تسلط الكفار، فإنها لا تؤثر على إيمانه، ولا تقدح في صدقه وتصديقه؛ ولهذا -والله تعالى أعلم- يأتي مثل هذا التثبيت في بعض الأحوال التي تعترض نفوس أهل الإيمان فترة نزول الوحي، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: ٤٢ - ٤٧].

والمؤمن ليس من شأنه أن يقترح أجلًا لإهلاك الكفار، أو موعدًا لنصر الإسلام، أو غير ذلك من الوعود التي يقرأها في النصوص الشرعية، ولكن من شأنه أن يسعى في نصرة دينه بما يستطيع، وأن لا يظل ينتظر مضي السنن؛ فإن الله لم يتعبدنا بهذا، وعليه أن يفتش في مقدار تحققه بالشروط التي ربطت بها تلك الوعود، فإذا قرأ -مثلًا- قول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧] فعليه هنا أن يفتش عن أسباب النصر التي أمر الله بها: هل تحققت فيه فردًا أو في الأمة على سبيل المجموع؛ ليدرك الجواب على هذا السؤال: لماذا لا تنتصر الأمة على أعدائها؟!

ولو ذهب الإنسان إلى تعداد الآيات الموضحة لهذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ لطال به المقام، ولكن حسبنا ما ذكر.



ولعلنا نختم هذه القاعدة بهذه اللطيفة المتصلة بها: ذلك أن هذه القاعدة تضمنت تمدّح الله بهذا، وثناءه على نفسه، ويتضح لك هذا المعنى إذا قرأت ما حكاه الله تعالى عن إبليس -وهو يخطب في حزبه وأوليائه في جهنم- حيث يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ فسبحان مَنْ تمدح بالكمال وهو أهلٌ له، وسبحان من وعد فأوفى، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:١١١]؟



١) **من أعظم ما يُسعد المسلم ويهوّن عليه مصائبَ الدنيا: تذكّر موعودَ الله تعالى لأهل الطاعة في الدنيا والآخرة.**

٢) **في وعد الله للكافرين بالعذاب إنذارٌ وتحذير؛ لعل تائبًا منهم يعود.**

٣) **ارسم مِن وعد الله أملاً يحدوك لإصلاح العمل لنيل موعوده تعالى.**

٤) **ضعف يقين المسلم بوعد الله تعالى هو من أعظم ما يجرؤه على التمادي في مخالفة الشرع وظلم الخلق.**



القاعدة الثالثة والثلاثون

﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾[1]

هذه قاعدة قرآنية، وضوابط شرعية في مسألة حدث ولا زال يحدث فيها الخلل؛ بسبب القصور أو التقصير في تلمس الهدي القرآني في تطبيق تلكم **القاعدة القرآنية**.

وهذه القاعدة القرآنية المحكمة جاءت في أثناء قصة قارون، الذي غرّه ماله، وغرته نفسه الأمارة بالسوء، فقال - لما قيل له: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧] فقال قولة المستكبر -: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: ٧٨] نعوذ بالله من الخذلان.

والشاهد: أن هذه القاعدة هي ميزان عظيم في التعامل مع المال، الذي هو مما استخلف الله العباد عليه، ولهذا سيسألهم يوم القيامة عنه سؤالين: من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ كما في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه[2].

---

(١) القصص: ٧.

(٢) الترمذي (٢٤١٧) وإسناده حسن، وفي الباب عن ابن مسعود رضي الله عنه وفي سنده ضعف.

إن من أعظم مزايا هذا الدين ومحاسنه، أنه دين يدعو إلى التوازن في كل شيء، من غير إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا جفاء -في أمر الدين أو الدنيا- وهذا ما تقرره هذه القاعدة بوضوح وجلاء: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾، ولو تأملنا هذه الآية لوجدنا ترتيب الكلام فيها كأنه عقد نُظِمَ كأحسن ما يكون النَّظم، فهي قد اشتملت على أربعة وصايا عظيمة، أحوج الناس إليها -في هذا المقام- هم أرباب الأموال، فلنتأملها جميعًا:

الأولى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ فإن الآخرة هي المستقبل الذي يجب على كل عاقل أن يسعى للنجاة فيها، وأن يجعل حاضره من الدنيا تمهيدًا لها، وأن يجعل سعيه في حياته غراسًا ليوم الحصاد.

وقارون قد حصل عنده من وسائل الغرس في الآخرة ما ليس عند أكثر الناس، فأمره الله أن يعمل فيها بأعمال يرجو فيها ما عند الله، وأن يتصدق ولا يقتصر على مجرد نيل الشهوات، وتحصيل اللذات.

وأما الوصية الثانية: فهي ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾:

«والنهي في ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ﴾ على سبيل الإباحة، فالنسيان هنا كناية عن الترك، والمعنى: لا نلومك على أن تأخذ نصيبك من الدنيا - أي الذي لا يأتي على نصيب الآخرة -، وهذا احتراس في الموعظة خشية نفور الموعوظ من موعظة الواعظ؛ لأنهم لما قالوا لقارون: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ أوهموا أن يترك حظوظ الدنيا فلا يستعمل ماله إلا في القربات، قال قتادة: نصيب الدنيا هو الحلال كله!

وبذلك تكون هذه الآية مثالًا لاستعمال صيغة النهي لمعنى الإباحة، و﴿مِنَ﴾ للتبعيض، والمراد بالدنيا نعيمها، فالمعنى: نصيبك الذي هو بعض نعيم الدنيا»[1].

وههنا سؤال قد يطرحه بعض الناس: وهو أن الإنسان جُبِلَ فطرةً على حب المال، والتعلق بشيء مما لا بد له منه في هذه الدنيا، فكيف أمر أن لا ينسى نصيبه، وهو أمرٌ شبه المستحيل، بل المتوقع أن يقال: ولا تنس نصيبك من الآخرة؟!

فالجواب -والله تعالى أعلم بمراده-: أن هذه الآية جاءت لضبط التوازن -كما أسلفنا- في التعامل مع زينة الدنيا، ومن ذلك: المال، فقد يسمع أحدُ التجار أو الأثرياء مثل هذه الموعظة فيظن أن القصد أن يتخلى عن كلّ شيء من نعيم الدنيا ولو كان مباحًا، فيقال له: وإن أُمِرت بأن يكون جل همك الآخرة، فلسنا نطلب منك ترك ما أباح الله تعالى، بل المطلوب العدل، وإعطاء كل ذي حقٍّ حقه.

ولهذا كان من بديع تفسير الإمام مالك لهذه الآية أن قال: هو الأكل والشرب من غير إسراف، فهو يشير بهذا إلى ما ذكرناه آنفًا، والعلم عند الله.

ولقد وقع في عهد النبي ﷺ من بعض الصحابة رضي الله عنهم خلل في فهم حقيقة الزهد والتعبد، حين سألوا عن عبادة النبي ﷺ فكأنهم تقالوها، فقالوا: أين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر! قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر! وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا،

(١) التحرير والتنوير: (٢٠/ ١٠٨) بتصرف واختصار.

فجاء رسول الله ﷺ فقال: «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»(١).

وبهذا المنهج المتوازن المبني على الكتاب والسنة كان أئمة الإسلام، وعلماء الملة يردون على ما أحدثه بعض الزهاد والعُباد من ألوان من التزهد التي تجافي هذا الهدي النبوي العظيم(٢).

وذكر بعض أهل العلم ملمحًا لطيفًا في توجيه معنى قوله: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ وهو أن الله ﷻ «أراد أن يجعل الدنيا شيئًا هيّنًا مُعرَّضًا للنسيان والإهمال، فهو يُذكِّرنا بها، ويحثُّنا على أن نأخذ منها بنصيب، فأنا لا أقول لك: لا تنسَ الشيء الفلاني إلا إذا كنتُ أعلم أنه عُرْضَة للنسيان، وهذا جانب من جوانب الوسطية والاعتدال في الإسلام»، والله أعلم بمراده(٣).

أما الوصية الثالثة: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾، وهذا يتفق تمامًا مع العقل والشرع، قال الله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]؟

«والإحسان داخل في عموم ابتغاء الدار الآخرة ولكنه ذكر هنا ليبني عليه الاحتجاج بقوله ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾، والكاف للتشبيه، أي: كإحسان الله إليك»(٤).

---

(١) البخاري (٤٧٧٦).

(٢) ومن أكثر من رأيتهم يردون على هؤلاء: ابن الجوزي في عدد من كتبه، وابن تيمية، وابن القيم، وغيرهم رحمة الله على الجميع.

(٣) أشار إليه الشيخ الشعراوي رحمه الله في تفسيره.

(٤) التحرير والتنوير: (٢٠/ ١٠٨).




وهذه الآية فيها من التعليل والحض ما هو ظاهر، وهي كقول الله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢] فكما تحب أن يعفو الله عنك، فاعف عن عباده، وهنا: كما تحب أن يحسن إليك ربك، ويدوم إحسانه، فلا تقطع إحسانك عن خلقه، وإلا فالله غني عن العالمين.

ورابع هذه الوصايا في هذه القاعدة القرآنية: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

«وعطف ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ للتحذير من خلط الإحسان بالفساد فإن الفساد ضد الإحسان، فالأمر بالإحسان يقتضي النهي عن الفساد، وإنما نص عليه؛ **لأنه لما تعددت موارد الإحسان والإساءة** فقد يغيب عن الذهن أن الإساءة إلى شيء مع الإحسان إلى أشياء يعتبر غير إحسان!

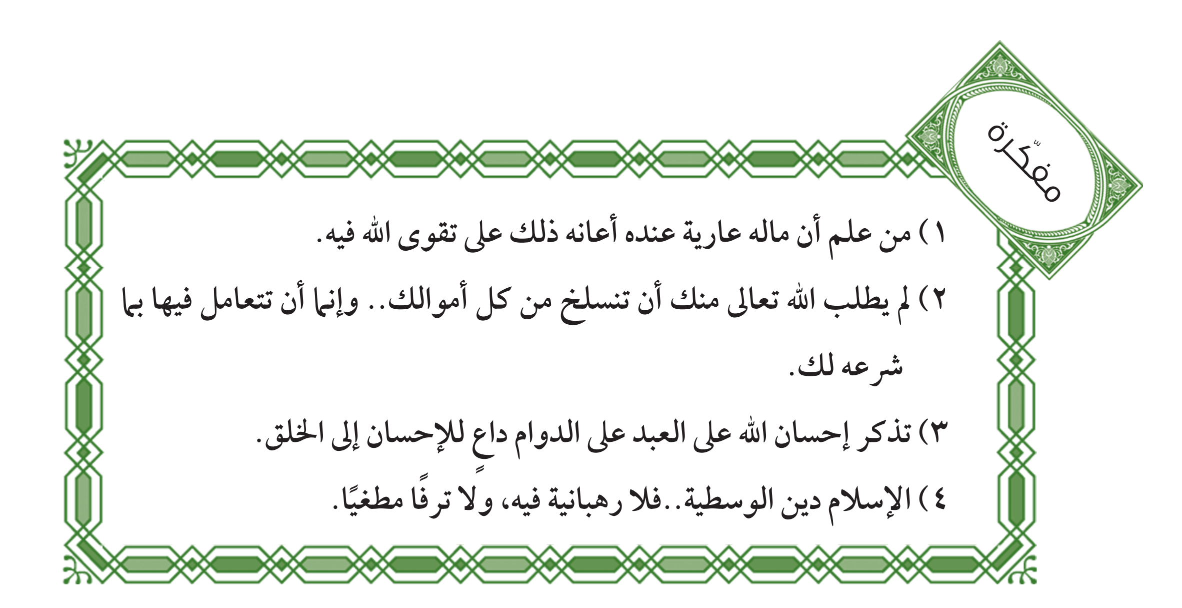
وجملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ علة للنهي عن الإفساد؛ لأن العمل الذي لا يحبه الله لا يجوز لعباده عمله»[1].

وبعد هذا التطواف السريع في ظلال هذه القاعدة القرآنية الجليلة: يتبين لنا بوضوح أن هذا القرآن -كما قال منزله ﷻ-: ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وأنه ما من قضية يحتاجها الناس إلا وحكمها في كتاب الله، كما قال الإمام الشافعي، ولكن أين المتدبرون، والناهلون من هذا المعين الذي لا ينضب؟!

(١) التحرير والتنوير: (٢٠/ ١٠٩) بتصرف واختصار.



اللهم إنا نسألك القصد في الفقر والغنى، ونسألك نعيماً لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع، ونسألك الرضاء بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت، ونسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين.



١) من علم أن ماله عارية عنده أعانه ذلك على تقوى الله فيه.

٢) لم يطلب الله تعالى منك أن تنسلخ من كل أموالك.. وإنما أن تتعامل فيها بما شرعه لك.

٣) تذكر إحسان الله على العبد على الدوام داعٍ للإحسان إلى الخلق.

٤) الإسلام دين الوسطية..فلا رهبانية فيه، ولا ترفًا مطغيًا.



القاعدة الحادية والعشرون

﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡ﴾[1]

هذه قاعدة قرآنية عقدية، نزلت قبل أربعة عشر قرنًا، ولا تزال معانيها تتجدد لأهل الإسلام في كل زمان.

ولا يخفى أن هذه القاعدة المحكمة جاءت في سورة البقرة، تلك السورة التي تحدثت بتفصيل عن حقيقة أهل الكتاب، واليهود بشكل أخص -لكونهم يسكنون المدينة-.

ونزول هذه الآية الكريمة -كما أشار إليه جمع من المفسرين- جاء عقب مرحلةٍ من محاولات النبي ﷺ لتأليف اليهود، لعلهم يستجيبون، وينقادون لدين الإسلام، فجاء هذا الخبر القاطع لكل محاولات التأليف التي كان النبي ﷺ يمارسها معهم.

يقول شيخ المفسرين ابن جرير الطبري:

«وليست اليهود -يا محمد- ولا النصارى براضية عنك أبدًا، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق؛

(١) البقرة: ١٢٠.

فإن الذي تدعوهم إليه من ذلك لهو السبيل إلى الاجتماع فيه معك على الألفة والدين القيم، ولا سبيل لك إلى إرضائهم باتباع ملتهم؛ لأن اليهودية ضد النصرانية، والنصرانية ضد اليهودية، ولا تجتمع النصرانية واليهودية في شخص واحد في حال واحدة، واليهود والنصارى لا تجتمع على الرضا بك، إلا أن تكون يهوديًا نصرانيًا، وذلك مما لا يكون منك أبدًا؛ لأنك شخص واحد، ولن يجتمع فيك دينان متضادان في حال واحدة، وإذا لم يكن إلى اجتماعهما فيك في وقت واحد سبيل، لم يكن لك إلى إرضاء الفريقين سبيل، وإذا لم يكن لك إلى ذلك سبيل، فالزم هدى الله الذي لجميع الخلق إلى الألفة عليه سبيل»[1].

فتأمل ما تضمنته تتمة هذه القاعدة من وعيد عظيم لمن اتبع أهواءهم، ولمن هذا الوعيد العظيم؟! لمحمد ﷺ! مع أنه لا يمكن أن يقع منه شيء من ذلك بعصمة الله له، قال تعالى في تتمة هذه القاعدة المحكمة: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وتأمل كيف قسّم الله تعالى الأمر -في هذا الأصل العظيم- إلى قسمين: هدىً وهوىً، فالهدى هو هدى الله، وليس وراء ذلك إلا اتباع الهوى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾، يقول ابن جرير رحمه الله في تتمة تعليقه على هذه الآية:

(١) تفسير الطبري: (٢/ ٤٨٤).




«يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ﴾، يا محمد، هوى هؤلاء اليهود والنصارى - فيما يرضيهم عنك - من تهود وتنصر، فصرت من ذلك إلى إرضائهم، ووافقت فيه محبتهم - من بعد الذي جاءك من العلم بضلالتهم وكفرهم بربهم، ومن بعد الذي اقتصصت عليك من نبئهم في هذه السورة ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ يعني بذلك: ليس لك يا محمد من ولي يلي أمرك، وقيم يقوم به ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينصرك من الله، فيدفع عنك ما ينزل بك من عقوبته، ويمنعك من ذلك، إن أحل بك ذلك ربك»[(١)].

فإذا كان هذا الكلام موجهًا للنبي ﷺ، فمَنِ الناسُ بعده؟!

وهذه القاعدة المحكمة قالها الذي يعلم السرّ وأخفى، والذي لا يخفى عليه شيءٌ من أحوال خلقه، لا حاضرًا ولا مستقبلًا، فالذي قال هذا الكلام، هو الذي قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]؟!

وقد أحسن العلامة السيد محمد رشيد رضا؛ حين لخص القواعد التي اشتملت عليها سورة البقرة، فجعل من جملة هذه القواعد: هذه القاعدة التي نحن بصدد الحديث عنها فقال عن هذه الآية: إنها «آية للنبي ﷺ كاشفة عن حال أهل الملتين في عصره، ولا تزال مطردة في أمته من بعده، وقد اغتر زعماء بعض الشعوب الإسلامية؛ فحاولوا إرضاء بعض الدول بها دون اتباع ملتهم من الكفر - فلم يرضوا عنهم، ولو اتبعوا ملتهم لاشترطوا أن يتبعوهم في فهمها وصور العمل بها، حتى لا يبقى لهم أدنى استقلال في دينهم ولا في أنفسهم»[(٢)].

---

(١) تفسير الطبري: (٢/ ٤٨٤).

(٢) تفسير المنار: (١/ ٩٥).



ومع وضوح هذا النص القرآني المحكم، فإنك لتتألم من تشكيك بعض المسلمين بهذه الحقيقة، وهذا التشكيك يأخذ صورًا شتى، تبدأ من التشكيك في كون هؤلاء كفارًا أصلًا! وتنتهي عند المطالبة بالتماهي والاندماج التام معهم، في مسخ واضح لأصل من الأصول الكبار، ألا وهو الولاء والبراء!

ولم يفرق هؤلاء بين ما يصلح أن يؤخذ منهم، ويستفاد منه في أمور الدنيا، وبين اعتزاز المؤمن بدينه، وتمايزه بعقيدته! وليس الحديث عن هذه الطوام التي لا يقولها عاقل قرأ التاريخ، فضلًا عمن عقل عن الله ورسوله قولهما.

وإن المؤمن -وهو يسمع أمثال هذه الكلمات الفجّة- ليتساءل عن هؤلاء الكُتّاب الذين يحملون أسماء إسلامية: ألم يقرؤوا قول الله ﷻ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧]؟

وأين هم من قولِ الله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]؟!




ألم يتأملوا قوله ﷻ عن سائر الكفار: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ١٤٩ بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩ - ١٥٠]؟!

هذه شهادة من الله على أعدائنا بما يريدون منا، وما يحاولونه من صدنا عن ديننا، فهل بعد هذه الشهادة من شهادة؟ أولم يكف بربك أنه على كل شيءٍ شهيد؟!

إن هذه القاعدة المحكمة: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡ﴾ وما جاء في معناها من الآيات التي ذكرتُ بعضها خَبَرٌ، والخبر لا ينسخ، لأن نسخه يستلزم أن يكون المخبر بهذا كاذبًا، وهذا لو كان في حق آحاد فضلاء الناس لكان من أعظم القدح فيه، فكيف إذا كان المتكلم به هو الله العليم الخبير؟!

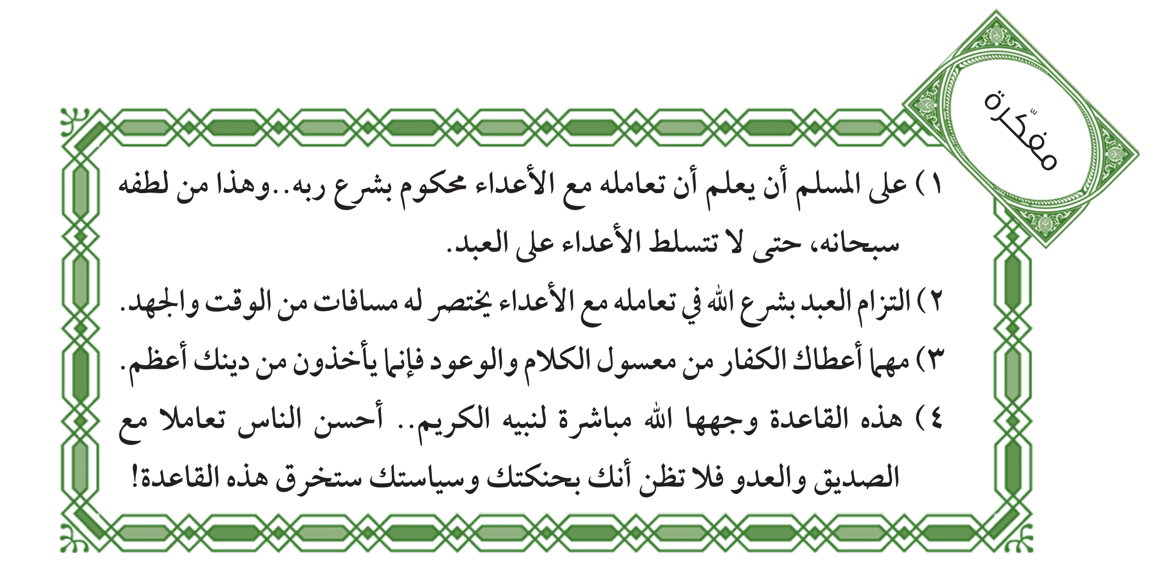
ولو أردنا أن نقلب صفحات التاريخ؛ لوجدنا الجواب الذي يزيد المؤمن يقينًا بهذه القاعدة المحكمة!، فمن الذي سمّ الشاة التي وجد النبي ﷺ أثرها حتى لقي ربه؟! ومن الذي قتل الفاروق رضي الله عنه؟ ومن الذي سَمَّ جملة من الخلفاء المسلمين الذين كان لهم أثر في ضعف شوكة اليهود أو النصارى؟!

لقد غرّ بعض هؤلاء المتحدثين -بما ذكرناه آنفًا- كونهم يتعاملون مع بعض الأفراد من اليهود والنصارى فلا يجدون منهم إلا تعاملًا جيدًا -كما يقولون- وهذا قد يقع، ولكنه لا يمكن أبدًا أن يكون قاضيًا على هذا الخبر المحكم من كلام ربنا، ذلك أن العلاقة الفردية قد يشوبها من المصالح، أو تكون حالات استثنائية، فإذا جدّ الجِد،



ظهرت أخلاقهم على الحقيقة، ومن له أدنى بصر أو بصيرة أدرك ما فعلته الحروب الصليبية التي غزت بلاد الشام قبل وبعد صلاح الدين! وما فعله إخوانهم وأبناؤهم في فلسطين وأفغانستان والعراق، وما حرب غزة الأخيرة إلا أكبر شاهد، ولا ينكره إلا من طمس الله بصيرته عياذًا بالله!

نسأل الله تعالى أن يثبتنا على دينه الذي ارتضاه لنا، وأن يعيذنا من الحور بعد الكور.



١) على المسلم أن يعلم أن تعامله مع الأعداء محكوم بشرع ربه..وهذا من لطفه سبحانه، حتى لا تتسلط الأعداء على العبد.

٢) التزام العبد بشرع الله في تعامله مع الأعداء يختصر له مسافات من الوقت والجهد.

٣) مهما أعطاك الكفار من معسول الكلام والوعود فإنما يأخذون من دينك أعظم.

٤) هذه القاعدة وجهها الله مباشرة لنبيه الكريم.. أحسن الناس تعاملا مع الصديق والعدو فلا تظن أنك بحنكتك وسياستك ستخرق هذه القاعدة!



القاعدة الخامسة والثلاثون

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾[1]

هذه قاعدة قرآنية إيمانية، لها صلة عظيمة بعبادة من أعظم العبادات، ألا وهي عبادة الدعاء.

وهذه القاعدة المتعلقة بالدعاء جاءت تعقيبًا على جملةٍ من آيات الصيام، فهلمّ لنقف على شيء من هدايات هذه القاعدة القرآنية:

١- القرآن اشتمل على أربعة عشر سؤالًا، وكلها تبدأ بـ (يسألونك)، ثم يأتي الجواب بـ (قل) إلا في آية واحدة (فقل) في سورة طه، إلا هذا الموضع الوحيد، فإنه بدأ بهذه الجملة الشرطية: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى ﴾، وجاء جواب الشرط من دون الفعل: قل، بل قال: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، فكأن هذا الفاصل مع قصره (قل) كأنه يطيل القرب بين الداعي وربه، فجاء الجواب بدون واسطة: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ تنبيها على شدة قرب العبد من ربه في مقام الدعاء! وهو من أبلغ ما يكون في الجواب عن سبب النزول -لو صحّ- حينما سئل النبي ﷺ: «أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟».

(١) البقرة: ١٨٦.

٢- تأمل في قوله: ﴿عِبَادِى﴾ فكم في هذا اللفظ من الرأفة بالعباد؛ حيث أضافهم إلى نفسه العليّة سبحانه وبحمده، فأين الداعون؟ وأين الطارقون لأبواب فضله؟!

٣- فإني قريب: ففيها إثبات قربه من عباده ﷻ، وهو قرب خاص بمن يعبده ويدعوه، وهو- والله - من أعظم ما يدفع المؤمن للنشاط في دعاء مولاه.

٤- في قوله: ﴿أُجِيبُ﴾ ما يدل على قدرة الله وكمال سمعه سبحانه، وهذا ما لا يقدر عليه أي أحد إلا هو سبحانه!

إن أي ملك من ملوك الدنيا -ولله المثل الأعلى- مهما أوتي من القوة والسلطان لا يمكنه أن ينفذ كل ما يطلب منه؛ لأنه مخلوق عاجز، لا يستطيع أن يدفع عن نفسه المرض والموتَ، فضلًا عن غيره، فتبارك الله القوي العزيز، الرحيم الرحمن.

٤- مع قوله: ﴿إِذَا دَعَانِ﴾ ففيها إشارة إلى أن من شرط إجابة الدعاء أن يكون الداعي حاضر القلب حينما يدعو ربه، وصادقًا في دعوة مولاه، بحيث يكون مخلصًا مشعرًا نفسه بالافتقار إلى ربه، ومشعرًا نفسه بكرم الله، وجوده[1].

٥- ومن هدايات هذه القاعدة ودلالتها: أن الله تعالى يجيب دعوة الداع إذا دعاه؛ ولا يلزم من ذلك أن يجيب مسألته؛ لأنه تعالى قد يؤخر إجابة المسألة ليزداد الداعي تضرعًا إلى الله، وإلحاحًا في الدعاء؛ فيقوى بذلك إيمانه، ويزداد ثوابه؛ أو يدخره له يوم القيامة؛ أو يدفع عنه من السوء ما هو أعظم فائدة للداعي؛ وهذا هو السر -والله أعلم- في قوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾[2].

(١) ينظر فيما سبق: مفاتيح الغيب: (٥/ ٨٤)، وتفسير القرآن الكريم للعثيمين: (١/ ٣٤٥).

(٢) تفسير القرآن الكريم للعثيمين: (١/ ٣٤٥).

٦- وتاج هذه اللطائف المتصلة بهذه القاعدة من قواعد العبادة: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ أنك تلحظ فيها سرًا من أسرار عظمة هذا الدين، وهو التوحيد، فهذا ربك -أيها المؤمن- وهو ملك الملوك، القهار الجبار، الذي لا يشبه مُلْكَه ملك، ولا سُلْطَانه سلطان - لا تحتاج إذا أردتَ دعاءه إلى مواعيد، ولا إلى أذونات، ولا شيء من ذلك، إنما هو رفع اليدين، مع قلب صادق، وتسأل حاجتك، كما قال بكر بن عبد الله المزني -أحد سادات التابعين-: «من مثلك يا ابن آدم! خلي بينك وبين المحراب تدخل منه إذا شئت على ربك، وليس بينك وبينه حجاب ولا ترجمان»؟![1]، فيا لها من نعمة لا يعرف قدرها إلا الموفق، وإلا الذي يرى ما وقع فيه كثير من جهال المسلمين من التوسل بالأولياء والصالحين، أو ظنهم أن الدعاء لا يقبل إلا من طريق الولي الفلاني أو السيد الفلاني!!

وإذا تبين وقعُ هذه القاعدة فإنك ستدرك أن الحرمان الحقيقي للعبد حينما يحرم طرق الباب، وأن تنسيه نفسه هذا السبيل العظيم! كما قال أبو حازم لأنا من أن أمنع الدعاء، أخوف مني من أن أمنع الإجابة[2].

ويقول ابن القيم رحمه الله: «وقد أجمع العارفون أن التوفيق أن لا يكلك الله إلى نفسك، وأن الخذلان هو أن يخلي بينك وبين نفسك، فإذا كان كل خير فأصله التوفيق، وهو بيد الله لا بيد العبد، فمفتاحه الدعاء والافتقار وصدق اللجأ والرغبة والرهبة إليه،

---

(١) حلية الأولياء: (٢/ ٢٢٩).

(٢) حلية الأولياء: (٣/ ٢٤١، ٧/ ٢٨٨).

فمتى أعطى العبد هذا المفتاح فقد أراد أن يفتح له، ومتى أضلّه عن المفتاح بقي باب الخير مرتجا دونه، قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (إني لا أحمل همّ الإجابة، ولكني أحمل همّ الدعاء، فإذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه).

وعلى قدر نية العبد وهمته ومراده ورغبته في ذلك يكون توفيقه سبحانه وإعانته، فالمعونة من الله تنزل على العباد على قدر هممهم وثباتهم ورغبتهم ورهبتهم، والخذلان ينزل عليهم على حسب ذلك،... وما أتي من أتي إلا من قبل إضاعة الشكر، وإهمال الافتقار والدعاء، ولا ظفر من ظفر -بمشيئة الله وعونه- إلا بقيامه بالشكر، وصدق الافتقار والدعاء»[1].

ومن المعاني المهمة التي ينبغي أن يستحضرها العبد -وهو في مقام الدعاء- ما أشار إليه الإمام أبو سليمان الخطابي رحمه الله -وهو يتحدث عن الحكمة من مشروعية الدعاء- فيقول: «وقد قضى الله سبحانه أن يكون العبد ممتحنًا ومستعملاً، ومعلقًا بين الرجاء والخوف -اللذين هما مدرجتا العبودية- ليستخرج منه بذلك الوظائف المضروبة عليه، التي هي سمة كل عبد، ونِصْبَةُ كل مربوب مُدَبّرٍ»[2].

ومن هدايات هذه القاعدة -المتعلقة بسياقها-: استحباب الدعاء عند الفطر في رمضان وغيره، وهذا ما يدل عليه ظاهر القرآن، وفعل السلف، وفي السنة المرفوعة أحاديث لا تخلو من مقال، ولكن ها أنت ترى ظاهر القرآن يعضدها، ووجه الدلالة من الآيات على هذا المعنى: أن الله تعالى ذكر هذه الآية -آية الدعاء-

(١) الفوائد: (١٨١).

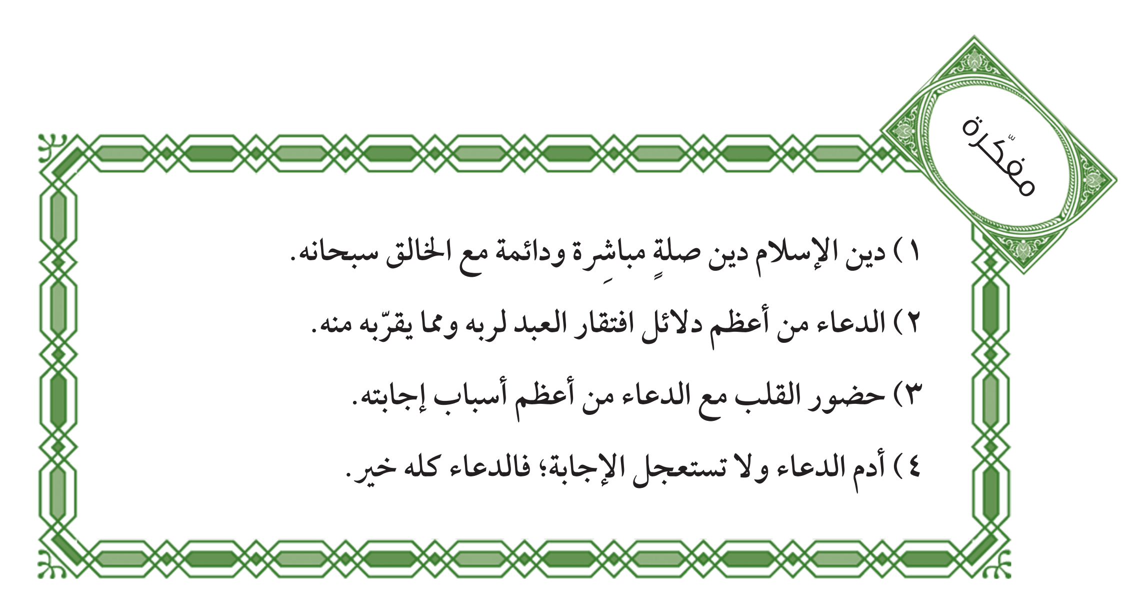
(٢) شأن الدعاء: (٩-١٠).

بُعَيْد آيات الصيام وقبيل آية إباحة الرفث في ليل الصيام، قال ابن كثير رحمه الله: «وفي ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام الصيام، إرشاد إلى اجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة، بل وعند كل فطر»[١].

فما أجمل العبد وهو يظهر فقره وعبوديته بدعاء مولاه، والانكسار بين يدي خالقه ورازقه، ومَنْ ناصيته بيده!

وما أسعده حينما يهتبل أوقات الإجابة ليناجي ربه، ويسأله من واسع فضله في خيري الدنيا والآخرة!

نسأل الله تعالى أن يرزقنا صدق اللجأ إليه، والانطراح بين يديه، وكمال التضرع له، وقوة التوكل عليه، وأن لا يخيب رجاءنا فيه، ولا يردنا خائبين بسبب ذنوبنا وتقصيرنا.



مفكّرة

١) دين الإسلام دين صلة مباشِرة ودائمة مع الخالق سبحانه.

٢) الدعاء من أعظم دلائل افتقار العبد لربه ومما يقرّبه منه.

٣) حضور القلب مع الدعاء من أعظم أسباب إجابته.

٤) أدم الدعاء ولا تستعجل الإجابة؛ فالدعاء كله خير.

(١) تفسير ابن كثير: (١/ ٢٧٣).



هذه قاعدة شرعية من أعظم القواعد الشرعية التي يفزع إليها العلماء في فتاواهم.

وهذه القاعدة القرآنية المحكمة جاءت في سورة التغابن، وفي تدبر سياقها ما يحسن إيراده هنا، خاصةً وأن هذه القاعدة بدأت بالفاء التي يسميها بعض العلماء: الفاء الفصيحة، أو فاء التفريع، فما بعدها فرعٌ عما قبلها، ذلك أن الله ﷻ قال قبل هذه القاعدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ [التغابن: ١٤ - ١٥] ثم جاء التعقيب بعد هذا بقوله ﷻ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

---

(١) التغابن: ١٦.

«أي: إذا علمتم هذا، فاتقوا الله فيما يجب من التقوى في معاملة الأولاد والأزواج ومصارِف في الأموال، فلا يصدّكم حب ذلك والشغل به عن الواجبات، ولا يخرجكم الغضب ونحوه عن حدّ العدل المأمور به، ولا حُبُّ المال عن أداء حقوق الأموال وعن طلبها من وجوه الحلال، فالأمر بالتقوى شامل للتحذير المتقدم وللترغيب في العفو كما تقدم ولما عدا ذلك... ولما كانت التقوى - في شأن المذكورات وغيرها - قد يعرض لصاحبها التقصير في إقامتها حرصًا على إرضاء شهوة النفس -في كثير من أحوال تلك الأشياء- زيد تأكيد الأمر بالتقوى بقوله: ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾، و﴿مَا﴾ مصدرية ظرفية، أي مدة استطاعتكم؛ ليعم الأزمان كلها، ويعم الأحوال تبعًا لعموم الأزمان ويعم الاستطاعات، فلا يتخلوا عن التقوى في شيء من الأزمان، وجعلت الأزمان ظرفًا للاستطاعة لئلا يقصروا بالتفريط في شيء يستطيعونه فيما أمروا بالتقوى في شأنه ما لم يخرج عن حدّ الاستطاعة إلى حدّ المشقة، فليس في قوله: ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ تخفيف ولا تشديد، ولكنه عَدل وإنصافٌ، ففيه ما عليهم وفيه ما لهم»[1].

وبعد هذا العرض المجمل لمعنى القاعدة، يتبين أن هذا القدر من التقوى هو الواجب على العبد فعله -وهو تقوى الله ما استطاع-، أما التقوى التي يستحقها الله تعالى، فهي التي جاءت في قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وهي التي فسرها جمع من السلف بقوله: أن يطاع فلا يعصى،

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٥٨) باختصار يسير.

ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر[1]، وبهذا الجمع يتبين أنه لا يصح قول من قال: إن هذه القاعدة التي نحن بصدد الحديث عنها: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ ناسخة لآية آل عمران: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾.

إن هذه القاعدة القرآنية المحكمة تدل بوضوح على أن كل واجب عجز عنه المكلف، فإنه يسقط عنه، وأنه إذا قدر على بعض المأمور، وعجز عن بعضه، فإنه يأتي بما يقدر عليه، ويسقط عنه ما يعجز عنه، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»[2].

فدخل تحت هذه القاعدة الشرعية من الفروع، ما لا يمكن حصره كما يقول غير واحدٍ من أهل العلم[3].

ولعلنا نأخذ بعض الأمثلة التي تجلي هذا القاعدة:

١- أول هذه الأمثلة التي يحسن التمثيل بها هو ذلك الموقف الذي جعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول كلمته الجامعة الآنفة الذكر: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»: فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «أيها الناس! قد فرض الله عليكم الحج فحجوا، فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟! فسكت، حتى قالها ثلاثًا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو قلتُ: نعم لوجبت! ولما استطعتم»!

---

(١) ينظر: تفسير السعدي (١٤١).

(٢) البخاري ح (٦٨٥٨)، ومسلم ح (١٣٣٧).

(٣) تفسير السعدي: (١٤١).

ثم قال: «ذروني ما تركتكم! فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافِهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه».

٢- ومن تطبيقات هذه القاعدة أنه: «إذا اجتمعت مصالح ومفاسد، فإن أمكن تحصيل المصالح ودرء المفاسد فعلنا ذلك امتثالًا لأمر الله تعالى فيهما؛ لقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾، وإن تعذر الدرء والتحصيل فإن كانت المفسدة أعظم من المصلحة درأنا المفسدة ولا نبالي بفوات المصلحة، قال الله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَا﴾ حرمهما لأن مفسدتهما أكبر من منفعتهما»[1].

٣- أن الواجب عند إرادة الصلاة: التطهر بالماء، فإن عدم أو تعذر استعماله، فإن الإنسان ينتقل إلى التيمم كما هو معلوم.

٤- أن صلاة الفريضة الأصل فيها أن يؤديها المصلي قائمًا، فإن عجز صلى جالسًا، وإلا صلى قاعدًا، كما دلّ على ذلك حديث عمران بن حصين رضي الله عنه، ويدخل في ذلك جميع شروط الصلاة وأركانها وواجباتها.

٥- وفي الصيام يجب على المسلم أن يمسك عن جميع المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، فإن كان الصيام يشق عليه أفطر وانتقل إلى الإطعام.

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام: (١/ ١١٠).




٦- وفي الحج؛ فإن مبنى هذا الركنِ كلّه على هذا الأصل العظيم: الاستطاعة، كما قال ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وكما سبق في حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٧- ومن فروع هذه القاعدة في مناسك الحج: أن من لم يجد مكانًا في منى أو مزدلفة سكن حيث تيسر له، ومثله فيمن عجز عن الرمي لأي سبب معتبر شرعًا، ولعل الحج من أكثر أركان الإسلام فروعًا تطبيقيةً لهذه القاعدة العظيمة.

٨- ومن تطبيقات هذه القاعدة العظيمة في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: أن المكلف يجب عليه أنه ينكر باليد إذا قدر عليه، فإن عجز فباللسان، وإلا فبالقلب كما دل على ذلك حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه المخرج في الصحيح(١).

٩- وفي باب النفقات: فإن من عليه نفقةٌ واجبة، وعجز عن جميعها، بدأ بزوجته فرقيقه، فالولد، فالوالدين، فالأقرب ثم الأقرب، وكذلك زكاة الفطر.

١٠- ومن تطبيقات هذه القاعدة العظيمة: مسائل الولايات والوظائف الدينية والدنيوية كلُّها -صغارُها وكبارُها- داخلة تحت هذه القاعدة العظيمة، فكل ولاية يجب فيها تولية الأصلح الذي يحصل بتوليته مقصود الولاية، فإن تعذرت كلها، وجب فيها تولية الأمثل فالأمثل، وقد سبق حديث مفصّل عند الكلام على قاعدة: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦](٢).

---

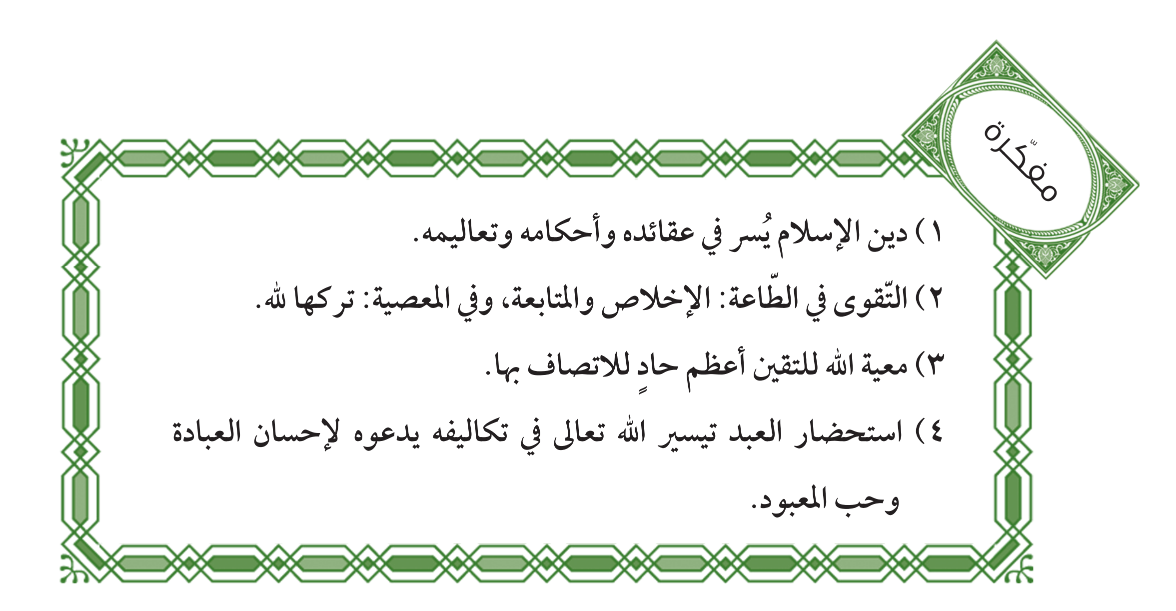
(١) صحيح مسلم (٤٩).

(٢) وهي القاعدة السابعة عشرة.






وبما سبق من أمثلة يتجلى لنا عظيم موقع هذه القاعدة من هذا الشرع المطهر، الذي مبناه على اليسر والسعة، فنسأل الله تعالى الذي هدانا لهذا الدين القويم، أن يثبتنا عليه حتى نلقاه، وأن يرزقنا الفقه في دينه، والبصيرة فيه.



١) دين الإسلام يُسر في عقائده وأحكامه وتعاليمه.

٢) التّقوى في الطّاعة: الإخلاص والمتابعة، وفي المعصية: تركها لله.

٣) معية الله للتقين أعظم حادٍ للاتصاف بها.

٤) استحضار العبد تيسير الله تعالى في تكاليفه يدعوه لإحسان العبادة وحب المعبود.



القاعدة السابعة والثلاثون

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾[1]

هذه قاعدة قرآنية عظيمة تضم كلمات جامعة، وتمثل أصلًا من أصول الوصايا القرآنية.

وهذه القاعدة القرآنية المحكمة جاءت في سورة هود، تلك السورة العظيمة التي بين الله فيها سبيل الحق والباطل، ثم ذكر فيها مصير هؤلاء وأولئك، ونماذج تاريخية من واقع الرسل مع أقوامهم، ثم ختمت تلك القصص كلها بقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ...﴾ إلى قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١) فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١٠١ - ١١٢].

وقد بقيت مع هذه السورة برهة من الزمن، أتأمل فيها، وأبحث عن مقصودها؛ فبدا لي -والله أعلم- أنها كلها تدور على آية واحدة، يمكن أن نسميها:

---

(١) هود: ١١٢.

العمود الفقري -إن صح التعبير- لهذه السورة العظيمة، وهي قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢]، وأن ما قبلها وبعدها إلى نهاية هذه السورة إنما يعود إلى هذه الآية، والله أعلم، وقد فصّلت ذلك في موضع آخر.

والمتأمل في هذه السورة العظيمة يلحظ فيها بجلاء كثرة الخطاب للنبي ﷺ سواء بضمير الخطاب في عشرات المواضع - وهو أكثرها - أو بغير ضمير الخطاب، ومنها: هذا الموضع الذي نحن بصدد الحديث عنه في هذه القاعدة المحكمة: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، ولنا مع هذه القاعدة عدة وقفات:

الوقفة الأولى:

ما حقيقة الاستقامة؟ وما سر هذا الأمر الصريح له ولأتباعه بلزوم الاستقامة؟

أما حقيقة الاستقامة، فإن كلمات السلف من الصحابة ومن بعدهم تدور على معنى واحد في الجملة، ألا وهو أن الاستقامة: «هي سلوكُ الصِّراط المستقيم، وهو الدِّينُ القيِّم من غير تعريج عنه يَمنةً ولا يَسرةً، ويشمل ذلك فعلَ الطَّاعات كلّها، الظاهرة والباطنة، وتركَ المنهيات كُلِّها كذلك، فصارت هذه الوصيةُ جامعةً لخصال الدِّين كُلِّها»[1].

وأما عن سر هذا الأمر الصريح للنبي ﷺ ولصحابته بالاستقامة، فإن الجواب عن هذا يطول جدًّا، لكن من أجلى ما يوضح ذلك: أن يعلم المؤمن أن أعظم غرض يريده الشيطان من بني آدم هو إضلالهم عن طريق الاستقامة، ألم يقل عدو الله: ﴿فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]؟! ولهذا أمرنا أن نكرر في اليوم والليلة ١٧ مرة على أقل تقدير قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، فاللهم اهدنا الصراط المستقيم، وثبتنا عليه يا رب العالمين.

---

(١) جامع العلوم والحكم: شرح الحديث (٢١) حديث سفيان بن عبد الله.

الوقفة الثانية مع هذه القاعدة:

فهذا الأمر للنبي ﷺ بالاستقامة هو أمرٌ بالثبات على الاستقامة، ولغيره أمر بها وبالثبات عليها، يقول ابن عطية رحمه الله: «**أَمْرُ النبيِّ ﷺ بالاستقامة -وهو عليها- إنما هو أمر بالدوام والثبوت، وهذا كما تأمر إنسانًا بالمشي والأكل ونحوه، وهو ملتبس به**»[1]، ويوضح كلام ابن عطية هذا ما سبقت الإشارة من تكرار الدعاء في الفاتحة بـ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾.

ويوضح هذا أن القرآن الكريم مليء بالأمر بهذا الأصل العظيم أو الثناء على أهله في مواضع متنوعة، وبأكثر من أسلوب، ومن ذلك:

١- ما جاء في سورة الشورى -التي تحدثت عن الشرائع السابقة واتفاقها في جملة من الأصول- فقال ﷻ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ...﴾ إلى أن قال: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ...﴾ [الشورى: ١٣ - ١٥].

٢- ومن ذلك أيضًا: أن الله تعالى أمر بهذا الأصل غير واحد من الأنبياء والمرسلين -عليهم الصلاة والسلام- فقد قال لموسى وهاورن: ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩]، بل لقد امتنّ الله بهذا الأصل على جميع الأنبياء والمرسلين، فإنه ﷻ لما ذكر عددًا كبيرًا من الرسل في سورة الأنعام قال: ﴿وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٧، ٨٨].

---

(١) المحرر الوجيز: (٣/ ٢٢٥).

٣- وفي صدر سورة فصلت ملحظ مهم في ترسيخ معنى هذه القاعدة، فإن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ...﴾ الآيات [فصلت: ٦]، وفي نفس السورة يبشر الله عباده المستقيمين على دينه بأعظم بشارة تتمناها نفس: فقال ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

واستعراض الآيات الواردة في الاستقامة نصًا أو معنى ليس مقصودًا لنا هنا، وإنما الغرض التنبيه على ذلك.

الوقفة الثالثة، مع هذه القاعدة:

إن من تأمل هذا الأمر الإلهي للنبي ﷺ تبين له عظم وخطورة هذا الأمر -أعني الاستقامة والثبات على الدين- كيف، وهما اللتان أقضتا مضاجع الصالحين؟!

روى البيهقي في «**شُعب الإيمان**» عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: سمعت أبا علي السري يقول: رأيت النبي ﷺ في المنام! فقلت: يا رسول الله! روي عنك أنك قلت: «شيبتني هود»؟ فقال: «**نعم**» فقلت له: ما الذي شيبك منها؟ قصص الأنبياء وهلاك الأمم؟! فقال: «**لا، ولكن قوله:** ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾»[1].

وهذه الرؤيا -كما لا يخفى- هي كغيرها لا يعتمد عليها في الأحكام الشرعية، ولا في تصحيح أو تضعيف الأحاديث، ومنها: الحديث المشهور: «**شيبتني هود وأخواتها**»[2] فإنه حديث مضطرب الإسناد، كما بيّن ذلك جمع من الحفاظ:

(١) شعب الإيمان: (٤/ ٨٢).

(٢) أخرجه الترمذي وغيره ح (٣٢٩٧)، وينظر: العلل لابن أبي حاتم رقم (١٨٢٦)، ولصديقنا د.سعيد الرقيب الغامدي بحث مفصل في بيان طرق وعلل هذا الحديث منشور على موقع ملتقى أهل الحديث.




كالترمذي والدارقطني وابن حجر رحمهم الله جميعًا، **وإنما الغرض هنا** الاستئناس بهذه الرؤيا على عظيم موقع هذا الأمر الإلهي من نفس النبي ﷺ.

الوقفة الرابعة مع هذه القاعدة:

أن الإنسان مهما بلغ من التقوى والإيمان، فهو بحاجة ماسة إلى التذكير بما يُثَبِّتُه، ويزيد استقامته، ولو كان مستغنيًا عن ذلك؛ لكان نبينا ﷺ أولى الناس بهذا، **يقول ابن تيمية** رحمه الله: «وإنما غاية الكرامة لزوم الاستقامة، فلم يكرم الله عبدًا بمثل أن يعينه على ما يحبه ويرضاه، ويزيده مما يقربه إليه ويرفع به درجته»(١).

الوقفة الخامسة مع هذه القاعدة:

أن يعلم المؤمن أن أعظم مدارج الاستقامة هي استقامة القلب، فإن استقامته ستؤثر على بقية الجوارح - ولا بد - قال ابن رجب رحمه الله: «**فأصلُ الاستقامةِ استقامةُ القلب على التوحيد**، كما فسر أبو بكر الصِّديق وغيرُه قولَه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ بأنَّهم لم يلتفتوا إلى غيره، فمتى استقام القلبُ -على معرفةِ الله، وعلى خشيته، وإجلاله، ومهابته، ومحبته، وإرادته، ورجائه ودعائه، والتوكُّلِ عليه، والإعراض عما سواه- **استقامت الجوارحُ كلُّها على طاعته**، فإنَّ القلبَ هو ملكُ الأعضاء، وهي جنودُهُ، فإذا استقامَ الملك، استقامت جنودُه ورعاياه(٢)،... وأعظم ما يُراعى استقامتُه -بعدَ القلبِ مِنَ الجوارح-: اللسانُ؛ فإنَّه ترجمانُ القلب والمعبِّرُ عنه»(٣)، «ومن استقام على هذا الصراط حصل له سعادة الدنيا والآخرة،

---

(١) مجموع الفتاوى: (١١/ ٢٩٨).

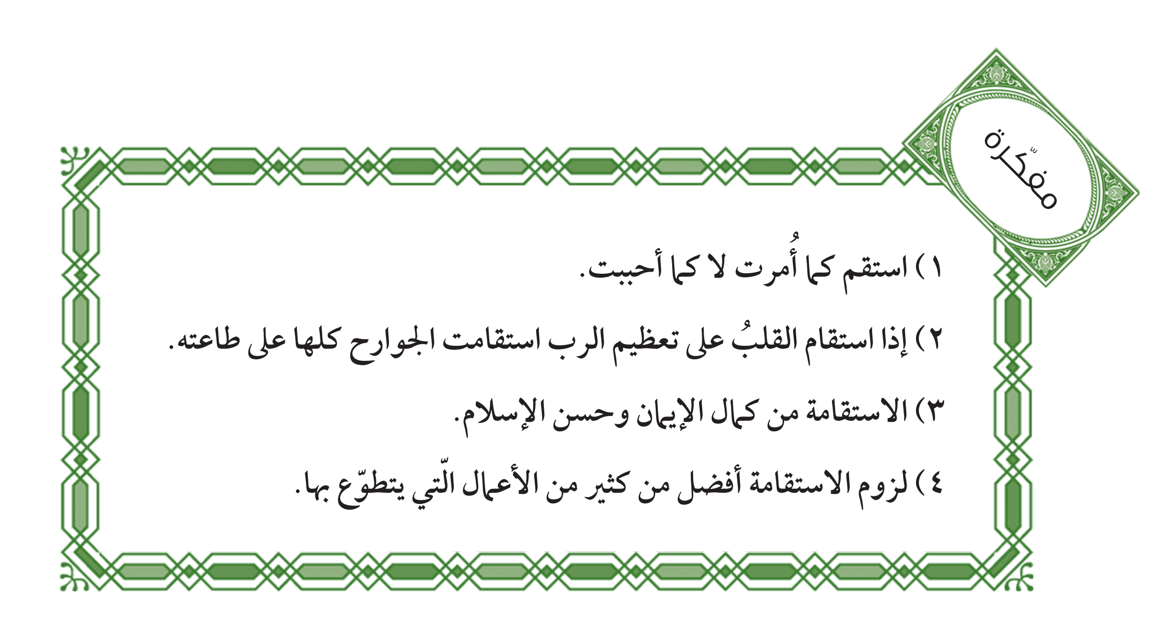
(٢) كما في الحديث المتفق عليه: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب».

(٣) جامع العلوم والحكم: شرح الحديث (٢١) حديث سفيان بن عبد الله.



واستقام سيره على الصراط يوم القيامة، ومن خرج عنه فهو إما مغضوب عليه، وهو من يعرف طريق الهدى ولا يتبعه كاليهود، أو ضال عن طريق الهدى كالنصارى ونحوهم من المشركين»[1].

نسأل الله تعالى أن يهدينا صراطه المستقيم، وأن يجعلنا ممن استقام ظاهره وباطنه على ما يحبه ويرضاه، وأن يثبتنا على الإسلام والسنة حتى نلقاه.



١) استقم كما أُمرت لا كما أحببت.

٢) إذا استقام القلبُ على تعظيم الرب استقامت الجوارح كلها على طاعته.

٣) الاستقامة من كمال الإيمان وحسن الإسلام.

٤) لزوم الاستقامة أفضل من كثير من الأعمال الّتي يتطوّع بها.

(١) فتح الباري لابن رجب: (٤/ ٥٠٠).



القاعدة الثامنة والثلاثون

﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾[1]

هذه قاعدة قرآنية، وكلمات جامعة، تضمنتها هذه القاعدة التي تمثل أصلًا من أصول العدل، والجزاء والحساب[2].

وهذه القاعدة القرآنية المحكمة جاءت في سورة الزلزلة التي تتحدث عن شيء من أهوال ذلك اليوم العظيم، الذين تشيب لهوله الولدان، فتختم السورة بهذه القاعدة -التي نحن بصدد الحديث عنها- وتأتي مصدرة بفاء التفريع، فقال سبحانه: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ تفريعًا على قوله: ﴿لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ ليتيقن المحسنون بكمال رحمة الله، والمسيئون بكمال عدله ﷻ!

إن من أعظم ما يجلي كون هذه الآية من جوامع المعاني، ومن قواعد القرآن المحكمة، أن النبي ﷺ لما ذكر أقسام الخيل وأنها ثلاثة، وفصّل ذلك بتفصيل طويل،

---

(١) الزلزلة: ٧، ٨.

(٢) ينظر: القواعد الحسان للسعدي (١٤١)، والتحرير والتنوير (٣٠/ ٤٣٦) حيث قال: «وهذه الآية معدودة من جوامع الكلم».

ثم سئل ﷺ عن الحُمُر -وهي جمع حمار- فقال: «ما أنزل عليَّ في الحُمُر شيء إلا هذه الآية الفاذة الجامعة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾»[1].

ومعنى جوابه ﷺ: «أنها آية منفردة في عموم الخير والشر ولا أعلم آية أعم منها؛ لأنها تعم كل خير وكل شر»[2].

وعلى هذا الفهم العام لهذه الآية الكريمة، سار الصحابة رضي الله عنهم في فهمهم الذي تعلموه من النبي ﷺ، ومن ذلك:

* أن عائشة رضي الله عنها جاءها سائل فسأل! فأمرت له بتمرة، فقال لها قائل: يا أم المؤمنين إنكم لتصدّقون بالتمرة؟! قالت: نعم والله! إن الخلق كثير ولا يشبعه إلا الله، أوليس فيها مثاقيل ذر كثيرة؟!

* وعنها رضي الله عنها أن سائلًا جاءها، فقالت لجاريتها: أطعميه! فوجدت تمرة، فقالت: أعطيه إياها، فإن فيها مثاقيل ذر إن تُقُبِّلت!

* وروي أن عمرَ رضي الله عنه أتاه مسكين -وفي يده عنقود من عنب- فناوله منه حبة وقال: فيه مثاقيل ذر كثيرة!

وقد روي نحو هذا عن أبي ذر، وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهم أجمعين[3].

---

(١) البخاري (٢٢٤٢)، ومسلم (٩٨٧) عن أبي هريرة.

(٢) التمهيد (٤/ ٢١٩).

(٣) ينظر في هذه الآثار كلها: الدر المنثور: (١٥/ ٥٩٣).

وإذا كان هذا المعنى في باب احتساب النفقة، فثمة معنى آخر يتفطن له أرباب القلوب الحيّة، وهو: **الخوف من تبعة السيئات**، فقد أخرج ابن أبي شيبة عن الحارث ابن سويد: أنه قرأ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ حتى بلغ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ قال: **إن هذا الإحصاء شديد**[1].

وفي السنة الصحيحة من الأمثال والقصص ما يبين بجلاء معنى هذه القاعدة العظيمة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ ولعلي أكتفي في هذا المقام بهذين الحديثين اللذين لن تتضح الصورة إلا بهما جميعًا:

أما الحديث الأول فهو قوله ﷺ: «بينما كلب يطيف بركية -بئر- قد كاد يقتله العطش، إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل، فنزعت مُوقَها -خفها- فاستقت له به، فسقته إياه فغُفر لها به»[2].

وأما الحديث الآخر: فهو الحديث المتفق عليه، الذي يخبر فيه النبي ﷺ عن امرأة دخلت النار في هرة، ربطتها فلا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض، حتى ماتت هزلًا[3].

وقد عقّب الإمام الكبير محمد بن شهاب الزهري -بعد ما روى حديث الهرة-: «ذلك لئلا يتكل رجل، ولا ييأس رجل»[4]، **وهذا هو الشاهد الذي ينبغي أن نتأمله ههنا**: فتأمل - أيها المؤمن - كيف جاء هذان الحديثان ليفسرا لنا عمليًا هذه القاعدة:

---

(١) الدر المنثور: (١٥/ ٥٩١).

(٢) مسلم (٢٢٤٥).

(٣) البخاري (٣١٤٠)، ومسلم (٢٦١٩) واللفظ له.

(٤) شرح النووي على مسلم (١٧/ ٧٢).

﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ فتلك المرأة التي لم يذكرها النبي ﷺ بأنها عابدة! أو صائمة! بل لم يذكرها إلا بالبغاء! ومع هذا فقد نفعها هذا العمل! وأي عملٍ هو؟ إنه سقي حيوان من أنجس الحيوانات (الكلب)! ولكن الرب الرحيم الكريم لا تضيع عنده حسنة، بل كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠].

وفي الحديث الثاني: لم يذكر النبي ﷺ سببًا أدخلها النار غير حبسها لحيوان صغير لا يؤبه له!

كل هذا ليتحقق المؤمن معنى هذه القاعدة المحكمة: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾، وبه يتبين دقة كلام الإمام الزهري: حين علق على هذا الحديث بقوله الآنف الذكر: «ذلك لئلا يتكل رجل، ولا ييأس رجل».

إن من أعظم توفيق الله تعالى لعبده أن يعظّم الله، ومن أظهر صور تعظيم الرب ﷻ: تعظيم أمره ونهيه، وإجلال الله ﷻ وتوقيره، فلا يحقرن صغيرةً من الذنوب مهما صغر الذنب في عينه؛ لأن الذي عصي هو الله ﷻ، كما قال بلال بن سعد ؒ: «لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر مَنْ عصيت»[1].

وتأمل مقولة الإمام الجليل عون بن عبد الله ؒ حينما قرأ قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٩]:

---

(١) الزهد للإمام أحمد: (٣٨٤).




«ضج -والله- القوم من الصغار قبل الكبار»(١)، فمن كان قلبه حيًا تأثر بأي معصية، كالثوب الأبيض الذي يؤثر فيه أي دنس، وإلا فإن العبد إذا لم يجد للذنوب أثرًا -وإن كانت من الصغائر- فليتفقد قلبه، فإنه على شفا خطر! ولابن الجوزي رحمه الله كلمات نفيسة في هذا الموضوع في كتابه: «صيد الخاطر».

ولهذا لما قالت عائشة رضي الله عنها للنبي صلى الله عليه وسلم: حسبك من صفية كذا وكذا! -تعنى قصيرة- فقال: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته». رواه أبو داود والترمذي وصححه(٢).

وأما عدم زهد المؤمن في أي عمل صالح - وإن ظنّه صغيرًا - فلأنه لا يدري ما العمل الذي يدخله الجنة؟! قال صلى الله عليه وسلم: «لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»(٣).

ولما سأل أبو برزة رضي الله عنه نبينا صلى الله عليه وسلم فقال: يا نبي الله! علمني شيئا أنتفع به! قال: «اعزل الأذى عن طريق المسلمين»(٤).

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مر رجل بغصن شجرة على ظهر طريق فقال: والله لأنحين هذا عن المسلمين لا يؤذيهم، فأدخل الجنة»(٥).

---

(١) التمهيد (٢/ ٨٤).

(٢) أبو داود ح (٤٨٧٧)، الترمذي ح (٢٥٠٢) وصححه.

(٣) مسلم ح (٢٦٢٦) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٤) مسلم ح (٢٦١٨).

(٥) مسلم ح (١٩١٤).

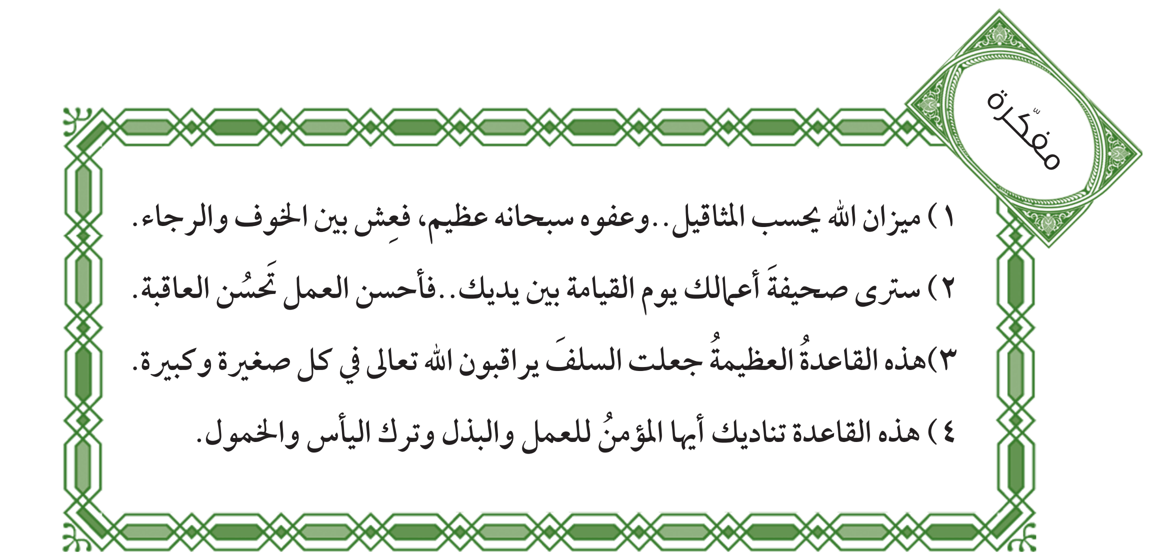


فتأمل -يا عبد الله- كم يحتقر كثير من الناس أمثال هذه الأعمال اليسيرة!

كم نمر في يومنا بغصن؟ أو بحجر؟ أو زجاجة منكسرة؟ فربما تكاسلنا عن إزالتها كسلًا في أمثال هذه الأعمال التي هي من أسباب دخول الجنة، وأرشد إليها بعض أصحابه!

ولو أردتَ أن تفتش في حياتنا اليومية لو جدت فيها عشرات الأمثلة من الأعمال اليسيرة، التي لو جمعت لشكلت سيلًا من الحسنات، دمعة يتم تمسحها، أو جوعة فقير تسدها، أو مساعدة عاجز، أو ابتسامة في وجه مسلم، في عدد من الأعمال لا يمكن حصرها، فما أحرانا أن نكون سباقين إلى كل خير، وإن دق في أعيننا، متذكرين هذه القاعدة العظيمة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾.

نسأل الله تعالى أن يضاعف لنا الحسنات، وأن يتجاوز عن السيئات، وأن ييسر لنا الخير، ويعيذنا من موارد الشر.



مفكّرة

١) ميزان الله يحسب المثاقيل..وعفوه سبحانه عظيم، فعِش بين الخوف والرجاء.

٢) سترى صحيفةَ أعمالك يوم القيامة بين يديك..فأحسن العمل تَحسُن العاقبة.

٣)هذه القاعدةُ العظيمةُ جعلت السلفَ يراقبون الله تعالى في كل صغيرة وكبيرة.

٤) هذه القاعدة تناديك أيها المؤمنُ للعمل والبذل وترك اليأس والخمول.



القاعدة التاسعة والثلاثون

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾[١]

هذه قاعدة قرآنية، وكلمةٌ جامعة، هي قاعدة من قواعد تربية النفس، وتوجيه علاقتها مع الله عَزَّوَجَلَّ[٢].

وهذه القاعدة بدئت بالفاء -التي تسمى بفاء التفريع- المرتبطة بالجملة الشرطية، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الشرح: ١ - ٨].

وغني عن التفصيل أن هذه السورة العظيمة -سورة الشرح- «احتوت على ذكرِ عنايةِ الله تعالى لرسوله بلطف الله له، وإزالةِ الغمّ والحرجِ عنه، وتيسير ما عسر عليه، وتشريفِ قدره؛ لِيُنَفِّسَ عنه؛ **فمضمونُها شبيهٌ بأنه** حجةٌ على مضمون سورة الضحى؛

(١) الشرح: ٧، ٨.

(٢) قال العلامة النحرير الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذه الآية من جوامع الكلم القرآنية لما احتوت عليه من كثرة المعاني» التحرير والتنوير: (٣٠/ ٣٦٨).

تثبيتًا له بتذكيره سالف عنايته به، وإنارة سبيل الحق، وترفيع الدرجة؛ ليعلم أن الذي ابتدأه بنعمته ما كان لِيقطع عنه فضله، وكان ذلك بطريقة التقرير بماض يعلمه النبي ﷺ»[1].

فإذا اتضح هذا تبين موقع هذه القاعدة التي نتحدث عنها: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ والتي يأمر الله فيها نبيه ﷺ إذا انتهى من طاعة أو عملٍ ما أن ينصب ويبدأ في عمل أو طاعة أخرى، وأن يرغب إلى ربه في الدعاء والعبادة، والتضرع والتبتل، لأن حياة المسلم الحق كلها لله، فليس فيها مجال لسفاسف الأمور، بل إن اللهو الذي تبيحه الشريعة لأصناف من الناس كالنساء والصبيان، أو في بعض الأوقات كالأعياد والأفراح؛ فإن من أعظم مقاصد ذلك أن يستجم الإنسان - والاستجمام للجد مرة ثانيةً من الشغل النافع - وأن يعيش العبودية لله في جميع أحواله، فهو يعيشها في السراء والضراء، وفي الشدة والرخاء، وفي الحضر والسفر، وفي الضحك والبكاء، ليتمثل حقًا قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، متأسيًا -قدر الطاقة- بالثلة المباركة من أنبياء الله ورسله الذين أثنى الله عليهم بقوله: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

---

(١) التحرير والتنوير: (٣٠/ ٣٥٩).




قال ابن القيم رحمه الله: «وأما الرغبة في الله، وإرادةُ وجهه، والشوقُ إلى لقائه، فهي رأس مال العبد، وملاكُ أمره، وقوامُ حياته الطيبة، وأصلُ سعادته وفلاحه ونعيمه، وقرةُ عينه، ولذلك خلق، وبه أُمِرَ، وبذلك أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، ولا صلاح للقلب ولا نعيم إلا بأن تكون رغبته إلى الله عز وجل وحده، فيكون هو وحده مرغوبه ومطلوبه ومراده، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ [الشرح: ٧ - ٨]»[١].

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه القاعدة: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ معنى عظيم، وهو أصل من الأصول التي تدل على أن الإسلام يكره من أبنائه أن يكونوا فارغين من أي عمل ديني أو دنيوي! وبهذا نطقت الآثار عن السلف الصالح رحمهم الله:

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: إني لأمقت أن أرى الرجل فارغًا لا في عمل دنيا ولا آخرة[٢]، وسبب مقت ابن مسعود رضي الله عنه لهذا النوع من الناس؛ لأن «قعود الرجل فارغًا من غير شغل، أو اشتغاله بما لا يعنيه في دينه أو دنياه من سفه الرأي، **وسخافة العقل، واستيلاء الغفلة**»[٣].

ولقد دلّ القرآن على أن هذا النوع من الناس الفارغين -وإن شئت فسمهم البطالين- ليسوا أهلًا لطاعة أوامرهم، بل تنبغي مجانبتهم؛ لئلا يُعدوا بطبعهم الرديء،

(١) روضة المحبين: (٤٠٥).

(٢) المعجم الكبير: (٩/ ١٠٢).

(٣) الكشاف: (٤/ ٧٧٧).



كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]، **يقول العلامة السعدي** رحمه الله: «ودلت الآية، على أن الذي ينبغي أن يطاع، ويكون إمامًا للناس، من امتلأ قلبه بمحبة الله، وفاض ذلك على لسانه، فلهج بذكر الله، واتبع مراضي ربه، فقدمها على هواه، **فحفظ بذلك ما حفظ من وقته**، وصلحت أحواله، واستقامت أفعاله، ودعا الناس إلى ما من الله به عليه، فحقيق بذلك، أن يتبع ويجعل إمامًا»[1].

ومن هدايات هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ أنها تربي في المؤمن سرعة إنجاز الأمور -ما استطاع إلى ذلك سبيلًا- وعدمِ إحالة إنجازها إلى وقت الفراغ، فإن ذلك من الأساليب التي يخدع بها بعض الناس نفسه، ويبرر بها عجزه، وإن من عجز عن امتلاك يومه فهو عن امتلاك غده أعجز!

قال بعض الصالحين: «كان الصديقون يستحيون من الله أن يكونوا اليوم على مثل حالهم بالأمس» علق ابن رجب رحمه الله على هذا فقال: «يشير إلى أنهم كانوا لا يرضون كل يوم إلا بالزيادة من عمل الخير، ويستحيون من فقد ذلك ويعدونه خسرانًا»[2]، ومن جميل ما قيل في هذا المعنى ذينك البيتين السائرين:

إذا هجع النُّوّامُ أسبلتُ عَبرتي ... وأنشدتُ بيتًا فهو مِن أحسن الشعر

أليس من الخسران أنَّ لياليًا ... تمر بلا شيءٍ وتُحسب مِن عمري

---

(١) تفسير السعدي (ص٤٧٥).

(٢) لطائف المعارف (ص٣٢١).

ومن الحكم السائرة: لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد! وهي حكمة صحيحة يشهد القرآن بصحتها، وقد روي عن الإمام أحمد أنه قال: إن التأخير له آفات! وصدق رحمه الله، والشواهد على هذا كثيرة:

- **فمن الناس من يكون عليه** التزامات شرعية بينه وبين الله، كقضاء الصيام، أو أداء فرض الحج -مثلًا- فتراه يسوّف ويماطل، حتى يتضايق عليه الوقت في الصيام، أو يفجأه الموت قبل أن يحج! ولئن كان هذا قبيحًا ومذمومًا في حقوق الله؛ فهو في حقوق الخلق -المبنية على المشاحة- أشد وأعظم، وكم ندم من كانت عليهم ديون حين تساهلوا في تسديدها وهي قليلة، فتراكمت عليهم؛ فعجزوا عنها، وصاروا بين ملاحقة الغرماء، والركض وراء الناس وإراقة ماء الوجه للاستدانة من جديد، أو للأخذ من الزكاة!! فهل من معتبر؟!

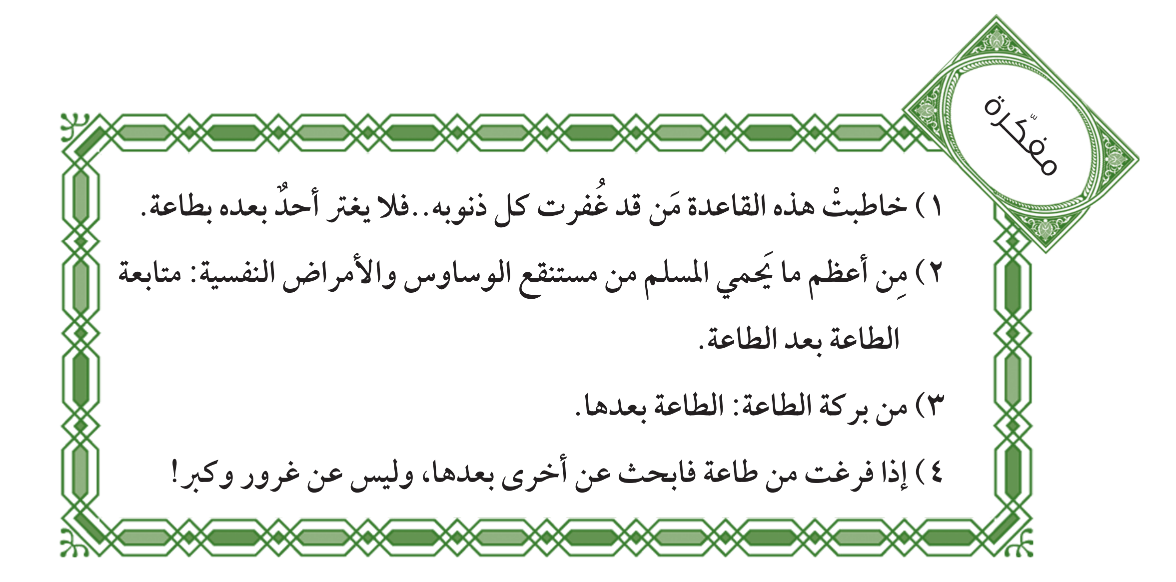
- **ومن آثار** مخالفة هذه القاعدة ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾: أن بعض الناس لا يهتبل ولا يستغل الفرص التي تسنح في طلب العلم وتحصيله، فإذا انفرط عليه العمر، وتقضى الزمن؛ ندم على أنه لم يكن قد حصل شيئًا من العلم ينفعه في حياته وبعد مماته!

وقل مثل ذلك: في تفريط كثير من الناس -وخصوصًا الشباب والفتيات- في التوبة، والإنابة، والرغبة إلى الله، بحجة أنهم إذا كبروا تابوا، وهذا لعمر الله من تلبيس إبليس!

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... ولاقيت بعد الموت من قد تزودا

ندمتَ على أن لا تكون كمثله ... وأنك لم ترصد بما كان أرصدا

وقوله تعالى -في هذه القاعدة التي هي مدار حديثنا-: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ أبلغ، وأعظم حادٍ إلى العمل، والجد في استثمار الزمن قبل الندم.



مفكّرة

١) خاطبتْ هذه القاعدة مَن قد غُفرت كل ذنوبه..فلا يغتر أحدٌ بعده بطاعة.

٢) مِن أعظم ما يَحمي المسلم من مستنقع الوساوس والأمراض النفسية: متابعة الطاعة بعد الطاعة.

٣) من بركة الطاعة: الطاعة بعدها.

٤) إذا فرغت من طاعة فابحث عن أخرى بعدها، وليس عن غرور وكبر!



القاعدة الأربعون

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾[1]

هذه قاعدة قرآنية، وكلمةٌ جامعة، وهي من أعظم قواعد الشرائع السماوية كلها، والتي لا يشذ عنها شيء.

وهذه القاعدة القرآنية المحكمة من أعظم القواعد الشرعية، التي يدخل تحتها من الفروع ما لا يحصيه إلا الله تعالى، وتتفق عليها جميع الشرائع السماوية؛ ذلك أن الشرائع كلها من لدن حكيم عليم: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥]: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

ومَرَدُّ معرفة العدل من الجور إلى أدلة الشريعة المطهرة، ونصوصها المفصلة.

يقول الإمام أبو محمد ابن حزم: «العدل حصن يلجأ إليه كل خائف، وذلك أنك ترى الظالم وغير الظالم إذا رأى من يريد ظلمه، دعا إلى العدل وأنكر الظلم حينئذ وذمه، ولا ترى أحدًا يذم العدل، فمن كان العدل في طبعه؛ فهو ساكن في ذلك الحصن الحصين»[2].

(١) النحل: ٩٠.

(٢) الأخلاق والسير (١٦٢).

وقال العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: «والعدل مما تواطأت على حسنه الشرائع الإلهية، والعقول الحكيمة، وتمدَّح بادعاء القيام به عظماءُ الأمم، وسجلوا تمدُّحهم على نقوش الهياكل من كلدانية، ومصرية، وهندية.

وحسن العدل بمعزل عن هوى يغلب عليها في قضية خاصة، أو في مبدأ خاص تنتفع فيه بما يخالف العدل بدافع إحدى القوتين: الشاهية والغاضبة»[(١)].

ويقول ابن تيمية: «إن جماع الحسنات: العدل، وجماع السيئات: الظلم»[(٢)].

وقال الماورديّ: «إنّ ممّا تصلح به حال الدّنيا قاعدة العدل الشّامل، الّذي يدعو إلى الألفة، ويبعث على الطّاعة، وتعمر به البلاد، وتنمو به الأموال، ويكبر معه النّسل، ويأمن به السّلطان، وليس شيء أسرع في خراب الأرض، ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور؛ لأنّه ليس يقف على حدّ، ولا ينتهي إلى غاية، ولكلّ جزء منه قسط من الفساد حتّى يستكمل»[(٣)].

إن هذا المعنى الشرعي العظيم -وهو العدل- الذين نتفيأ ظلال الحديث عنه من وحي هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ لهو معنى تعشقه النفوس الكريمة، والفطر السوية، ولله! كم كان تحقيقه سببًا في خيرات عظيمة، ومنح كثيرة؟! والعكس صحيح، وكم كان تحقيق هذا العدل سببًا في إسلام أناس ما حثهم على الإسلام إلا تحقيق هذا الأصل الكبير: العدل، وإليكم هذا الموقف الذي يبين شيئًا من آثار العدل في نفوس الخصوم قبل الأصدقاء:

---

(١) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام: ص (١٨٦).

(٢) مجموع الفتاوى: (١/ ٨٦).

(٣) أدب الدنيا والدين للماوردي: (١٤١).




روى ابن عساكر في «تاريخ دمشق» من طريق الشعبي قال:

وجد علي بن أبي طالب درعه عند رجل نصراني، فأقبل به إلى شريح يخاصمه[1] قال: فجاء علي حتى جلس إلى جنب شريح، فقال له علي: يا شريح! لو كان خصمي مسلمًا ما جلست إلا معه، ولكنه نصراني! وقد قال رسول الله ﷺ: «إذا كنتم وإياهم في طريق فاضطروهم إلى مضايقه[2]، وصغروا بهم كما صغر الله تعالى بهم، من غير أن تطغوا»، ثم قال علي: هذا الدرع درعي،لم أبع ولم أهب! فقال شريح للنصراني: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟ فقال النصراني: ما الدرع إلا درعي، وما أمير المؤمنين عندي بكاذب، فالتفت شريح إلى علي فقال: يا أمير المؤمنين! هل من بيّنة؟ قال: فضحك علي وقال: أصاب شريح! ما لي بينة، فقضى بها للنصراني!

قال: فمشى خُطىً ثم رجع، فقال النصراني: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام الأنبياء! **أميرُ المؤمنين قدمني إلى قاضيه، وقاضيه يقضي عليه؟ أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله،** الدرع والله درعك، يا أمير المؤمنين، اتبعتُ الجيش - وأنت منطلق إلى صفين - فخرجتْ من بعيرك الأوْرَق، فقال: أما إذا أسلمت فهي لك، وحمله على فرس، فقال الشعبي: فأخبرني من رآه: يقاتل الخوارج مع علي يوم النهروان[3].

(١) شريح القاضي: أحد أشهر القضاة في عهد أمير المؤمنين علي رضي الله عنه.

(٢) هذا قطعة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وهو في صحيح ابن حبان (٥٠١).

(٣) تاريخ دمشق: (٤٢/ ٤٨٧)، البداية والنهاية: (٨/ ٤).

فتأمل يا عبد الله! كيف أثّر هذا الموقف العجيب من الرجل الأول في الدولة آنذاك في إسلامه، بل والانضمام إلى جيوشه التي تقاتل الخوارج المارقين، وليست هذه فضيلة إقامة العدل في مثل هذه المواقف، بل إن الإمام العادل أحدُ السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظلّه.

وفي الموقف مَلْحظٌ آخر: ألا وهو أن هذا القاضي لم يكن ليجرؤ على مثل هذا الحكم لولا أنه وجد ما يسنده ويقوي جانبه في إصدار مثل هذا الحكم على خليفة المسلمين آنذاك، مِن الخليفة نفسه، ومتى شعر القاضي أنه لا يستطيع أن يحكم بالعدل الذي يراه، فعلى القضاء السلام.

وهذا الموقف -أيضًا- يبرز جانبًا من جوانب عظمة هذا الدين في العدل مع الخصوم والأعداء، فلم يمنع شريحًا كون الخصم نصرانيًا أن يقضي له، وهذا تطبيق عملي لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

وتمتد ظلال هذه القاعدة العظيمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ لتشمل جميع شؤون الحياة، فمن ذلك:

- **العدل مع الزوجات**: وهذا من الأمور المحكمات في باب العلاقة الزوجية، وهو أظهر من أن يفصل فيه، إلا أن الذي يؤكد عليه: هو تذكير الإخوة المعددين، بأن يتقوا الله في العدل بين زوجاتهم، وأن يحذروا من آثار عدمه السيئة في الحياة قبل الممات: وذلك فيما يقع بين الأولاد غير الأشقاء من نزاعات وخلافات، حتى يكونوا شماتة للآخرين، وأما في الآخرة فهو أعظم وأشد، وعليهم أن يتأملوا سيرة النبي ﷺ مع زوجاته التسع، ففيها الغَنَاء والعبرة.




ومن صور تطبيقات هذه القاعدة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾:

- **العدل مع الأولاد:** فعلى الوالدين أن يعدلوا بينهم، وأن يتجنبوا تفضيل بعضهم على بعض، سواء في الأمور المعنوية كالحب والحنان والعطف ونحو ذلك، أو في الأمور المادية كالهدايا والهبات، ونحوها.

- **العدل والإنصاف في إصدار الأقوال، وتقييم الآخرين:** قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥]، وقال ﷻ: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وهذا باب واسع جدًا، يدخل فيه الكلام على الأفراد، والجماعات، والفرق، والكتب والمقالات، وغير ذلك.

وما أجمل ما قاله ابن القيم في نونيته:

وتَحلَّ بالإنصاف أفخر حلة ... زِيْنَتْ بها الأعطاف والكتفان

وتعرّ مِن ثوبين مَن يلبسهما ... يلقى الردى بمذمة وهوان

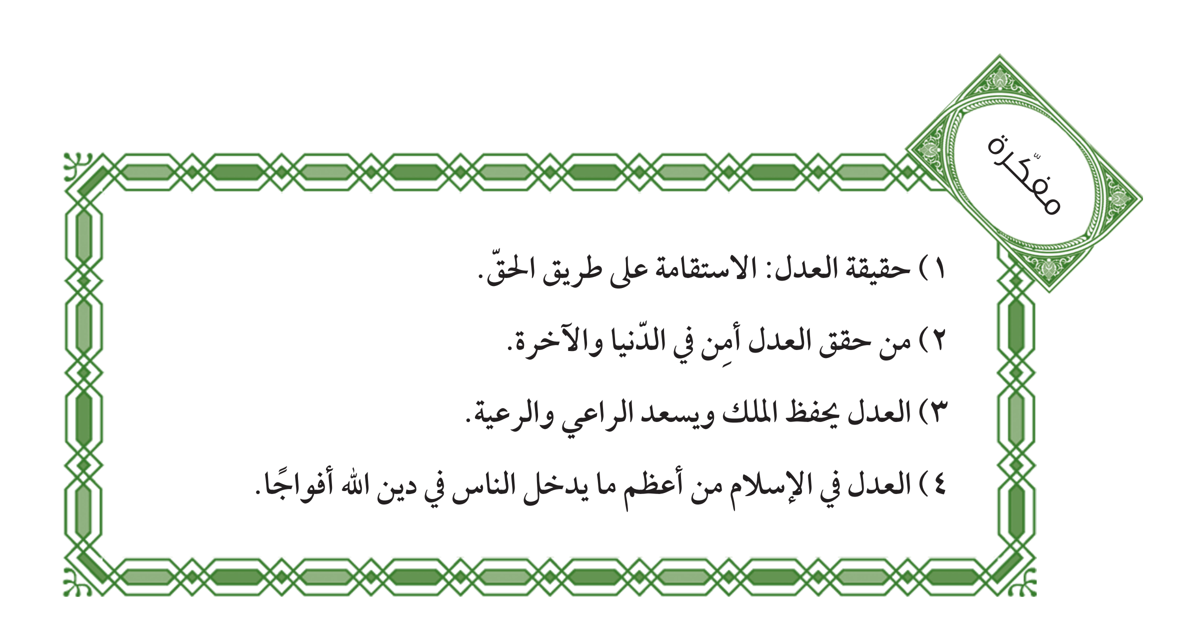
ثوب من الجهل المركّب فوقَه ... ثوب التعصُّب بئست الثوبان

ومن صور العدل التي دلّت عليها هذه القاعدة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾:

- **العدل في العبادة**: بحيث لا يتجاوز بها صاحبها العدل، ويتعدى الحد، ولا يقصّر في أدائها على الوجه الشرعي.

- **العدل في النفقات**: قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء:٢٩]، وقال ﷻ مثنيًا على عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:٦٧]، وكان من أدعية النبي ﷺ العظيمة: «وأسألك القصد في الفقر والغنى»[1].

وبالجملة: فمن تأمل أوامر الله تعالى وجدها وسطًا بين خلقين ذميمين: تفريط وإفراط، وهذا هو معنى هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾.



١) حقيقة العدل: الاستقامة على طريق الحقّ.

٢) من حقق العدل أمِن في الدّنيا والآخرة.

٣) العدل يحفظ الملك ويسعد الراعي والرعية.

٤) العدل في الإسلام من أعظم ما يدخل الناس في دين الله أفواجًا.

---

(١) سنن النسائي (٣/ ٥٤) ح (١٣٠٥)، وصححه ابن حبان ح (١٩٧١).



القاعدة الحادية والأربعون

﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾(1)

هذه قاعدة قرآنية محكمة لها أثرها الإيماني والتربوي لمن عقلها وتدبرها.

وهذه القاعدة القرآنية المحكمة تكررت بلفظ قريب في عدد من المواضع، كما تكرر معناها في مواضع أخرى.

فمن نظائرها اللفظية المقاربة قول الله ﷻ: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وقال سبحانه: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، ويقول ﷻ: ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ...﴾ [القصص: ٤٧].

وأما الآيات التي وردت في تقرير هذا المعنى فكثيرة جدا، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص:٥٩]، وكقوله ﷻ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، وقال ﷻ: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨١ - ١٨٢] في ثلاث مواضع من كتاب الله ﷻ.

---

(١) الشورى: ٣٠.

ويقول سبحانه: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦]، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله -ملخصًا ما دلت عليه هذه الآيات الكريمة بتلخيص العالم المتتبع المستقرئ لنصوص القرآن الكريم-: «والقرآن يبين في غير موضع: أن الله لم يهلك أحدًا ولم يعذبه إلا بذنب»(١).

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآيات الكريمة دلت عليه أيضا نصوص من الوحي الآخر، ألا وهو السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، ومن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم -في الحديث القدسي العظيم- الذي يرويه عن ربه تعالى قال الله عز وجل: «**إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه**»(٢).

وفي صحيح البخاري من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سيد الاستغفار أن تقول اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء لك بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت...» الحديث(٣).

وفى الصحيحين: لما سأل أبو بكر رضي الله عنه النبيَّ صلى الله عليه وسلم أن يعلمه دعاء يدعو به في صلاته، قال له عليه الصلاة والسلام: «**قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرًا ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**»(٤).

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٤/ ٤٢٤).

(٢) صحيح مسلم ح (٢٥٧٧).

(٣) البخاري ح (٦٣٠٦).

(٤) البخاري ح (٨٣٤)، مسلم ح (٢٧٠٥).

فتأمل في هذه الأحاديث جيدًا! فَمَنْ هو السائل؟ ومَنْ هو المجيب؟ أما السائل فهو أبو بكر، الصديق الأكبر الذي شهد له النبي ﷺ بالجنة في مواضع متعددة، وأما المجيب فهو الرسول الناصح المشفق صلوات الله وسلامه عليه! ومع هذا يطلب منه عليه الصلاة والسلام أن يعترف بذنوبه، وظلمه الكبير والكثير، ويسأل ربه مغفرة ذلك والعفو عنه، والسؤال هنا: مَنْ الناس بعد أبي بكر رضي الله عنه؟

إذا تقررت هذه الحقيقة الشرعية -وهي أن الذنوب سببٌ للعقوبات العامة والخاصة- فحري بالعاقل أن يبدأ بنفسه، فيفتش عن مناطق الزلل فيه، وأن يسأل ربه أن يهديه لمعرفة ذلك، فإن من الناس من يستمرئ الذنب تلو الذنب، والمعصية تلو المعصية، ولا ينتبه لذلك! بل قد لا يبالى! ولربما استحسن ذلك -عياذًا بالله- فتتابع العقوبات عليه وهو لا يشعر، فتكون مصيبته حينئذٍ مضاعفه!

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله -وهو يتحدث عن الأمور التي تورث العبد الصبر وتعينه عليه ليبلغ مرتبة الإمامة في الدين- قال: «أن يشهد ذنوبه، وأن الله إنما سلط الناس عليه بسبب ذنبه، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾، فإذا شهد العبد أن جميع ما يناله من المكروه فسببه ذنوبه؛ اشتغل بالتوبة والاستغفار من الذنوب التي سلطهم عليه بسببها عن ذنبهم ولومهم، والوقيعة فيهم، وإذا رأيت العبد يقع في الناس إذا آذوه ولا يرجع إلى نفسه باللوم و الاستغفار، فاعلم أن مصيبته مصيبة حقيقية، وإذا تاب واستغفر، وقال: هذا بذنوبي، صارت في حقه نعمة، قال علي رضي الله عنه كلمة من جواهر الكلام: «لا يرجونّ عبدٌ إلا ربه ولا يخافن عبد إلا ذنبه»، وروي عنه وعن غيره: «**ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة**»[1].

(١) قاعدة في الصبر -طبعت ضمن رسائله التي حققها عزيز شمس-: (١/ ١٦٩).

ويقول تلميذه ابن القيم رحمه الله وهو يوضح شيئًا من دلالات هذه القاعدة القرآنية المحكمة:

«وهل في الدنيا والآخرة شرور وداء إلا سببه الذنوب والمعاصي؟!

فما الذي أخرج الأبوين من الجنة دار اللذة والنعيم، والبهجة والسرور إلى دار الآلام والأحزان والمصائب؟

وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء؟ وطرده ولعنه، ومسخ ظاهره وباطنه؟ فجعلت صورته أقبح صورة وأشنعها، وباطنه أقبح من صورته وأشنع، وبُدِّلَ بالقرب بعدًا، وبالرحمة لعنةً، وبالجمال قبحًا، وبالجنة نارًا تلظى، وبالإيمان كفرًا، وبموالات الولي الحميد أعظم عداوة ومشاقة، وبزجل التسبيح والتقديس والتهليل زجلَ الكفر والشرك والكذب والزور والفحش، وبلباس الإيمان لباس الكفر والفسوق والعصيان؟ فهان على الله غاية الهوان، وسقط من عينه غاية السقوط، وحلّ عليه غضب الرب تعالى، فأهواه ومقته أكبر المقت...

وما الذي أغرق أهل الأرض كلهم؟ حتى علا الماء فوق رأس الجبال، وما الذي سلط الريح العقيم على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض، كأنهم أعجاز نخل خاوية؟ ودمرت ما مرَّ عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابهم؟ حتى صاروا عبرة للأمم إلى يوم القيامة؟

وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة، حتى قطعت قلوبهم في أجوافهم، وماتوا عن آخرهم؟

وما الذي رفع قرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم، ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها؟ فأهلكهم جميعًا ثم أتبعهم حجارة من سجيل السماء،




أمطرها عليهم فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمة غيرهم، ولإخوانهم أمثالها، وما هي من الظالمين ببعيد.

وما الذي أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظلل؟ فلما صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم نارًا تلظى؟

وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر، ثم نقلت أرواحهم إلى جهنم، فالأجساد للغرق والأرواح للحرق؟

وما الذي خسف بقارون وداره وماله وأهله؟

وما الذي أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات، ودمرها تدميرًا؟... -إلى أن قال-: قال الإمام أحمد رحمه الله: حدثنا الوليد بن مسلم، ثنا صفوان بن عمر، حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه قال: لما فتحت قبرص، فُرِّقَ بين أهلها، فبكى بعضهم إلى بعض، فرأيت أبا الدرداء جالسًا وحده يبكي! فقلت: يا أبا الدرداء! ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ فقال: ويحك يا جبير! ما أهون الخلق على الله عز وجل إذا أضاعوا أمره؟! بينما هي أمة قاهرة ظاهرة، لهم الملك، تركوا أمر الله؛ فصاروا إلى ما ترى»![1].

والذي استطرد كثيرا في بيان آثار الذنوب والمعاصي السيئة على الفرد والمجتمع في كتابه النافع الجواب الكافي وذكر كلاما نفيسا يحسن الرجوع إليه والاستفادة منه.

وليُعْلَم أنه ينبغي أن ندرك أن العقوبات حينما تذكر، فلا يصح حصرها في العقوبات الحسية أو العقوبات الجماعية -التي أشار ابن القيم إلى شيء منها- كالهدم والغرق والصيحة، أو السجن والعذاب الحسي، ونحو ذلك،

(١) الجواب الكافي: (٢٦-٢٧).



فهذه لا شك أنها أنواع من العقوبات، ولكن ثمة أنواع من العقوبات قد تكون أشد وأعظم، وهي تلك العقوبات التي تتسلط على القلب، فيضرب بالغفلة وقسوته، حتى إن جبال الدنيا لو تناطحت أمامه ما اعتبر ولا اتعظ -عياذًا بالله- بل يظن المسكين، أو تظن أمة من الأمم -وهي ترى النعم تتابع وتزداد مع استمرارها في البعد عن شرع الله- تظن أن ذلك علامةً على رضى الله ﷻ عنها، وهذه لعمر الله من أعظم العقوبات التي يبتلى بها العبد وتبتلى بها أمة من الأمم.

تدبر جيدًا قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢ - ٤٤] فنعوذ بالله أن نكون من أهل هذه الآية، ونسأله بمنه وكرمه أن يتوب علينا وأن يبصرنا بمواطن الزلل منا، وأن لا يضربنا بقسوة القلب، وأن لا يؤاخذنا بما فعل السفهاء منا إن ربي سميع مجيب الدعاء.

مفكّرة

١) من لطف الله بعبده أن يعجل له جزاء سيئته في الدنيا.

٢) حتى الشوكة يشاكها المؤمن..يكفّر الله بها من سيئاته.

٣) قد أقام الله الحجة على الخلق..ورغم هذا فهو يعفو عن كثير من آثامهم.

٤) لن يهلك على الله إلا من شرد عليه شراد البعير على أهله! فحججه قائمة، ونعمه متواترة، وعفوه عظيم.



هذه قاعدة قرآنية محكمة، وثيقة الصلة بواقع الناس؛ إذ لا ينفك أحدٌ عنها لكثرة تلبسهم بها، فكان التذكير بها وبما دلّت عليه أمرًا مهمًا، إنها قول الله تعالى: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾ [المائدة: ٨٩].

وهذه القاعدة القرآنية المحكمة جاءت ضمن سياق الحديث عن كفارة اليمين في سورة المائدة، قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [المائدة: ٨٩].

ومعنى هذه القاعدة التي نحن بصدد الحديث عنها ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾: هو حفظها عن ثلاثة أمور:

---

(١) المائدة: ٨٩.

الأمر الأول: حفظها عن الحلف بالله كاذبًا.

والأمر الثاني: حفظها عن كثرة الحلف والأيمان.

والأمر الثالث: حفظها عن الحنث فيها إذا حلف الإنسان، اللهم إلا إذا كان الحنث خيرًا، فتمام الحفظ: أن يفعل الخير، ولا يكون يمينه سببًا في ترك ذلك الخير الذي حلف على تركه[1]، وبيان هذه الأمور فيما يلي:

أما حفظ الأيمان عن الحلف الكاذب:

فإن الحلف الكاذب من أكبر الكبائر، وتلك هي اليمين الغموس -التي تغمس صاحبها في الإثم- يقول النبي ﷺ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ما الكبائر؟! قال: «الإشراك بالله»، قال: ثم ماذا؟ قال: «ثم عقوق الوالدين»، قال ثم ماذا؟ قال: «اليمين الغموس» قلت: وما اليمين الغموس؟ قال: «الذي يقتطع مال امرئ مسلم هو فيها كاذب»[2].

وقد بوّب البخاري رحمه الله على هذا الحديث فقال: باب اليمين الغموس، ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ دَخَلًا: مكرًا وخيانة.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «ومناسبة ذكر هذه الآية لليمين الغموس: ورود الوعيد على من حلف كاذبًا متعمدًا»[3].

---

(١) ينظر: تفسير الطبري: (١٠/ ٥٦٢)، وتفسير القرطبي: (٦/ ٢٨٥)، وتفسير السعدي (٢٤٢).

(٢) البخاري ح (٦٥٢٢).

(٣) فتح الباري: (١١/ ٥٥٦).




وإنك لتعجب -مع وضوح هذا الأمر بحفظ اليمين، والتحذير من اليمين الكاذبة- أن يتجرأ بعض الناس على الأيمان الكاذبة، من أجل لعاعة من الدنيا، أو من أجل دفع مضرة عن نفسه بسبب كذبه أو تحايله!

ألم يعلم هؤلاء أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة؟!

ألم يسمع هؤلاء حديث النبي ﷺ الذي يرتجف له القلب: «من حلف على يمين صبْرٍ يقتطع بها مال امرئٍ مسلمٍ -هو فيها فاجر- لقي الله وهو عليه غضبان»[(١)] ويمين الصبر -كما قال العلماء-: هي التي يحبس الحالف نفسه عليها، وتسمى هذه اليمين الغموس[(٢)].

وأما حفظها عن كثرة الحلف والأيمان:

يقول تعالى في هذه القاعدة: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾: فهو الإقلال من الحلف، وقد ذم الله تعالى من أكثر الحلف بقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم:١٠].

والعرب كانوا يمدحون الإنسان بالإقلال من الحلف، كما قال كُثَيِّر:

قليل الألايا حافظ ليمينه وإن سبقت منه الألية برّت

والحكمة في الأمر بتقليل الأيمان:

١- أن من حلف في كلِّ قليل وكثير بالله، انطلق لسانه بذلك ولا يبقى لليمين في قلبه وقع، فلا يؤمن إقدامه على اليمين الكاذبة، فيختل ما هو الغرض الأصلي في اليمين.

---

(١) مسلم ح (٢٢٠).

(٢) ينظر: شرح النووي على مسلم (٢/ ١٦٠).



٢- كلما كان الإنسان أكثر تعظيماً لله تعالى كان أكمل في العبودية، ومن كمال التعظيم أن يكون ذكر الله تعالى أجل وأعلى عنده من أن يستشهد به في غرض من الأغراض الدنيوية[١].

٣- أنه يقلل ثقة الإنسان بنفسه، وثقة الناس به، فهو يشعر بأنه لا يصدق فيحلف، ولهذا وصفه الله تعالى بالمهين[٢].

لذا ينبغي للآباء والأمهات والمربين أن ينتبهوا لهذا الخلل الذي يقع فيه بعض الناس، وأن يربوا من تحت أيديهم على تعظيم الله ﷻ، ومن صور ذلك: نهيهم عن كثرة الأيمان بلا حاجة.

والملاحظ: أنه لو فُتّش في أكبر أسباب فشو هذه الظاهرة لوجِدَ أنه من قِبَل الأبوين والمربين، وهذا يفضي إلى عدم تعظيم اسم الله واحترامه وهيبته.

ومن اللطائف المتعلقة بهذا المعنى: أن النبي ﷺ الذي امتدت دعوته ثلاثة وعشرين عامًا، لم يحفظ عنه أنه حلف إلا في بضع وثمانين موضعًا!

فماذا سيكون جواب بعض الناس الذين لو أحصيت أيمانهم في سنة واحدة لوجدتها بالعشرات، ولغير حاجة ملحّة، فرحم الله عبدًا حفظ يمينه، ووقّر ربه، وعظم اسمه، ولم يحلف إلا عند الحاجة!

وأما حفظها عن الحنث في الأيمان:

فإن الواجب على المؤمن إذا حلف على شيء من أمور الخير أو من المباحات أن يتقي الله ويبر بيمينه؛ لأن هذا من تعظيم المحلوف به وتوقيره -وهو الله ﷻ-.

---

(١) ينظر: تفسير الرازي (٦/ ٦٥).

(٢) ينظر: تفسير المنار (٢/ ٢٩١).

ويستثنى من ذلك: إذا كان الحنث ومخالفة اليمين خيرًا من الاستمرار فيه، **فتمام الحفظ**: أن يفعل الخير، وأن لا تكون يمينه سببًا في ترك ذلك الخير الذي حلف على تركه.

ومعنى الحنث هنا: مخالفة المحلوف عليه.

ومثال ذلك: أن يحلف على أن لا يأكل النوع الفلاني من الطعام، أو لا يدخل البيت الفلاني، فإن الأفضل هنا أن لا يستمر في يمينه، خاصة إن ترجحت المصلحة في الحنث، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﵁ قال: أعتَم[1] رجل عند النبي ﷺ ثم رجع إلى أهله، فوجد الصبية قد ناموا، فأتاه أهله بطعامه، فحلف لا يأكل من أجل صبيته، ثم بدا له فأكل، فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، فقال رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأتها وليكفر عن يمينه»[2].

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ: «إني - والله - إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرًا منها إلا أتيت الذي هو خير، وتحللتها»[3]، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

والمقصود أن نتأمل هذه القاعدة القرآنية جيدًا: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ بأن نحفظها عن الحلف بالله كاذبًا، وأن نحفظها عن كثرة الحلف والأيمان من غير حاجة، وأن نحفظها عن الحنث فيها إلا إذا كان الحنث خيرًا من المضي فيها.

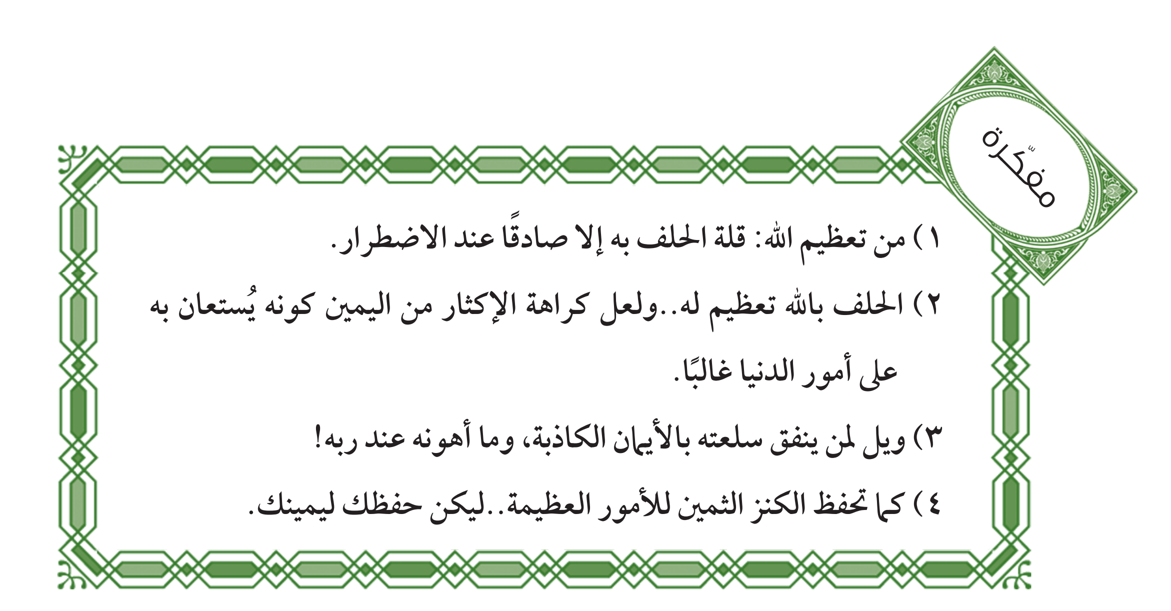
---

(١) أي: تأخر عنده إلى عتمة الليل، وهي شدَّة ظلمته.

(٢) مسلم ح (١٦٥٠).

(٣) البخاري ح (٦٣٤٢)، ومسلم ح (١٦٤٩).

وكلُّ ما مضى يجعلنا ندرك أن الشرع الحكيم أولى موضوع الأيمان أهمية بالغة، وبيّن أحكامها تمام البيان، من أجل أن يعرف المسلم حدود هذه العبادة، وأحكامها، وما يجب وما يحرم وما يستحب، وأن ذلك كلّه إنما شرع ووضح تعظيماً لله ﷻ، وليحفظ العبد يمينه من العبث بها، أو التقليل من شأنها، رزقنا الله وإياكم معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، وتعظيمها على الوجه الذي يحبه ويرضاه، وأن يمنحنا الفقه في دينه، والبصيرة فيه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.



١) من تعظيم الله: قلة الحلف به إلا صادقًا عند الاضطرار.

٢) الحلف بالله تعظيم له..ولعل كراهة الإكثار من اليمين كونه يُستعان به على أمور الدنيا غالبًا.

٣) ويل لمن ينفق سلعته بالأيمان الكاذبة، وما أهونه عند ربه!

٤) كما تحفظ الكنز الثمين للأمور العظيمة..ليكن حفظك ليمينك.



هذه القاعدة القرآنية المحكمة -في باب الأخلاق- لها صلة قوية بتربية القلب وتزكيته، كما أن لها صلةً بعلاقة الإنسان بغيره من الناس[2].

وهذه القاعدة وردت في كتاب الله في موضعين:

الأول: في سياق الثناء على الأنصار رضوان الله عليهم في سورة الحشر، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

الثاني: في سورة التغابن في سياق الحديث عن فتنة الأموال والأولاد والأزواج، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤- ١٧].

---

(١) تكررت هذه القاعدة في القرآن مرتين: الحشر: ٩، والتغابن: ١٦.

(٢) وقد أشار إلى كونها قاعدة كلية شيخنا العثيمين رحمه الله في فتاوى نور على الدرب.

ومعنى هذه القاعدة باختصار لا يتضح إلا ببيان معنى الشح:

فالشح -في مادته اللغوية- «الأصل فيه: المنع، ثم يكون منعًا مَعَ حِرص، ومن ذلك الشُّحُّ: وهو البُخل مع حِرص، ويقال: تَشَاحَّ الرّجلانِ على الأمر: إذا أراد كلُّ واحدٍ منهما الفوزَ به ومنْعَه من صاحبه»[1].

ولما كان الشحُّ غريزةً في النفس أضافه الله إلى النفس ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ﴾ وهذا لا يعني أنه لا يمكن الخلاص منه، بل الخلاص منه يسير على من يسره الله عليه، ولكن الخلاص التام منه بأنواعه كلها الحسية والمعنوية، لا يوفق له إلا المفلحون، ولهذا رؤي عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وهو يطوف بالبيت ويقول: «رب قني شح نفسي! رب قني شح نفسي»! لا يزيد على ذلك، فقيل له في هذا؟ فقال: «إذا وقيت شح نفسي لم أسرق، ولم أزنِ، ولم أفعل»[2].

وهذا من عمق فهم السلف -والصحابة منهم خصوصًا- لمعاني كلام الله تعالى.

وقد قال جمع من المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ﴾: هو ألا يأخذ شيئًا مما نهاه الله عنه، ولا يمنع شيئا أمره الله بأدائه، فالشح يأمر بخلاف أمر الله ورسوله، فإن الله ينهى عن الظلم ويأمر بالإحسان، والشح يأمر بالظلم وينهى عن الإحسان[3].

ويقول ابن تيمية: «فالشح -الذي هو شدة حرص النفس- يوجب البخل بمنع ما هو عليه؛ والظلمَ بأخذ مال الغير، ويوجب قطيعةَ الرحم، ويوجب الحسد»[4].

---

(١) معجم مقاييس اللغة: (٣/ ١٧٨).

(٢) تاريخ دمشق: (٣٥/ ٢٩٤).

(٣) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٥٨٩).

(٤) مجموع الفتاوى: (٢٨/ ١٤٤).

وقال في موضع آخر: «والشح يكون في الرجل مع الحرص وقوة الرغبة في المال، وبغض للغير وظلم له، كما قال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٨ - ١٩] فشحهم على المؤمنين وعلى الخير يتضمن كراهيته وبغضه، وبغض الخير يأمر بالشر، وبغض الإنسان يأمر بظلمه وقطيعته كالحسد؛ فإن الحاسد يأمر حاسده[1] بظلم المحسود وقطيعته كابني آدم وإخوة يوسف»[2] ا.هـ.

ولعلك لاحظتَ ارتباط هذه القاعدة -في سورة الحشر والتغابن- بموضوع المال! لأنه -والله أعلم- هو أظهر ما يتضح فيه خلق الشح، وإن كان الشح لا ينحصر بالمال.

ومن الأمثلة التطبيقية التي توضح معنى هذه القاعدة التي نحن بصدد الحديث عنها:

١- ما وضحته آية الحشر، من المنقبة العظيمة التي مدح الله بها الأنصار الذين فتحوا بيوتهم وصدورهم لإخوانهم من المهاجرين رضي الله عنهم أجمعين، رغم قلة ذات يد كثير منهم، وحسبك بهذه المدحة الإلهية، من العليم الخبير -الذي يعلم ما تكنه النفوس-: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

---

(١) هكذا! ولعل صوابها: فإن الحسد يأمر صاحبه.

(٢) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٥٩٠).

فتأمل هذه الأعمال القلبية التي كشفها ربنا عنهم، وهي كلها تدل على سلامتهم من شح نفوسهم:

أ- أما العمل الأول ﴿يُحِبُّونَ﴾ إذ من شأن القبائل أن يتحرجوا من الذين يهاجرون إلى ديارهم لمضايقتهم.

ب- وأما العمل الثاني: ففي قوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ لأنها لو كانت موجودة لأدركوها في نفوسهم.

ج- أما العمل الثالث: فهو الإيثار، وهو: ترجيح شيء على غيره بمكرمة أو منفعة، والمعنى: يُؤثِرونَ على أنفسهم في ذلك اختيارًا منهم، والخصاصة: شدة الاحتياج[(١)].

فهل تريد نموذجًا لم تسمع الدنيا بمثله؟!

تدبر في هذا الموقف الذي رواه لنا الإمام البخاري في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه قال: قدم علينا عبد الرحمن بن عوف، وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين سعد بن الربيع، وكان كثير المال، فقال سعد: قد عَلِمَت الأنصارُ أني من أكثرها مالًا، سأقسم مالي بيني وبينك شطرين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك فأطلقها، حتى إذا حلت تزوجتها، فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك، دلني على السوق![(٢)].

فتأمل هذا السخاء النادر، والإيثار العظيم!

والله لو كان الموقف يحكي تنازله عن جزء يسير من ماله لكان شهامةً ونُبلًا، فكيف وهو يتنازل عن شطر ماله! بل ويعرض عليه فراق إحدى زوجتيه!! أي نفوس هذه؟!

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: (١٥/ ٧٢-٧٥).

(٢) البخاري ح (٣٥٧٠).




أين المطلعون على أخبار الأمم؛ ليأتونا بأمثال هؤلاء الرجالِ تلاميذِ مدرسةِ محمد ﷺ؟!

٢- ومن تطبيقات هذه القاعدة: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ما ذكره الله تعالى في حال خوف المرأة من نشوز زوجها وترفعه عنها وعدم رغبته فيها وإعراضه عنها، فالأحسن -والحال هذه- أن يصلحا بينهما صلحًا بأن تسمح المرأة عن بعض حقوقها اللازمة لزوجها على وجه تبقى مع زوجها، فهي خير من الفرقة، ولهذا قال: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾، ثم ذكر المانع بقوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ أي: جبلت النفوس على الشح، وهو: عدم الرغبة في بذل ما على الإنسان، والحرص على الحق الذي له، فالنفوس مجبولة على ذلك بطبيعتها، والمعنى: أنه ينبغي لكم أن تحرصوا على قلع هذا الخلق الدنيء من نفوسكم، وتستبدلوا به بالسماحة، وهو بذل الحق الذي عليك؛ والاقتناع ببعض الحق الذي لك، فمتى وفق الإنسان لهذا الخلق الحسن سَهُلَ حينئذ عليه الصلح بينه وبين خصمه ومُعَامِله، بخلاف من لم يجتهد في إزالة الشح من نفسه، فإنه يعسر عليه الصلح والموافقة؛ لأنه لا يرضيه إلا جميع ماله، ولا يرضى أن يؤدي ما عليه، فإن كان خصمه مثله اشتد الأمر(١).

٣- ومن تطبيقات هذه القاعدة: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ما أثنى الله به على أهل الإيثار، من الأنصار ومن وافقهم في هذا الخلق العظيم، الذي اعتبره ابن القيم: أحد مدارج السالكين إلى عبودية رب العالمين، فجعل منزلة الإيثار من جملة هذه المنازل.

فما الإيثار؟! الإيثار ضد الشح، فإن المؤثر على نفسه تارك لما هو محتاج إليه، والشحيح: حريص على ما ليس بيده فإذا حصل بيده شيء شح عليه، وبخل بإخراجه، فالبخل ثمرة الشح، والشح يأمر بالبخل.

---

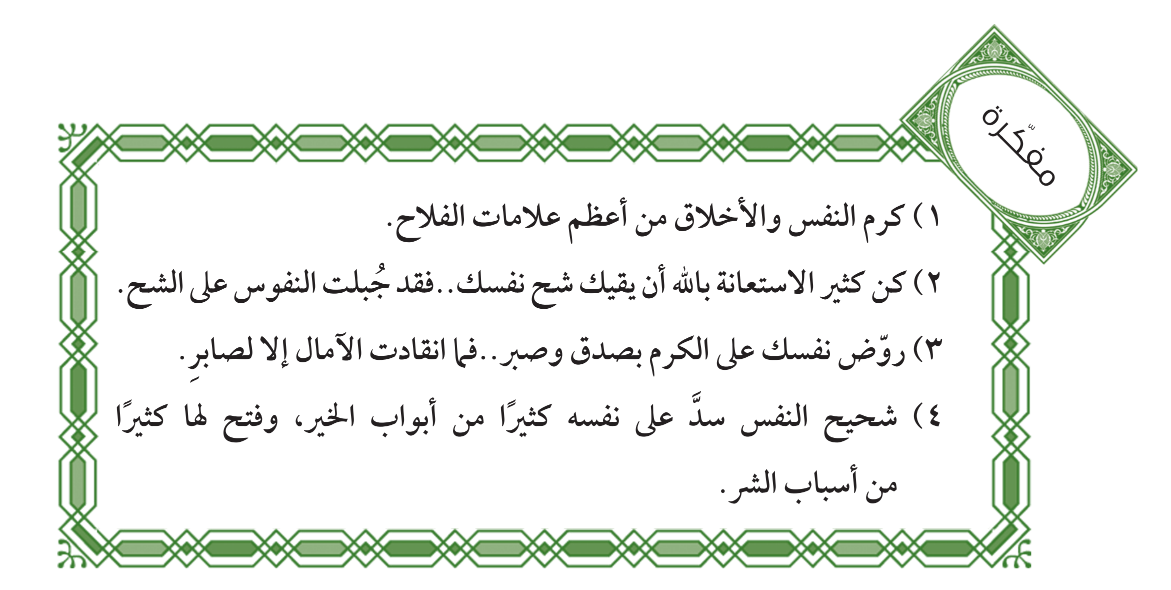
(١) تفسير السعدي: (٢٠٦).



ولنختم حديثنا بهذا الموقف الذي يدل على عظمة نفوس الصحابة:

فهو لقيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنه، وقد كان من الأجواد المعروفين، حتى إنه مرض مرةً فاستبطأ إخوانه في العيادة، فسأل عنهم؟ فقالوا: إنهم كانوا يستحيون مما لك عليهم من الدين! فقال: أخزى الله مالًا يمنع الإخوان من الزيارة، ثم أمر مناديًا ينادي: من كان لقيس عليه مال فهو منه في حِلٍّ، فما أمسى حتى كسرت عتبة بابه لكثرة من عاده![1].

فلله تلك النفوس الكبيرة، والأخلاق العظيمة! وأكثر في الناس من أمثالهم.



١) كرم النفس والأخلاق من أعظم علامات الفلاح.

٢) كن كثير الاستعانة بالله أن يقيك شح نفسك..فقد جُبلت النفوس على الشح.

٣) روّض نفسك على الكرم بصدق وصبر..فما انقادت الآمال إلا لصابرِ.

٤) شحيح النفس سدَّ على نفسه كثيرًا من أبواب الخير، وفتح لها كثيرًا من أسباب الشر.

---

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٢٩١).



هذه من أعظم القواعد التي تعين على تعبيد القلب لرب العالمين، وتربيته على التسليم والانقياد.

وهذه القاعدة تدل دلالة واضحة -كما يقول أبو نعيم، في بيان شيء من خصائصه ﷺ-: «أن الله تعالى فرض طاعته على العالم فرضًا مطلقًا لا شرط فيه، ولا استثناء، فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾، وقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ وإن الله تعالى أوجب على الناس التأسي به قولًا وفعلًا مطلقًا بلا استثناء، فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ واستثنى في التأسي بخليله، فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ إلى أن قال: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾»[2].

---

(١) الحشر: ٧.

(٢) نقله السيوطي في الخصائص الكبرى: (٢/ ٢٩٧).

ولقد دأب العلماء على الاستدلال بهذه القاعدة في جميع أبواب العلم والدين:

فالمصنفون في العقائد يجعلونها أصلًا في باب التسليم والانقياد للنصوص الشرعية، وإن خفي معناها، أو عسر فهمها على المكلف، قال الإمام أحمد: إذا لم نقر بما جاء عن النبي ﷺ رددنا على الله أمره، قال الله ﷻ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[1].

وفي أبواب الفقه: يعمد كثير من المفتين من الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم إلى النزع بهذه القاعدة في إيجاب شيء أو تحريمه، وإن شئت فقل: في الأمر بشيء أو النهي عنه، وإليك هذه القصة التي رواها الشيخان من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، فإنه حينما حدّث وقال: لعن الله الواشمات والمستوشمات، والنامصات والمتنمصات، والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله! قال: فبلغ ذلك امرأةً من بني أسد يقال لها: أم يعقوب! - وكانت تقرأ القرآن - فأتته فقالت: ما حديث بلغني عنك؟ أنك لعنت الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله؟ فقال عبد الله: **وما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ، وهو في كتاب الله؟! فقالت المرأة: لقد قرأت ما بين لوحي المصحف فما وجدته!** فقال: لئن كنتِ قرأتيه لقد وجدتيه! قال الله ﷻ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾!

---

(١) الإبانة لابن بطة: (٣/ ٥٩).




فقالت المرأة: فإني أرى شيئًا من هذا على امرأتك الآن! قال: اذهبي فانظري، قال: فدخلت على امرأة عبد الله فلم تر شيئًا! فجاءت إليه، فقالت: ما رأيت شيئًا! فقال ابن مسعود رضي الله عنه: أما لو كان ذلك لم نجامعها[1].

وهذا عبد الرحمن بن يزيد يرى محرمًا عليه ثيابه، فنهر المحرم، فقال: «ائتني بآية من كتاب الله عز وجل بنزع ثيابي»! فقرأ عليه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾.

وهذه قصة أخرى -تؤكد وضوح هذا المعنى عند سلف الأمة رحمهم الله-:

يقول عبد الله بن محمد الفريابي: سمعت الشافعي ببيت المقدس يقول: سلوني عما شئتم أخبركم عن كتاب الله، وسنة رسوله! فقلت: إن هذا لجريء! ما تقول أصلحك الله في المُحرِم يقتل الزنبور؟ فقال: نعم بسم الله الرحمن الرحيم، قال الله عز وجل: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[2].

ويقول محمد بن يزيد بن حكيم المستملي: رأيت الشافعي في المسجد الحرام، وقد جُعلت له طنافس[3]، فجلس عليها، فأتاه رجل من أهل خراسان، فقال: يا أبا عبد الله، ما تقول في أكل فرخ الزنبور؟ فقال: حرام.

---

(١) البخاري ح (٤٦٠٤)، مسلم ح (٢١٢٥).

(٢) تاريخ دمشق: (٥١/ ٢٧١).

(٣) الطِّنْفِسَة والطُّنْفُسة: النُّمْرُقَة فوق الرحل وجمعها طَنَافِسُ وقيل هي البِساط الذي له خَمْلٌ رقيق. ينظر: لسان العرب: (٦/ ١٢٧).



فقال: حرام؟! قال: نعم من كتاب الله، وسنة رسول الله، والمعقول، أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[1].

إن هذه القاعدة التي نحن بصدد الحديث عنها: لتدل بمفهومها على ضرورة حفظ السنة، حفظها من الضياع، وحفظها في الصدور، إذ لا يتأتى العمل بالسنة إلا بعد حفظها حسًّا ومعنى، قال إسماعيل بن عبيد الله: ينبغي لنا أن نحفظ حديث رسول الله ﷺ كما يحفظ القرآن لأن الله يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾[2].

وأما الحفظ المعنوي: فإن جهود أئمة الحديث من عهد الصحابة رضي الله عنهم ومن تلاهم من التابعين والأئمة لا تخفى على أدنى مطلع، وليس هذا مقام الحديث عن هذا الموضوع، وإنما المقصود: التنبيه على أن الحفظ الذي تحقق لسنة النبي ﷺ على أيدي هؤلاء قد قام به أئمة الإسلام خير قيام، فلم يبق على من بعدهم إلا حفظ ألفاظها، والتفقه في معانيها، والعمل بمقتضاها، إذ هذا هو المقصود الأعظم من ذلك كلّه.

إن في الآثار التي سقت بعضها، وتركتُ كثيرًا منها، لدلالةً على شمول الآية لجميع الأوامر -سواء كانت واجبة أم مستحبة-، وشاملة لجميع النواهي -سواء كانت محرمة أم مكروهة-.

---

(١) سير أعلام النبلاء: (١٠/ ٨٨).

(٢) تاريخ دمشق: (٨/ ٤٣٦).

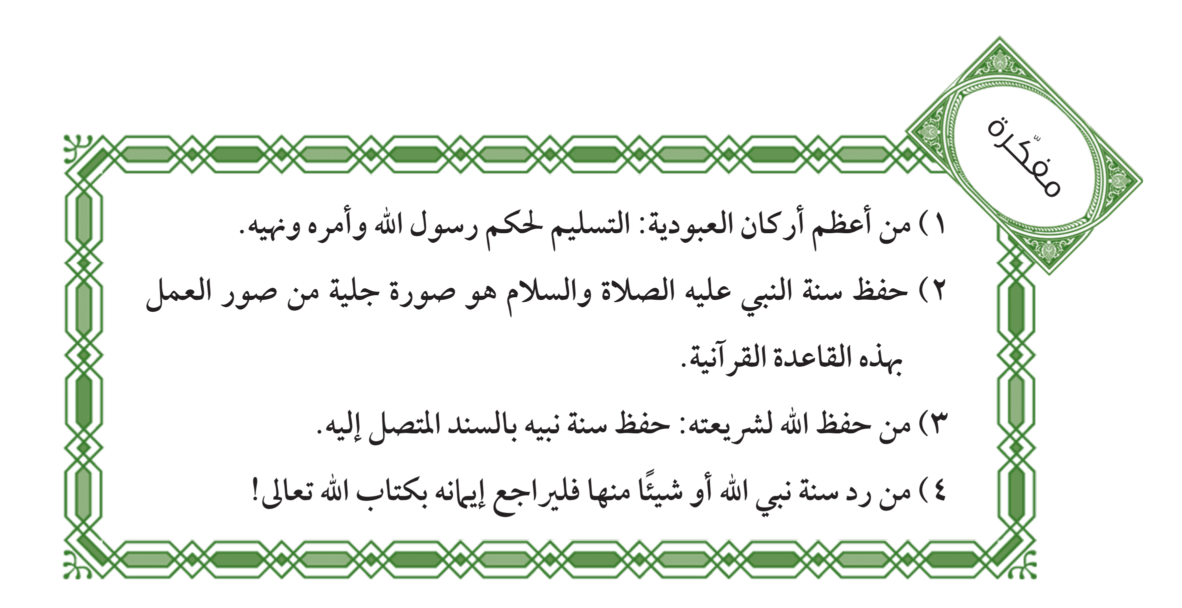
ومن تأمل واقع الصحابة -رضوان الله عليهم أجمعين- وجدهم أصحاب القِدْح المُعَلَّى في تلقي الأوامر والنواهي بنفوسٍ مُسلِّمة، وقلوب مخبتة، ومستعدة للتنفيذ، ولا تجد في قاموسهم تفتيشا ولا تنقيبًا: هل هذا النهي للتحريم أم للكراهة؟ ولا: هل هذا الأمر للوجوب أم للاستحباب؟ بل ينفذون ويفعلون ما يقتضيه النص، فأخذوا هذا الدين بقوة، فصار أثرهم في الناس عظيمًا وكبيرًا.

ولما طغى على الناس -في القرون المتأخرة- كثرة السؤال والتنقيب: هل هذا الأمر واجب أم مستحب؟ وهل هذا مكروه أم محرم؟ صار أخذ كثير منهم لأوامر الله ونواهيه ضعيفًا، فصار أثر التعبد لله هزيلًا، والانقياد عسيرًا.

إنني لا أنكر انقسام الأوامر إلى واجب ومستحب، ولا أنكر انقسام النواهي إلى محرم ومكروه، ولا يُنكر أن الإنسان قد يحتاج إلى تفصيل الحال -عند وقوع المخالفة- ليتبين حكم الله، وما يجب عليه من كفارة ونحو ذلك، لكن الذي يؤسف عليه: أن أكثر الذين يسألون عن هذا التقسيم، ليس مرادهم طلب العلم وتحرير المسائل، بل التملص، والتنصل من الامتثال، وإلى هؤلاء يتوجه الحديث في هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾.

إنني موقن أن من ربى نفسه على ترك كل ما يُنهى عنه، وفعل كل ما يستطيعه من الأوامر، من غير تنقيب عن حال هذا النهي أو ذاك الأمر، بل يبادر تعبدًا لله تعالى بتعظيم الأمر والنهي؛ فإنه سيجد لذة عظيمة في قلبه، إنها لذة العيش في كنف العبودية، وظِلِّ الاستكانة والاستجابة والخضوع لله رب العالمين.

ومن أعظم دلالات هذه القاعدة: أنها ترد على أولئك الذين يزعمون الاكتفاء بالقرآن فقط في تطبيق أحكام الشريعة، فهاهو القرآن ذاته يأمر باتباع الرسول ﷺ، ولن يكون ذلك إلا باتباع سنته، بل كيف يتأتى للإنسان أن يصلي، أو يزكي، أو يصوم، أو يحج بمجرد الاقتصار على القرآن؟!



١) من أعظم أركان العبودية: التسليم لحكم رسول الله وأمره ونهيه.

٢) حفظ سنة النبي عليه الصلاة والسلام هو صورة جلية من صور العمل بهذه القاعدة القرآنية.

٣) من حفظ الله لشريعته: حفظ سنة نبيه بالسند المتصل إليه.

٤) من رد سنة نبي الله أو شيئًا منها فليراجع إيمانه بكتاب الله تعالى!



هذه قاعدة قرآنية محكمة، يحتاجها كل مؤمن، وعلى وجه الخصوص من عزم على الإقبال على ربه، وقرع باب التوبة.

وهذه القاعدة هي جزء من آية كريمة في سورة هود، يقول الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]، وهذه الآية الكريمة سبقت بجملة من الأوامر العظيمة للنبي ﷺ ولأمته، يحسن ذكرها ليتضح الربط بينها، يقول تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٢ - ١١٣].

ومعنى الآية -التي تضمنت هذه القاعدة باختصار-: أن الله تعالى يخاطب نبيه ﷺ - وهو خطاب للأمة كلها - بأن يقيموا الصلاة طرفي النهار، وساعاتٍ من الليل، ينصب فيها قدميه لله تعالى، ثم علّلَ هذا الأمر فقال: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي يمحونها ويكفرنها حتى كأنها لم تكن -على تفصيل سيأتي بعد قليل إن شاء الله-

(١) هود: ١١٤ .

والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ وما بعده، وقيل: إلى القرآن، ذكرى للذاكرين: أي موعظة للمتعظين[1].

وكما أن هذه القاعدة صرحت بهذا المعنى، وهو إذهاب الحسنات للسيئات، فقد جاء في السنة ما يوافق هذا اللفظ تقريبًا، كما في الحديث الذي رواه الترمذي وحسَّنه[2] من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، **وأتبع السيئة الحسنة تمحها**، وخالق الناس بخلق حسن»[3].

إذا تبين معنى هذه القاعدة بإجمال، فليعلم أن إذهاب السيّئات يشمل أمرين:

١- إذهاب وقوعها، وحبها في النفس، وكرهها، بحيث يصير انسياق النّفس إلى ترك السيّئات سَهْلًا وهيّنًا كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧]، ويكون هذا من خصائص الحسنات كلّها.

٢- ويشمل أيضًا محو إثمها إذا وقعت، ويكون هذا من خصائص الحسنات كلّها، فضلًا من الله على عباده الصالحين»[4].

ولقد بحث العلماء ههنا معنى السيئات التي تذهبها الحسنات، والذي يتحرر في الجمع بين أقوالهم أن يقال:

---

(١) ينظر: فتح القدير (٢/ ٦٧٨).

(٢) وفي بعض النسخ: صحيح، وقد استبعد هذا ابن رجب في تعليقه على هذا الحديث في «جامع العلوم والحكم» ح (١٨).

(٣) الترمذي ح (١٩٨٧)، وقد رجح الدارقطني إرساله، وانظر تعليق ابن رجب عليه في «الجامع» ح (١٨).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير (٧/ ٢٨٤).




إن كانت الحسنة هي التوبة الصادقة، سواء من الشرك، أو من المعاصي، فإن حسنة التوحيد، والتوبة النصوح لا تبقي سيئة إلا محتها وأذهبتها، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٧١].

وفي صحيح مسلم من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له - لما جاءه يبايعه على الإسلام والهجرة -: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله؟»[1].

وإن كان المراد بالحسنات عموم الأعمال الصالحة كالصلاة والصيام، فإن القرآن والسنة دلّا صراحةً على أن تكفير الحسنات للسيئات مشروط باجتناب الكبائر، قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، وقال عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر»[2].

لقد جاء معنى هذه القاعدة الجليلة: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ في القرآن الكريم على صور منها:

(١) مسلم ح (١٢١).

(٢) مسلم ح (٢٣٣).



١- في سياق الثناء على أهل الجنة قال تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [الرعد:٢٢].

قال ابن عباس رضي الله عنهما -في بيان معناها-: يدفعون بالصالحِ من العملِ السيئَ من العمل.

علق البغوي على كلمة ابن عباس، فقال: «وهو معنى قوله: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾»[1].

٢- إثبات هذا المعنى في الأمم السابقة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المائدة: ٦٥].

٣- إثباته في سياق الحديث عن توبة العصاة، كما في آية الفرقان التي ذكرتها قبل قليل: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ...﴾ إلى قوله: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ...﴾ الآيات [الفرقان: ٦٨-٧١].

❊ من تطبيقات هذه القاعدة:

إن الأمثلة التطبيقية التي توضح وتؤكد معنى هذه القاعدة المحكمة: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ لكثيرة جدًّا، لكن لعلنا نذكر بعضها تنبيهًا على باقيها، وأول ما نبدأ به من الأمثلة هو ما ذكره ربنا في الآية الكريمة التي تضمنتها هذه القاعدة، وهو:

١- إقامة الصلاة طرفي النهار -وهو مبتدأه ومنتهاه-، وساعات من الليل، ولا ريب أن أول ما يدخل في هذه الصلوات الخمس، كما يدخل فيها: بقية النوافل، كالسنن الرواتب، وقيام الليل.

(١) تفسير البغوي: (٤/ ٣١٣).




وإذا كانت هذه الآية الكريمة تدل على أن الصلوات المفروضات والنوافل من أعظم الحسنات الماحية للسيئات، فإن السنة صرّحت بهذا -كما تقدم- بشرط اجتناب الكبائر.

فليبشر الذين يحافظون على صلواتهم فرضها ونفلها بأنهم من أعظم الناس حظًّا من هذه القاعدة القرآنية: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، ويا تعاسة وخسارة من فرطوا في فريضة الصلاة!!.

٢- ومن تطبيقات هذه القاعدة، ما رواه الشيخان من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: أن رجلا أصاب من امرأة قُبلةً، فأتى النبي ﷺ فأخبره؛ فأنزل الله ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فقال الرجل: يا رسول الله ألي هذا؟! قال: «**بل لجميع أمتي كلهم**»[(١)].

٣- قصة توبة القاتل الذي قتل تسعةً وتسعين نفسًا -وهي في الصحيحين- وهي قصة مشهورة جدًّا، والشاهد منها، أنه لما انطلق من أرض السوء إلى أرض الخير: «أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلًا بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط، فأتاه ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرْضَين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة»[(٢)].

(١) البخاري ح (٥٠٣)، ومسلم ح (٢٧٦٣).

(٢) البخاري ح (٣٢٨٣)، ومسلم ح (٢٧٦٦).



فإلى كل من أسرف على نفسه، وقنّطه الشيطان من رحمة ربه، لا تيأسنَّ ولا تقنطنَّ، فهذا رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا، فلما صحّت توبته، رحمه ربه ومولاه، مع أنه لم يعمل خيرًا قط من أعمال الجوارح سوى هجرته من بلد السوء إلى بلد الخير، أفلا تحرك فيك هذه القصة الرغبة في هجرة المعاصي، والإقبال على من لا سعادة ولا أنس إلا بالإقبال عليه؟!

وتأمل في هذه الكلمة المعبرة، التي قال الحسن البصري: «استعينوا على السيئات القديمات بالحسنات الحديثات، وإنكم لن تجدوا شيئا أذهب بسيئة قديمة من حسنة حديثة، وأنا أجد تصديق ذلك في كتاب الله: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾»[1].

اللهم ارزقنا حسناتٍ تذهب سيئاتنا، وتوبة تجلو أنوارها ظلمة الإساءة والعصيان.

مفكّرة

١) كرَمُ الله وبركاته لا تزال بالمؤمن حتى تسوقه للجنة دار الكرامة الأبدي.

٢) لما علم الله ضعف عباده بالوقوع في السيئات..فتح لهم أبوابًا كثيرة لتكفيرها.

٣) أبشر أيها المؤمن..فكل طاعة تعملها ترفعك عند ربك، وتمحو بها من سيئاتك.

٤) هذه القاعدة العظيمة حصن عظيم للمؤمن من فخ القنوط الذي ينصبه الشيطان للمذنبين من عباد الله.

(١) تفسير ابن أبي حاتم: (٨/ ٢٧٩).



هذه قاعدة قرآنية محكمة، وثيقة الصلة بقضية مهمة في باب الصلة مع الله، ومع عباده.

وهذه القاعدة القرآنية المحكمة، جاء ذكرها ضمن سياق آيات الحج، قال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

ويحسن قبل الشروع في بيان شيء من معاني هذه القاعدة، أن نوضح معنى الآية التي تضمنتها هذه القاعدة بإيجاز، فيقال:

١- لما تقرر فرض الحج، وذكرت بعض أحكامه قبل هذه الآية -فيما يخص الإتمام والإحصار- بدأ الحديث عن جملة من الآداب والأحكام، منها: النهي عن الرفث «وهو الجماع ومقدماته الفعلية والقولية، خصوصا عند النساء بحضرتهن،

(١) البقرة: ١٩٧ .

والفسوق وهو: جميع المعاصي، ومنها محظورات الإحرام، والجدال وهو: المماراة والمنازعة والمخاصمة، لكونها تثير الشر، وتوقع العداوة»[1] فـ «لما نهاهم عن إتيان القبيح قولا وفعلا، حثهم على فعل الجميل وأخبرهم أنه عالم به، وسيجزيهم عليه أوفر الجزاء يوم القيامة»[2].

٢- وفي الإخبار بأنه ما من خير نفعله إلا وهو يعلمه سبحانه وتعالى، دلالة واضحة على أن هذا متضمن الإثابة على هذا، والحض عليه، وإلا فإنه ﷻ يعلم الخير والشر، ونظير هذه القاعدة قوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

٣- وفي قوله تعالى: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ في سياق هذه الجملة الشرطية: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟﴾ دليل على شمول الآية لكل خير قليلًا كان أو كثيرًا.

٤- ثم ختمت الآية بأمرين مهمين، تضمنهما قوله ﷻ: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾، ففي قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟﴾ أي اتخذوا زادًا لغذاء أجسامكم، وغذاء قلوبكم -وهذا أفضل النوعين- لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾، فلما رغب سبحانه وتعالى في التقوى، أمر بها طلبًا لخيرها فقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾، وإنما خوطب أصحاب العقول بهذا الخطاب -وهم أولوا الألباب- لأنهم هم الذين يدركون فائدة التقوى، وثمرتها؛ أما السفهاء فلا يدركونها»[3].

---

(١) تفسير السعدي (٩١).

(٢) تفسير ابن كثير: (١/ ١٩٧).

(٣) ينظر: تفسير القرآن للعثيمين (٢/ ٤١٥).

إن هذه القاعدة الجليلة، لتربي في المؤمن معاني إيمانيةٍ وتربوية كثيرة -وهو في سيره إلى الله والدار الآخرة-، ولعلنا نلخص هذه المعاني فيما يلي:

أولًا: في هذه الآية ترغيب وحض على إخلاص العمل لله جلّ وعلا، وإن لم يطلع عليه أحد، بل إن الموفق من عباد الله من يحرص كل الحرص على إخفاء العمل عن الخلق ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، وفي ذلك من الفوائد والعوائد على القلب والنفس الشيء الكثير، ولابن القيم كلمات تكتب بماء الذهب في هذا المعنى، حيث يقول:

«وكم من صاحب قلب وجَمعية وحال مع الله، قد تحدث بها، وأخبر بها، فسلبه إياها الأغيار، فأصبح يقلب كفيه، ولهذا يوصي العارفون والشيوخ بحفظ السر مع الله، وأن لا يطلعوا عليه أحدًا، ويتكتمون به غاية التكتم، كما أنشد بعضهم في ذلك:

من سارروه فأبدى السر مجتهدًا ... لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا

وأبعدوه فلم يظفر بقربهم ... وأبدلوه مكان الأنس إيحاشا

لا يأمنون مذيعًا بعض سرهم ... حاشا وِدادِهِمُ من ذلكم حاشا

والقوم أعظم شيءٍ كتمانًا لأحوالهم مع الله، وما وهب الله لهم من محبته والأنس به، وجمعية القلب عليه، ولا سيما للمبتدئ والسالك، فإذا تمكن أحدهم وقوي، وثبتت أصول تلك الشجرة الطيبة - التي أصلها ثابت وفرعها في السماء -في قلبه- بحيث لا يخشى عليه من العواصف - فإنه إذا أبدى حاله وشأنه مع الله ليُقتدى به ويؤتم به؛لم يبال، وهذا باب عظيم النفع وإنما يعرفه أهله»[1].

(١) بدائع الفوائد: (٣/ ٨٤٧) ط.عالم الفوائد.

ثانيًا: ومن المعاني التي تربيها هذه القاعدة: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ في نفوس أهلها:

راحة النفس، واطمئنان القلب، ذلك أن المحسن إلى الخلق، المخلص في ذلك لا ينتظر التقدير والثناء من الخلق، بل يجد سهولةً في الصبر على نكران بعض الناس للجميل الذي أسداه، أو المعروف الذي صنعه! فإنه إذا يفعل الخير ويوقن بأن ربّه يعلمه علمًا يثيب عليه؛ هان عليه ما يجده من جحود ونكران، فضلًا عن التقصير في حقه، ولسان حاله - كما أخبر الله عن أهل الجنة -: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩].

أعرف رجلًا مفضالًا، له شفاعات ووجاهات لنفع الخلق، وابتلي بأناس نسوا جميله، وتنكروا لمعروفه، بل شعر أن بعضهم طعنه من الخلف، أو قلب له ظهر المجن!

فذكرتُ له هذا المعنى -الذي ندندن حوله ههنا- فاستراح كثيرًا.

ومع ما تقدم ذكره، فإني أهدي لإخواني -الذين منّ الله عليهم بالإحسان إلى الخلق وابتلوا بجفائهم- هذا النص النفيس لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، حيث يقول في كلام طويل له حول هذا المعنى، قال:

«ولا يحملنك هذا على جفوة الناس، وترك الإحسان إليهم، واحتمال الأذى منهم، بل أحسن إليهم لله لا لرجائهم، وكما لا تخفهم فلا ترجهم، وخف الله في الناس ولا تخف الناس في الله وارج الله في الناس ولا ترج الناس في الله،




وكن ممن قال الله فيه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الليل: ١٧- ٢٠]، وقال فيه: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩]»[١]، وقال في موضع آخر -موصيًا من يتصدى لنفع الخلق-:

«وإذا أحسن إلى الناس فإنما يحسن إليهم: ابتغاء وجه ربه الأعلى، ويعلم أن الله قد منَّ عليه بأن جعله محسنًا، ولم يجعله مسيئًا، فيرى أن عمله لله وأنه بالله، وهذا مذكور في فاتحة الكتاب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ...﴾، فالمؤمن يرى: أن عمله لله لأنه إياه يعبد وأنه بالله؛ لأنه إياه يستعين، فلا يطلب ممن أحسن إليه جزاء ولا شكورًا؛ لأنه إنما عمل له ما عمل لله كما قال الأبرار: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩]، ولا يمن عليه بذلك ولا يؤذيه، فإنه قد علم أن الله هو المانّ عليه إذ استعمله في الإحسان، وأن المنة لله عليه وعلى ذلك الشخص، فعليه هو: أن يشكر الله إذ يسره لليسرى، وعلى ذلك: أن يشكر الله إذ يسر له من يقدم له ما ينفعه من رزقٍ أو علمٍ أو نصر أو غير ذلك.

ومن الناس: من يحسن إلى غيره ليَمُنَّ عليه، أو يرد الإحسان له بطاعته إليه، وتعظيمه أو نفع آخر، وقد يمن عليه فيقول: أنا فعلت بك كذا، فهذا لم يعبد الله ولم يستعنه، ولا عمل لله ولا عمل بالله، فهو المرائي، وقد أبطل الله صدقة المنان وصدقة المرائي...» إلخ[٢].

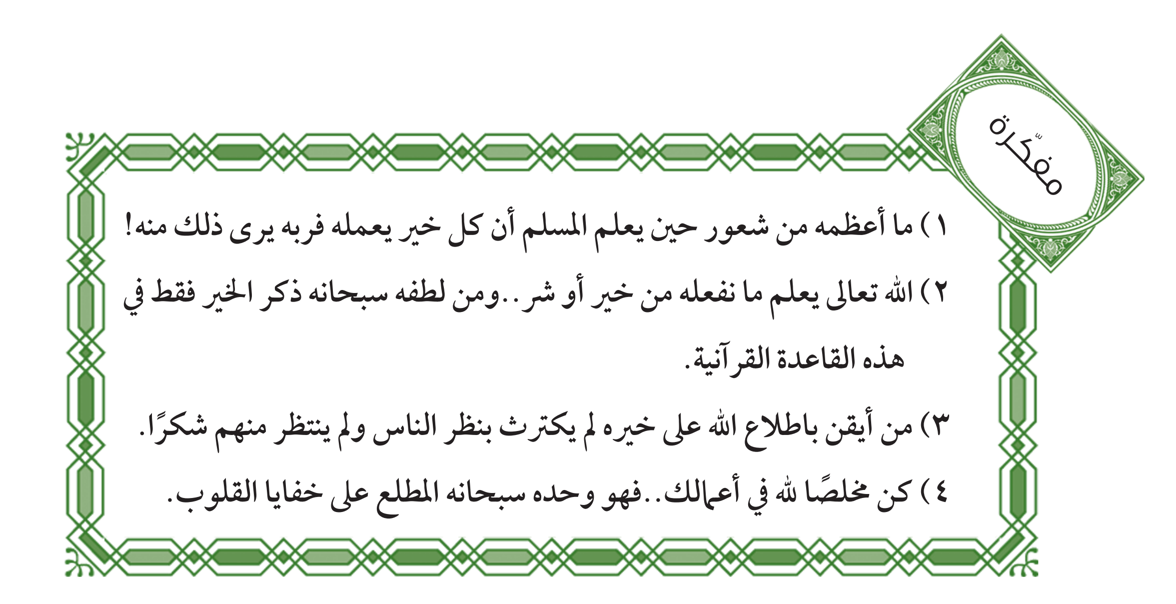
(١) مجموع الفتاوى: (١/ ٣١).

(٢) مجموع الفتاوى: (١٤/ ٣٢٩).






والمقصود: أن من فهم ما ترشد إليه هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾ أقدم على فعل الخير، وسهل عليه الصبر على تقصير الخلق وجفائهم؛ لأنه لا يرجو سوى الله، نسأل الله تعالى بمنّه وكرمه أن يرزقنا فعل الخيرات، والإخلاص لله تعالى في كل ما نأتي ونذر.



١) ما أعظمه من شعور حين يعلم المسلم أن كل خير يعمله فربه يرى ذلك منه!

٢) الله تعالى يعلم ما نفعله من خير أو شر..ومن لطفه سبحانه ذكر الخير فقط في هذه القاعدة القرآنية.

٣) من أيقن باطلاع الله على خيره لم يكترث بنظر الناس ولم ينتظر منهم شكرًا.

٤) كن مخلصًا لله في أعمالك..فهو وحده سبحانه المطلع على خفايا القلوب.



القاعدة السابعة والأربعون

﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ (١)

هذه قاعدة قرآنية محكمة، نحن بأَمَسِّ الحاجة إليها كل حين، وخاصة حين يبتلى الإنسان بمصيبة من المصائب المزعجة، وما أكثرها في هذا العصر.

وهذه القاعدة القرآنية جاء ذكرها ضمن آية كريمة في سورة التغابن يقول الله فيها: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [التغابن: ١١].

والآية -كما هو ظاهر وبيّن- تدل على أنه ما من مصيبة أيًّا كانت، سواء كانت في النفس، أو في المال، أو في الولد، أو الأقارب، ونحو ذلك، فكل ذلك بقضاء الله وقدره، وأن ذلك بعلمه وإذنه القدري ﷻ، وجرى به القلم، ونفذت به المشيئة، واقتضته الحكمة، والشأن كل الشأن، هل يقوم العبد بما يجب عليه من عبودية الصبر والتسليم -الواجبين-، ثم الرضا عن الله تعالى؟! وإن كان الرضا ليس واجبا بل مستحبًا.

(١) التغابن: ١١ .



وتأمل كيف علق الله تعالى هداية القلب على الإيمان؛ ذلك أن الأصل في المؤمن أن يروضه الإيمان على تلقي المصائب، واتباع ما يأمره الشرع به من البعد عن الجزع والهلع، متفكرًا في أن هذه الحياة لا تخلوا من منغصات ومكدرات:

جبلت على كدر وأنت تريدها صفوا من الأقذاء والأقذار!

وهذا كما هو مقتضى الإيمان، فإن في هذه القاعدة: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ إيماءً إلى الأمر بالثبات والصبر عند حلول المصائب؛ لأنه يلزم من هَدْيِ الله قلبَ المؤمن عند المصيبة ترغيبَ المؤمنين في الثبات والتصبر عند حلول المصائب، فلذلك جاء ختم هذه الآية بجملة: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1].

وهذا الختم البديع بهذه الجملة: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يزيد المؤمن طمأنينة وراحة من بيان سعة علم الله، وأنه ﷻ لا يخفى عليه شيء مما يقع، وأنه ﷻ الأعلم بما يصلح حال العبد وقلبه، وما هو خير له في العاجل والآجل، وفي الدنيا وفي الآخرة، يقرأ المؤمن هذا وهو يستشعر قول النبي ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن! إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»[2].

ويقول عون بن عبد الله بن عتبة: «إن الله ليُكره عبده على البلاء كما يُكره أهل المريض مريضهم، وأهل الصبي صبيهم على الدواء، ويقولون: اشرب هذا، فإن لك في عاقبته خيرًا»[3]، ولنعد إلى هذه القاعدة: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ التي هي موضع حديثنا.

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٥١).

(٢) مسلم ح (٢٩٩٩).

(٣) حلية الأولياء: (٤/ ٢٥٢).




وثمة كلماتٍ نورانية، قالها سلف هذه الأمة تعليقًا على معنى هذه القاعدة، ولنبدأ بحبر الأمة وترجمان القرآن -ابن عباس- حيث يقول رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾: يهد قلبه لليقين فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه(١).

ويقول علقمة بن قيس -في هذه القاعدة ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾-: «هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله فيسلم لها ويرضَى»(٢).

وقال أبو عثمان الحيري: «من صح إيمانه؛ هدى الله قلبه لاتباع السنة»(٣).

ومن لطيف ما ذكر من القراءات المأثورة -وإن كانت ليست متواترة ولا مشهورة-: أن عكرمة قرأ: «ومن يؤمن بالله **يهدأ قلبه**» أي: يسكن ويطمئن(٤).

ومجيء هذه القاعدة في هذا السياق له دلالات مهمة، من أبرزها:

١- تربية القلب على التسليم على أقدار الله المؤلمة كما سبق.

٢- أن من أعظم ما يعين على تلقي هذه المصائب بهدوء وطمأنينة: الإيمان القوي برب العالمين، والرضا عن الله تعالى، بحيث لا يتردد المؤمن - وهو يعيش المصيبة - بأن اختيار الله خير من اختياره لنفسه، وأن العاقبة الطيبة ستكون له - ما دام مؤمنًا حقًا - فإن الله تعالى ليس له حاجة لا في طاعة العباد، ولا في ابتلائهم!

---

(١) تفسير الطبري: (٢٣/ ٤٢١).

(٢) تفسير الطبري: (٢٣/ ٤٢١).

(٣) تفسير القرطبي: (١٨/ ١٣٩).

(٤) تفسير القرطبي: (١٨/ ١٣٩).

بل من وراء الابتلاء حكمة بل حِكَمٌ وأسرار بالغة لا يحيط بها الإنسان، وإلا فما الذي يفهمه المؤمن حين يسمع قول النبي ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل»؟![1]، وما الذي يوحيه للإنسان ما يقرأه في كتب السير والتواريخ من أنواع الابتلاء التي تعرض لها أئمة الدين؟!

إن الجواب باختصار شديد: «أن أثقال الحياة لا يطيقها المهازيل، والمرء إذا كان لديه متاع ثقيل يريد نقله، لم يستأجر له أطفالًا أو مرضى أو خوارين؛ إنما ينتقي له ذوي الكواهل الصلبة، والمناكب الشداد!! كذلك الحياة، لا ينهض برسالتها الكبرى، ولا ينقلها من طور إلى طور إلا رجال عمالقة وأبطال صابرون!»[2].

ليس بوسع الإنسان أن يسرد قائمة بأنواع المصائب التي تصيب الناس، وتكدر حياتهم، لكن بوسعه أن ينظر في هدي القرآن في هذا الباب، ذلك أن منهج القرآن الكريم في الحديث عن أنواع المصائب حديث مجمل، وتمثيل بأشهر أنواع المصائب، لكننا نجد تركيزًا ظاهرًا على طرق علاج هذه المصائب، ومن ذلك:

١- هذه القاعدة التي نحن بصدد الحديث عنها: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ فهي تنبه إلى ما سبق الحديث عنه من أهمية الصبر والتسليم، وتعزيز الإيمان الذي يصمد لهذه المصائب.

---

(١) الترمذي (٢٣٩٨) وابن ماجه (٤٠٢٣)، وابن حبان (٦٩٩، ٧٠٠)، وقد صححه الترمذي وابن حبان وغيرهما، ولعله لشواهده.

(٢) خلق المسلم: (١٣٣- ١٣٤) باختصار.




٢- ومن طرق معالجة القرآن لشأن المصائب: الإرشاد إلى ذلك الدعاء العظيم الذي جاء ذكره في سورة البقرة، يقول تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٦].

٣- كثرة القصص عن الأنبياء وأتباعهم، الذين لقوا أنواعًا من المصائب والابتلاءات التي تجعل المؤمن يأخذ العبرة، ويتأسى بهم، ويهون عليه ما يصيبه إذا تذكر ما أصابهم، وعلى رأسهم نبينا وإمامنا وسيدنا محمد ﷺ.

ويتبع هذا العلاج القرآني: النظر في سير الصالحين من هذه الأمة وغيرهم، ممن ابتلوا فصبروا، ثم ظفروا، ووجدوا -حقًّا- أثر الرضا والتسليم بهداية يقذفها الله في قلوبهم، وهم يتلقون أقدار الله المؤلمة، والموفق من تعامل مع البلاء بما أرشد الله إليه ورسولُه ﷺ، وبما أرشد إليه العقلاء والحكماء، ففي كلام بعضهم عبر متينة، وتجارب ثرية، فتأمل -مثلًا- إلى مقولة الإمام الجليل أبي حازم -والتي تزيح جبال الهمّ التي جثمت على صدور الكثيرين- يقول: «الدنيا شيئان: فشيء لي، وشيء لغيري، فما كان لي لو طلبته بحيلة من في السموات والأرض لم يأتني قبل أجله، وما كان لغيري لم أرجه فيما مضى، ولا أرجوه فيما بقي، يمنع رزقي من غيري كما يمنع رزق غيري مني، ففي أي هذين أفني عمري؟!»[1].

وبعد: لماذا يتسخط بعضنا ويتوجع على حادثٍ حصل قبل سنوات؟! ولماذا يقلب أحدنا ملف زواجٍ فاشل قبل عقد من الزمن؟! أو صفقةٍ تجارية خاسرة، أو أسهم بارت تجارتها؟! وكأنه بذلك يريد أن يجدد أحزانه!!

(١) حلية الأولياء: (١٠/ ١٠٤).



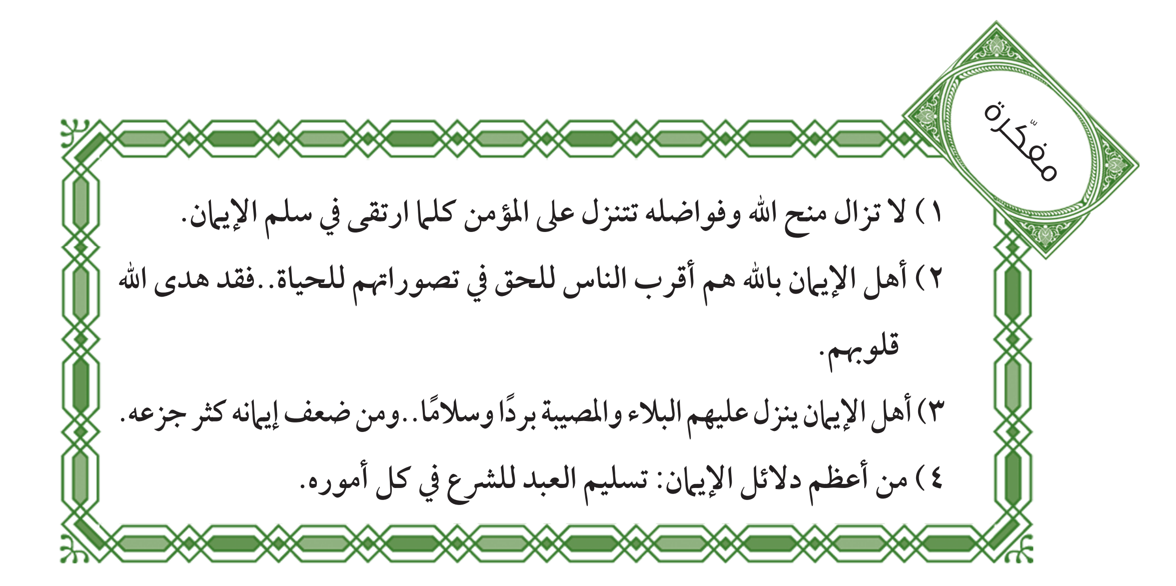



فيا كل مبتلى:

اصبر على القدر المجلوب وارض به — وإن أتـاك بـما لا تشـتهي القـدرُ

فـما صفـا لامـرئٍ عيـشٌ يُـسّر بـه — إلَّا سـيتبع يومًـا صفــوَه كــدرُ

وأوصي في ختام هذه القاعدة بقراءة رسالة قيمة جدًا، قليلة الكلمات، عظيمة المعاني، لشيخ شيوخنا: العلامة الجليل، الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، وعنوان رسالته: «**الوسائل المفيدة للحياة السعيدة**».



١) لا تزال منح الله وفواضله تتنزل على المؤمن كلما ارتقى في سلم الإيمان.

٢) أهل الإيمان بالله هم أقرب الناس للحق في تصوراتهم للحياة..فقد هدى الله قلوبهم.

٣) أهل الإيمان ينزل عليهم البلاء والمصيبة بردًا وسلامًا..ومن ضعف إيمانه كثر جزعه.

٤) من أعظم دلائل الإيمان: تسليم العبد للشرع في كل أموره.



هذه قاعدة قرآنية محكمة، سارت مسار الأمثال، وهي أثر من آثار حكمة الله تعالى في خلقه، تعين من تدبرها على رؤية الأمور بتوازن واعتدال.

وهذه القاعدة جزء من آية كريمة في سورة البقرة وسورة الأعراف، في قصة استسقاء نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام لقومه، يقول تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠].

والمعنى الخاص الذي يتعلق بهذه الآية الكريمة: أن الله تعالى امتن على بني إسرائيل بأن جعل العيون التي انفجرت من ذلك الحجر اثنتي عشرة عينًا، بعدد قبائل بني إسرائيل، منعًا للزحام، وتيسيرًا عليهم؛ ليعرف كل سبط من أسباط بني إسرائيل،

(١) البقرة: ٦٠ .



فلما تحققت هذه المنة اكتملت عليهم النعمة؛ بتنوع المآكل والمشارب من غير جهد ولا تعب، بل هو محض فضل الله ورزقه، وتمت عليهم النعمة بتنظيم أمرهم في الورود والصدور، فأصبحوا منظمين، لا يبغي أحد على أحد، ولا يُنقِص أحدٌ حقّ أحد.

وهذا المعنى -الذي دلّت عليه هذه القاعدة- جاء ذكره في قاعدة أخرى، لكن بلفظ مغاير وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤]، أي على طريقته وسيرته التي اعتادها صاحبها، ونشأ عليها.

وكما أن هذا المعنى الذي دلّت عليه هذه القاعدة فقد جاءت السنة بتقريره كما في قوله ﷺ: «اعملوا، فكل ميسر لما خلق له»[1].

والحاصل: أن هذا المعنى جاءت الشريعة بتقريره بعبارات متنوعة، وجُمَلٍ مختصرة وألفاظ مختلفة، ولعلنا في هذه القاعدة نشير إلى أهم هذه التطبيقات التي حصل بسبب الإخلال بها بعضُ الآثار السيئة، وفات بسبب ذلك بعضُ المكاسب الطيبة، ذلكم هو:

أهمية معرفة الإنسان للمواهب والقدرات التي وهبه الله إياها، ليفيد في المجال الذي يناسبه ويتفق مع قدراته ومواهبه؛ إذ من المتقرر أن الناس ليسوا على درجة واحدة في المواهب والقدرات والطاقات، ولم يجتمع الكمال البشري إلا في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

(١) البخاري ح (٧١١٢)، مسلم ح (٢٦٤٨).








فمعرفة الإنسان لما يحسنه ويتميز به مهم جدًا في تحديد المجال الذي ينطلق فيه؛ ليبدع ولينفع أمته؛ إذ ليس القصد هو العمل فحسب، بل الإبداع والإتقان.

ومن نظر في سير الصحابة رضوان الله عليهم أدرك شيئًا من دقة تطبيقهم لمعاني هذه القاعدة التي نحن بصدد الحديث عنها: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ فمنهم العالم المتخصص، ومنهم المعروف بالسِّنان ومقارعة الفرسان، وثالث يبدع في ميادين الشعر والبيان.

ومن جميل ما يُذكر في هذا المقام: القصة التي رواها ابن عبد البر في «التمهيد» ذلك أن عبد الله بن عبد العزيز العمري العابد، كتب إلى الإمام مالك يحضه إلى الانفراد والعمل، ويَرغبُ به عن الاجتماع إليه في العلم، فكتب إليه مالك: «إن الله ﷻ قَسَم الأعمال كما قَسَم الأرزاق، فرُب رجل فُتح له في الصلاة ولم يُفتح له في الصوم، وآخر فُتح له في الصدقة ولم يُفتح له في الصيام، وآخر فُتح له في الجهاد ولم يُفتح له في الصلاة، ونشرُ العلم وتعليمه من أفضل أعمال البر، وقد رضيتُ بما فتح الله لي فيه من ذلك، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير، ويجب على كل واحد منا أن يرضى بما قسم له، والسلام»[(١)].

وهذا الجواب من الإمام مالك لا يدل على علمه فحسب، بل على وفور عقله، وسمو أدبه، وجودة بيانه عن هذه القضية التي تاه في تقديرها فئام من الناس.

---

(١) التمهيد: (٧/ ١٨٥).



وفي عصرنا هذا برز سِجالٌ يشبه هذا، نبَّه الإمام مالك على خطأ قصور النظر فيه، فإنك واجدٌ في مقالات بعض الناس الذين نفروا للجهاد في سبيل الله **عتابًا ولومًا** لبعض العلماء المتفرغين للتعليم ونشر العلم، طالبين منهم النفير والخروج إلى الجهاد؛ لأن الجهاد أفضل الأعمال، وأنه فرض الوقت و... في سلسلة من التعليلات التي يُصَدّرون بها هذا اللون من العتاب، ويقابل ذلك - أحيانًا - عتاب آخر من قِبَل بعض المشتغلين بالعلم والدعوة، بلوم هؤلاء المتفرغين للجهاد، ورميهم لهم بأن كثيرًا منهم ليس بعالم، ولا يفقه كثيرًا من مسائل الشرع و... في سلسلة من المآخذ التي كان يمكن تهذيبها وتخفيف حدتها لو تأمل الجميع هذه القاعدة وما جاء في معناها، كالقاعدة النبوية الآنفة الذكر: «كل ميسر لما خُلق له».

يوضح هذا ويبينه قول النبي ﷺ: «من أنفق زوجين في سبيل الله نودي في الجنة: يا عبد الله، هذا خير فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان» قال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، ما على أحد يدعى من تلك الأبواب من ضرورة فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال رسول الله ﷺ: «نعم وأرجو أن تكون منهم»[1].

---

(١) البخاري في مواضع، منها: ح (٣٤٦٦)، مسلم ح (١٠٢٧).




قال ابن عبد البر: «وفيه: أن أعمال البر لا يُفتح - في الأغلب - للإنسان الواحد في جميعها، وأن من فُتح له في شيء منها حُرم غيرها في الأغلب، وأنه قد تُفتح في جميعها للقليل من الناس، وأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه من ذلك القليل»[1].

وفي الساحة نماذج كثيرة خسرت الأمة طاقاتهم؛ بسبب الإخلال بما دلّت عليه هذه القاعدة: فهذا شاب مبدع في العلم، وآتاه الله فهماً وقدرةً على الحفظ، وسلك طريقه في العلم، فيأتيه من يأتيه ليقنعه بالانخراط في العمل الخيري، وكأنه -وهو في طريق الطلب- في طريق مفضول، أو عمل مرجوح!

والعكس صحيح، فمن الشباب من يجتهد في طلب العلم، لكنه لا ينجح ولا يتقدم، ويعلم مَنْ حوله أنه ليس من أهل هذا الشأن، فليس من الحكمة في شيء أن يُطالَب هذا الرجل وأمثاله بأكثر مما بذل، فقد دلّت التجربة على أنه ليس من أحلاس العلم، فينبغي توجيهه إلى ما يحسنه من الأعمال؛ فالأمة بحاجة إلى طاقات في العمل الخيري، والإغاثي، والاجتماعي والدعوي.

وفيما أشرنا إليه في تنوع اهتمامات الصحابة رضوان الله عليهم ما يؤكد أهمية فهم هذه القاعدة على الوجه الصحيح؛ حتى لا نخسر طاقات نحن بأمسِّ الحاجة إليها، خصوصًا في هذا الزمن الذي تنوعت فيه الاهتمامات، وتعددت فيه طرائق خدمة الإسلام، ونفع الناس، والموفَّق من عرف ما يُحسِنه، فوظَّفه لخدمة دينه وأمته، وفي الأثر: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه»[2]، وكيف يتأتى الإتقان من شخص لا يحسن ما يعانيه ويعالجه؟!

---

(١) التمهيد: (٧/ ١٨٥).

(٢) أخرجه أبو يعلى: (٧/ ٣٤٩) ح (٤٣٨٦) وفي سنده ضعف، لكن معناه صحيح.



هذه بعض هدايات الوحي: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾، ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾، «اعملوا؛ فكل ميسر لما خلق له»[1]، فهل نتدبرها ونستفيد منها؛ من أجل فاعلية أكثر لطاقاتنا؟.

مفكّرة

١) طوبى لمن عرف مجال تميزه مبكرًا وسعى فيه لنفع أمته.

٢) المجتمع المسلم يجب أن يتكامل بمواهب أبنائه..لا أن يسخر بعضهم من بعض!

٣) حينما يعمل المسلم في المجال الذي يحسنه يكون رافد خير للمجتمع، بخلاف ما إذا تسلق على مجالات غيره.

٤) انهلوا أيها المربون من معين هذه القاعدة العظيمة في تربيتكم لأجيال الإسلام القادمة.

(١) سبق تخريجه آنفًا.



القاعدة التاسعة والأربعون

﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]

هذه قاعدة قرآنية محكمة، لها أثرها البالغ في تصحيح سَير الإنسان إلى ربه، وضبط عباداته ومعاملاته وسلوكياته، ومعرفة ما يخفى عليه أو يُشكل من أمر دينه.

وهذه القاعدة تكررت بنصها في موضعين من كتاب الله تعالى:

الموضع الأول: في سورة النحل، يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٣ - ٤٤].

والموضع الثاني: في سورة الأنبياء، يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

وكلا الآيتين جاء في سياق إرشاد الكفار -المعاندين والمكذبين- إلى سؤال من سبقهم من أهل الكتاب، وفي هذا الإرشاد إيماء واضح إلى أن أولئك المشركين المعاندين لا يعلمون، وأنهم جهال؛ وإلا لما كان في إرشادهم إلى السؤال فائدة.

(١) كررت هذه القاعدة مرتين في القرآن: النحل: ٤٣، والأنبياء: ٧.

وإذا تأملت في هذه القاعدة مع سياقها في الموضعين من سورة النحل والأنبياء، خرجت منها بأمور:

١- عموم هذه القاعدة فيها مدح لأهل العلم.

٢- أن أعلى أنواع هذا العلم: العلمُ بكتاب الله المنزل؛ فإن الله أمر من لا يعلم معاني الوحي بالرجوع إليهم في جميع الحوادث.

٣- أنها تضمنت تعديل أهل العلم وتزكيتهم، حيث أمر بسؤالهم.

٤- أن السائل والجاهل يخرج من التبعة بمجرد السؤال، وفي ضمن هذا: أن الله ائتمنهم على وحيه وتنزيله، وأنهم مأمورون بتزكية أنفسهم، والاتصاف بصفات الكمال.

٥- كما أشارت هذه القاعدة إلى أن أفضل أهل الذكر: أهلُ هذا القرآن العظيم؛ فإنهم أهل الذكر على الحقيقة، وأولى من غيرهم بهذا الاسم(١).

٦- **الأمرُ** بالتعلم، **والسؤالُ** لأهل العلم، ولم يؤمر بسؤالهم إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه.

٧- **وفي تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم** نهي عن سؤال المعروف بالجهل وعدم العلم، ونهي له أن يتصدى لذلك.

---

(١) ينظر: تفسير السعدي (٤٤١، ٥١٩).




٨- وفي هذه القاعدة دليل واضح على أن الاجتهاد لا يجب على جميع الناس؛ لأن الأمر بسؤال العلماء دليل على أن هناك أقوامًا فرضهم السؤال لا الاجتهاد، وهذا كما هو دلالة الشرع، فهو منطق العقل -أيضًا- إذ لا يتصور أحدٌ أن يكون جميع الناس مجتهدين.

لقد مرّ بنا كثيرًا في هذه القواعد، أن المقرر في علم أصول التفسير: أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وهذه القاعدة -التي نحن بصدد الحديث عنها- مثال لذلك، فهذه الآية وإن كان سببها خاصًا بأمر المعاندين أن يسألوا عن حالة الرسل المتقدمين لأهل الذكر - وهم أهل العلم -؛ فإنها عامة في كل مسألة من مسائل الدين: أصوله وفروعه، إذا لم يكن عند الإنسان علمٌ منها وبها، فعليه أن يسأل من يعلمها.

وهذا من الوضوح بمكان، بحيث لا يحتاج إلى استطراد، إلا أن الذي يحتاج إلى تنبيه وتوضيح هو ما يقع من مخالفة هذه القاعدة في واقع الناس، وخرقٍ للآداب التي تتعلق بهذا الموضوع المهم، ومن صور ذلك:

١- أنك ترى بعض الناس حينما تعرض له مشكلة أو نازلة، واحتاج إلى السؤال عنها سأل عنها أقرب شخص يمر به، ولو لم يعلم حاله، هل هو من أهل العلم أم لا! وبعض الناس يعتمد على المظاهر، فإذا رأى من سيماه الخير ظنّ أنه من طلاب العلم أو العلماء الذين يستفتى مثلهم!



وكل ذلك غلط بيّن، ومخالف لما دلت عليه هذه القاعدة المحكمة: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾!

ولا أدري، ماذا يصنع هؤلاء إذا مرض أحدهم؟ أيستوقفون أول مارٍّ عليهم في الشارع فيسألونه! أم يذهبون إلى أمهر الأطباء وأكثرهم حذقًا؟

ولا أدري ماذا يصنع هؤلاء إذا أصاب سيارته عطل أو تلف؟ أيسلمها لأقرب من يمر به؟ أم يبحث عن أحسن مهندس يتقن تصليح ما أصاب سيارته من تلف؟

إذا كان هذا في إصلاح دنياه، فإن توقيه في إصلاح دينه أعظم وأخطر!

قال مالك بن أنس رحمه الله: «**إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم**»[(1)].

ومن صور مخالفة هذه القاعدة:

٢- عدم التثبت في الأخذ عن أهل الذكر حقًا؛ ذلك أن المنتسبين للعلم كثرٌ، والمتشبهين بهم أضعاف ذلك، ومن شاهد بعض من يظهرون في الفضائيات أدرك شيئًا من ذلك؛ فإن الناس -بسبب ضعف إدراكهم، وقلة تمييزهم- يظنون أن كلّ من يتحدث عن الإسلام فهو عالمٌ، ويمكن استفتاؤه في مسائل الشرع! ولا يفرقون بين الداعية أو الخطيب، وبين العالم الذي يعرف مآخذ الأدلة، ومدارك النصوص، فظهر -تبعًا لذلك- ألوان من الفتاوى الشاذة، بل والغلط الذي لا يُحتمل ولا يُقْبَل، وكثُر اتباع الهوى، وتتبع الرخص من عامة الناس، فرقّ تدينهم، وضعفت عبوديتهم بأسباب من أهمها: فوضى الفتاوى التي تعج بها كثير من الفضائيات.

---

(١) تهذيب الكمال في أسماء الرجال: (١/ ١٦١).




وهذا ما يجعل الإنسان يفهم ويدرك جيدًا موقع المقالات المأثورة عن السلف -رحمهم الله- في شأن الفتوى وخطورتها، وهي نصوص ومواقف كثيرة، منها:

ما رواه ابن عبد البر: أن رجلًا دخل على ربيعة بن عبد الرحمن -شيخ الإمام مالك- فوجده يبكي! فقال له: ما يبكيك؟ -وارتاع لبكائه-، فقال له: أمصيبة دخلت عليك؟ فقال: لا، ولكن استُفتي من لا علم له! وظهر في الإسلام أمر عظيم! قال ربيعة: ولَبَعض من يفتي ههنا أحق بالسجن من السُّراق[1].

علّق العلامة ابن حمدان الحراني على هذه القصة فقال:

«قلت: فكيف لو رأى ربيعة زماننا، وإقدام من لا علم عنده على الفتيا، مع قلة خبرته وسوء سيرته وشؤم سريرته؟! وإنما قصده السمعة والرياء، ومماثلة الفضلاء والنبلاء والمشهورين المستورين، والعلماء الراسخين، والمتبحرين السابقين، ومع هذا فهم يُنْهَون فلا ينتهون، ويُنَبَّهون فلا ينتبهون، قد أملي لهم بانعكاف الجهال عليهم، وتركوا ما لهم في ذلك وما عليهم»[2].

والمقصود من هذا البيان الموجز: التنبيه على ضرورة تحري الإنسان في سؤاله، وأن لا يسأل إلا من تبْرأ به الذمة، ومن هو أتقى وأعلم وأورع؛ فهؤلاء هم أهل الذكر حقًا، الذين نصت هذه القاعدة على وصفهم بهذا: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

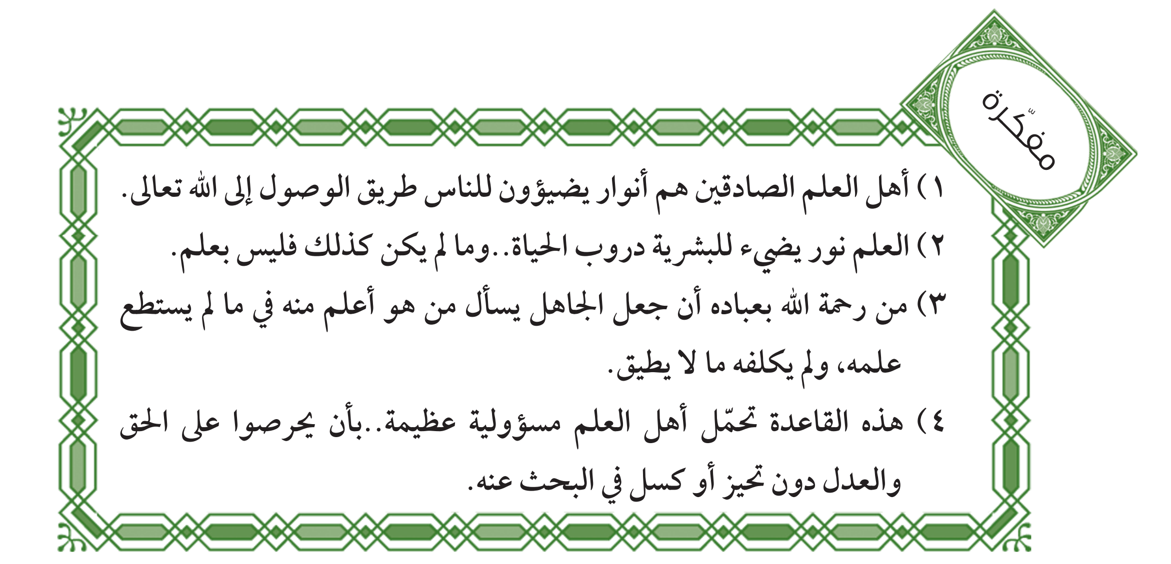
(١) جامع بيان العلم وفضله: (٢/ ٢٠١).

(٢) صفة الفتوى (١١) لأحمد بن حمدان النمري.



وختامًا: فإن الحديث السابق لا يُفهم منه -أبدًا- أن جميع من يظهرون على الفضائيات كمن ذُكِروا آنفًا، بل فيمن يظهر -ولله الحمد- عدد طيب من العلماء الراسخين، والشيوخ المتقنين، لكن الحديث كان منصبًا على طوائف من المفتين، ليسوا على جادة أهل العلم في الفتوى، وليسوا أهلًا لها: ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِ﴾ [محمد: ٣٠].

والله المستعان، وعليه التكلان، ونعوذ به تعالى أن نقول عليه، أو على رسوله ﷺ ما لا نعلم.



١) أهل العلم الصادقين هم أنوار يضيؤون للناس طريق الوصول إلى الله تعالى.
٢) العلم نور يضيء للبشرية دروب الحياة..وما لم يكن كذلك فليس بعلم.
٣) من رحمة الله بعباده أن جعل الجاهل يسأل من هو أعلم منه في ما لم يستطع علمه، ولم يكلفه ما لا يطيق.
٤) هذه القاعدة تحمّل أهل العلم مسؤولية عظيمة..بأن يحرصوا على الحق والعدل دون تحيز أو كسل في البحث عنه.



لعل ختم هذا الكتاب بهذه القاعدة من المناسبة بوضوح، والتي تجعل المؤمن يزداد يقينًا بعظمة هذا القرآن، وأنه الكتاب الوحيد الذي يصلح لكل زمان ومكان، إنها القاعدة التي دل عليها قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

وهذه القاعدة جاءت ضمن آية كريمة في سورة الإسراء، والتي يقول الله فيها: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء: ٩ - ١٠].

قال قتادة رحمه الله -موضحًا بكلمات موجزة معنى هذه القاعدة-: «إن القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم: فأما داؤكم فالذنوب والخطايا، وأما دواؤكم فالاستغفار»(٢).

(١) الإسراء: ٩ .

(٢) الدر المنثور: (٥/ ٢٤٥).

وهذا التفسير من هذا الإمام الجليل إشارةٌ واضحة إلى شموله إلى علاج جميع الأدواء، وأن فيه جميع الأدوية، لكن يبقى الشأن في الباحثين عن تلك الأدوية في هذا القرآن العظيم.

ومن أراد أن يقف على شيء من محاولات العلماء -رحمهم الله- في استلهام شيء من ذلك، فليقرأ ما كتبه العلامة الشنقيطي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية الكريمة، والقاعدة التي نحن بصدد الحديث عنها؛ فإنه قد كتب نحوًا من ستين صفحة؛ وهو يتحدث عن نماذج عالجها القرآن، وهَدَى لأقوم الطرق في حلِّها، أنتقي من كلامه ما له صلة مباشرة بتوضيح كلية هذه القاعدة، حيث يقول رحمه الله: «ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن هذا القرآن العظيم الذي هو أعظم الكتب السماوية، وأجمعها لجميع العلوم، وآخرها عهدًا برب العالمين جل وعلا يهدي للتي هي أقوم، أي الطريقة التي هي أسد وأعدل وأصوب... وهذه الآية الكريمة أجمل الله جل وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق، وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم؛ لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة، ولكننا -إن شاء الله تعالى- سنذكر جملًا وافرة في جهات مختلفة كثيرة من هدي القرآن للطريق التي هي أقوم؛ بيانًا لبعض ما أشارت إليه الآية الكريمة، تنبيهًا ببعضه على كله من المسائل العظام، والمسائل التي أنكرها الملحدون من الكفار، وطعنوا بسببها في دين الإسلام؛ لقصور إدراكهم عن معرفة حِكَمها البالغة...»[1] ثم سرد جملة من المسائل العقدية والاجتماعية.

(١) أضواء البيان: (٣/ ١٧- ٥٤).

دعنا نستعرض -بإجمال شديد- شيئًا من أنواع هذه الهدايات التي دل هدى القرآن للطريق الأقوم فيها:

«إنه يهدي للتي هي أقوم في ضبط التوازن بين ظاهر الإنسان وباطنه، وبين مشاعره وسلوكه، وبين عقيدته وعمله...

ويهدي للتي هي أقوم في عالم العبادة: بالموازنة بين التكاليف والطاقة، فلا تشق التكاليف على النفس حتى تمل وتيأس من الوفاء، ولا تسهل وتترخص حتى تشيع في النفس الرخاوة والاستهتار، ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال.

ويهدي للتي هي أقوم في علاقات الناس بعضهم ببعض: أفرادًا وأزواجًا، وحكومات وشعوبًا، ودولًا وأجناسًا، ويقيم هذه العلاقات على الأسس الوطيدة الثابتة التي لا تتأثر بالرأي والهوى، ولا تميل مع المودة والشنآن، ولا تصرفها المصالح والأغراض...

ويهدي للتي هي أقوم في تبني الديانات السماوية جميعها، والربط بينها كلها، وتعظيم مقدساتها وصيانة حرماتها؛ فإذا البشرية كلها بجميع عقائدها السماوية في سلام ووئام...»[1].

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن (٤/ ٢٢١٥).

إذا تأملنا هذا الإطلاق في هذه القاعدة: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ أدركت أنها آية تتجاوز في هدايتها حدود الزمان والمكان، وتتجاوز كل الأنظمة والقوانين التي كانت قائمة أو التي ستقوم بعد ذلك!

إنها قاعدة تقطع الطريق على جميع المنهزمين والمتخاذلين من أهل الإسلام أو المنتسبين له، أو من الزنادقة، الذين يظنون -لجهلهم- أن هذا القرآن إنما هو كتاب رقائق ومواعظ، ويعالج قضايا محدودة من الأحكام! أما القضايا الكبرى، كقضايا السياسة، والعلاقات الدولية، ونحوها، فإن القرآن ليس فيه ما يشفي في علاج هذه القضايا!!

وهذا الكلام - فضلًا عن كونه خطيرًا وقد يؤدي إلى الكفر - فإنه سوء أدب مع الله! ذلك أن ربنا - وهو العليم الخبير - يعلم حين أنزل القرآن أن العباد سيُقبلون على متغيرات كثيرة، وانفتاح، وعلاقات، ومستجدات، فلم يتركهم هملًا، بل حفظ لهم هذا القرآن ليرجعوا إلى هداياته، وحفظ لهم سنة نبيه ﷺ لتكون شارحةً لما أجمل من قواعد القرآن، بل وجعل في السنة أحكامًا مستقلة، فمن أراد الهداية وجدها فيهما، ومن كان في عينيه عشى، أو في قلبه عمى، فلْيَتَّهم نفسه، ولا يرمين نصوص الوحي بالنقص والقصور:

قد تنكرُ العينُ ضوء الشمسِ من رمدٍ وَيُنْكِرُ الفَم طَعْمَ الماء مِنْ سَقَم[1]

(١) هذا البيت ضمن بردة البوصيري.

وأختم ما أردتُ الإشارة إليه في الحديث عن هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ بهذه القصة التي وقفتُ عليها، وهي أنني أذكر أن أحد العلماء لما طُلِبَ منه أن يلقي محاضرة حول هداية هذه القاعدة: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ قال في نفسه: وماذا سأقول عن هذه الآية في ساعة أو أكثر؟! فقررت أن أراجع كلام بعض المفسرين حولها، فبدأت بتفسير السعدي، فوجدته يقول: «يخبر تعالى عن شرف القرآن وجلالته وأنه ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ أي: أعدل وأعلى من العقائد، والأعمال، والأخلاق»[1].

فقررت أن أبدأ بالحديث عن هداية القرآن للتي هي أقوم في أبواب العقائد، فانتهى وقت المحاضرة ولم أنته من الحديث عن هذه الجزئية فقط! فكيف بمن أراد الحديث عن هداية القرآن للتي هي أقوم في أبواب العبادات؟ والمعاملات؟ والأحوال الشخصية؟ والحدود؟ والأخلاق والسلوك؟ فعلمت أن من يريد الحديث عن هذه القاعدة، فسيحتاج إلى عشرات المحاضرات.

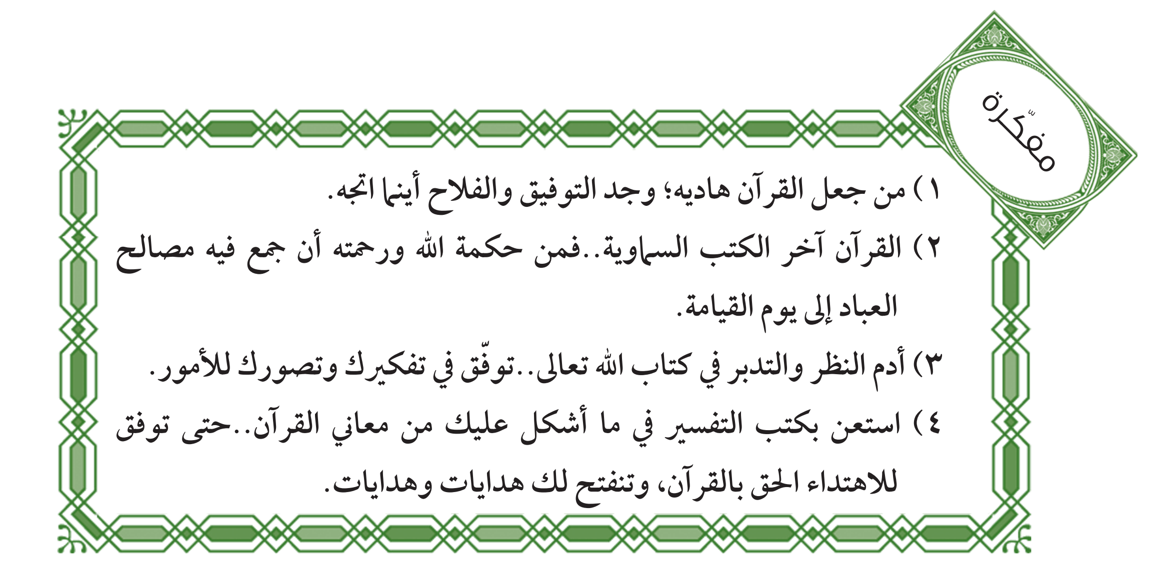
هذا كتاب ربنا، يخبرنا فيه أنه يهدي للتي هي أقوم، فأين الباحثون عن هداياته؟ وأين الواردون حياضه؟ وأين الناهلون من معينه؟ وأين المهتدون بتوجيهاته؟.

وبعد: -أيها القارئ- فهذه هي القاعدة المتممة للخمسين، وبها ينتهي كلامنا على جملة من القواعد التي تضمنها كتاب الله العظيم، وتسليط الضوء على تلك القواعد، وإبراز بعض ما تضمنته من هدايات وتوجيهات ربانية،

(١) تفسير السعدي (٤٥٤).

ومحاولة تنزيلها على واقع الناس؛ لأن من أجلى صور عظمة القرآن: هو تجدد معانيه بتجدد أحوال الناس؛ ليبقى هاديًا ومقيمًا لمن أراد الله هدايته واستقامته، ولهذا السبب -أيضًا- ختمت بذكر هذه القاعدة ليزداد يقين الإنسان -في ضوء ما تقدم ذكره من قواعد قرآنية- من أن هذا القرآن حقًّا ويقينًا يهدي للتي هي أقوم.

والحمد لله رب العالمين.



١) من جعل القرآن هاديه؛ وجد التوفيق والفلاح أينما اتجه.

٢) القرآن آخر الكتب السماوية..فمن حكمة الله ورحمته أن جمع فيه مصالح العباد إلى يوم القيامة.

٣) أدم النظر والتدبر في كتاب الله تعالى..توفّق في تفكيرك وتصورك للأمور.

٤) استعن بكتب التفسير في ما أشكل عليك من معاني القرآن..حتى توفق للاهتداء الحق بالقرآن، وتنفتح لك هدايات وهدايات.


فهرس الآيات
(مرتبة على السور)



الآية	السورة	الصفحة
القاعدة السادسة والأربعون: قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُ﴾	[البقرة: ١٩٧]	٢٨٣
القاعدة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡ﴾	[البقرة: ٢١٦]	١٧
القاعدة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡ﴾	[البقرة: ٢٣٧]	٢٣
القاعدة التاسعة: قوله تعالى: ﴿وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰ﴾	[آل عمران: ٣٦]	٥٧
القاعدة الثانية والعشرون: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾	[آل عمران: ١٧١]	١٣٩
القاعدة الثالثة عشر: قوله تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗا﴾	[النساء: ١١]	٨٥
القاعدة الحادية والثلاثون: قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾	[النساء: ١٩]	١٩٣
القاعدة التاسعة والعشرون: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡ﴾	[النساء: ٤٥]	١٨١
القاعدة السادسة: قوله تعالى: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾	[النساء: ١٢٨]	٤١










الآية	السورة	الصفحة
القاعدة الثانية عشرة: قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾	[الحجرات: ١٣]	٧٩
القاعدة الرابعة والأربعون: قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾	[الحشر: ٧]	٢٧١
القاعدة الثالثة والأربعون: قوله الله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾	[الحشر: ٩]	٢٦٥
القاعدة السابعة والأربعون: قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾	[التغابن: ١١]	٢٨٩
القاعدة السادسة والثلاثون: قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾	[التغابن: ١٦]	٢٢٣
القاعدة الرابعة: قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾	[القيامة: ١٤]	٢٩
القاعدة الثامنة والثلاثون: قول الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾	[الزلزلة: ٧-٨]	٢٣٥
القاعدة التاسعة والثلاثون: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾	[الشرح: ٧-٨]	٢٤١


فهرس الفوائد










فهرس الموضوعات

